موسوعة

الأخلاق والآداب

في

سؤال وجواب

إعداد

إسلام محمود دربالة

مدير مركز أبحاث ودراسات المستقبل للإسلام

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٥٢٧٩١

مكتبة الايمان

المنصورة – امام جامعة الازهر
ت : ٠٥٠/ ٢٢٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وبعد:

«الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان، وخلق له السمع والبصر والقوى والجوارح والبنان، وشرفه بمعرفته، وأهله لخدمته، وفضله على سائر الحيوان، واختصه بالنهي والأمر، والوزر والأجر، والطاعة والعصيان، ومنحه الحلم والحزم، والفكر والفهم، والذكر والعلم، والتحقق والعرفان، ونحله الرضى والغضب، والتودد والأدب، والتلطف والأرب، والرقة والجشب، والراحة واللغب، والتذكر والنسيان، سبحانه من إله خلق فسوى، وقدر فهدى، وأمات فأحيا، وأعطى ومنع، وخفض ورفع، ، وأتم الدين، وأعلن البرهان، حد الحدود، وعم بالفضل الوجود، وبّين الأحكام من مباح وحلال وحرام، ومكروه ومندوب، فاندرج فيها الأدب المطلوب، ففضل هذا الدين على سائر الأديان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضد له ولا ند له، ولا وزير ولا مشير ولا أعوان، بل هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصحابة والولد، فهو القادر المقتدر الحكيم الديان.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، وأمينه على وحيه، وشهيده على أمره ونهيه، سيد ولد عدنان، الذي أكمل خلقه، وعظم خلقه، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وأدبه فأحسن تأديبه، فكان خلقه القرآن، وأيده بالوحي والتنزيل، والفضل والتفضيل، والبيان والتفصيل، والحكمة والتأويل، والحسن والإحسان.

اللهم صل وسلم وشرف وعظم وبجل وكرم، وضاعف ذلك على هذا النبي الكريم، المنعوت في الكتاب الكريم، بأعظم نعت وأتم تفخيم، بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيالها من مزية ساد بها على الملائكة والانس والجان. وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وحزبه، وأصهاره وأحبابه، المتخلقين بخلقه، والمتأدبين بآدابه في السر والإعلان. الذين بذلوا نفوسهم النفيسة في إظهار دينه القويم، وجاهدوا بسمر القنا وبيض الظبا من حاد عن صراطه المستقيم، ونشروا السنة والكتاب، وأظهروا الفروض والآداب، بأسلم قلب وأفصح لسان، وعلى تابعيهم، والأئمة المجتهدين ومقلديهم، ما نقلت أخبارهم، ودونت آثارهم، وكر الجديدان، وتعاقب الملوان»[1]

قال النبي ﷺ: «**أثقل شيء في الميزان، الخلق الحسن**»[2].

وقال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»[3].

وقال ﷺ: «**إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة مجالس أحاسنكم أخلاقًا**، وإن

---

(١) من مقدمة العلامة السفاريني لكتابه غذاء الألباب شرح منظومة الآداب - بتصرف يسير.

(٢) رواه أبو داود (٤٧٧٨ عون) الأدب، والترمذي (٢٠٠٣) البر والصلة، وأحمد (٦/ ٤٤٦/ ٤٤٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٠)، وابن حبان (٢/ ٤٨١ الإحسان)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن حبان (٢/ ٤٧٩ الإحسان) البر والإحسان وصححه الألباني.

أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقًا، الثرثارون والمتفيهقون، والمتشدقون»[(١)]. وقال ﷺ: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»[(٢)]. وقال ﷺ: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها»[(٣)]. وقال ﷺ: «إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته»[(٤)]. وقال ﷺ: «إن الناس لم يعطوا شيئًا خيرًا من خُلُق حسن»[(٥)]. وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(٦)]. وقال ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا، المواطئون أكنافًا، وشراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»[(٧)]. وقال ﷺ: «خير ما أعطى الناس خلق حسن»[(٨)]. وقال ﷺ: «ليس شيء اثقل في الميزان من الخلق الحسن»[(٩)].

قال ابن ماسكويه: «الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين:

---

(١) روه أحمد (٤/ ١٩٣)، وابن حبان (٢/ ٤٨٢ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة وصححه العلامة الألباني (٣٣٩٥).

(٢) رواه الحاكم (١/ ٦٠) الإيمان، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وصححه العلامة الألباني.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، انظر مجمع البحرين رقم (٢٩٢٦) وصححه العلامة الألباني في الجامع رقم (١٧٣٩).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٧٧) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٥٢٢).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٤٥) وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) رواه البيهقي في الشعب (رقم ٧٩٨٨) باب حسن الخلق، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٢٥٥).

(٨) رواه الحاكم مطولًا (١/ ١٢١) العلم، وقال صحيح ولم يخرجاه وكذا في (٤/ ١٩٩) الطب. وقال: هذا حديث أسانيده صحيحة كلها على شرط الشيخين ولم يخرجاه والعلة عندهم، فيه أن أسامة بن شريك ليس له غير زياد بن علاقة، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣١٦).

(٩) رواه أحمد (٦/ ٤٤٦-٤٤٨) وصححه العلامة الألباني في الصحيحة رقم (٨٦٧).

منها ما يكون طبيعيًا: من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ويهيج من أقل سبب.

وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء، كالذي يجبن من أدنى صوت يطرق سمعه، أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكًا مفرطًا من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله.

ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولًا فأولًا حتى يصير ملكةً وخلقًا[١]

مدح الله ﷻ نبيه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعلى خلق عظيم، دين أحب إليّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام. فجعل الدين كله خلقًا، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الدين.

وقال الحسن رضي الله عنه هو آداب القرآن، وقال ابن القيم: «إنك لعلى الخلق الذي آثرك الله به في القرآن».

وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا[٣].

قال النووي: «معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته»[٤].

«ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة، وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه، ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن ماسكويه، حققه وشرح غريبه ابن الخطيب (٤١) الطبعة الأولى، المكتبة المصرية.

(٢) سورة القلم: ٤ .

(٣) انظر صلاح الأمة في علو الهمة للشيخ سيد حسين العفاني (٥/ ٢٢٥)، والحديث رواه مسلم (٧٤٦) صلاة المسافرين، مطولًا، وأحمد (٦/ ٤٥).

(٤) شرح النووي في صحيح مسلم (٦/ ٣٨، ٣٩).

من كل شيء آخر أعظم بصدورها عن العلي الكبير، وأعظم بتلقي محمد ﷺ لها وهو يعلم من هو العلي الكبير، وبقائه بعدها ثابتًا راسخًا مطمئنًا، لا يتكبر على العباد، ولا ينتفخ، ولا يتعاظم، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير»(١).

«وقد تمثلت هذه الأخلاق الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها وإطرادها وثباتها في محمد ﷺ، وتمثلت في ثناء الله العظيم وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(٣)، قال فضل الله الجيلاني: «لا يكون دين من الأديان خاليًا من مكارم الأخلاق، لكن لم تكن الأخلاق الكريمة مجموعة كلها في دين من الأديان السابقة حتى جمع الله في دين الإسلام كل ما كان من أخلاق حسنة، فهذا معنى «**أتمم مكارم الأخلاق**» أي أبلغ نهايتها»(٤).

قال الأستاذ/ محمد محمود الباني ما ملخصه: «الأخلاق هي مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس، وعلى ضوئها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح».

وبما أن الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة فقد اتصف بالأوصاف الخلقية المحمودة كالعلم والحلم والتواضع والكرم والصدق والوفاء وشدة الحياء وحسن المعاشرة والآداب إلى غير ذلك من الخصال العلية والأخلاق المرضية أخرج الشيخان عن أنس ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، ولا قال لشيء فعلته؟ لم فعلته ولا لشيء لم أفعله إلا فعلته وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، وما مسست خزًا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكًا ولا عطرًا

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٥٦) ط. دار العلم بجدة.

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٥٨).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٧١)، والحاكم (٢/ ٦٣١) التاريخ، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال العلامة الألباني (٤٥): وهذا إسناد حسن، وابن عجلان إنما أخرج له مسلم مقرونًا بغيره، وله شاهد أخرجه ابن وهب في الجامع؛ فالحديث صحيح.

(٤) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد (١/ ٢٧١).

أطيب من عرق رسول الله ﷺ[١].

قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عندما جاءها في أول بدء الوحي خائفًا: «كلا والله لا يخزيك الله أبدًا: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على النوائب»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ قال: **«لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا، ولا لعانًا، ولا فاحشًا، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة: ما له تربت جبينه»**[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا قط ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئًا إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما. وفي رواية: «إلا اختار أيسرهما، إلا أن تكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، وما انتقم رسول الله - ﷺ، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس من الإثم، وما انتقم رسول الله ﷺ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله»[٤].

ومن أقوال السلف -رحمهم الله- في حسن الخلق:

قال الحسن: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى.

وقال أبو عثمان: هو الرضا عن الله تعالى.

وقال سهل التستري: أدناه الاحتمال، وترك المكافأة، والرحمة للظالم. والاستغفار له، والشفقة عليه.

أن لا يتهم الحق في الرزق، ويثق به، ويسكن إلى الوفاء بما ضمن، فيعطيه ولا يعصيه في جميع الأمور فيما بينه وبينه، وفيما بينه وبين الناس .

وقيل: حسن الخلق بذل الجميل، وكف القبيح.

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٧١:) الأدب، ومسلم (٢٣٠٩) الفضائل.

(٢) رواه البخاري (١/ ٣٠) بدء الوحي.

(٣) رواه البخاري (١٠/٤٦٧) الأدب، وأحمد (٣/١٢٦، ١٤٤، ١٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٣٢٧) الفضائل، وأبو داود (٤٧٥٦ عون) الأدب مختصرًا.

وقيل: التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل.

وقال يحيي بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وقال ﷺ: سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضر معها كثرة السيئات.

وقال الجنيد: أربع ترفع العبد على أعلى الدرجات وإن قل علمه وعمله:

الحلم، والتواضع، والسخاء، وحسن الخلق، وهو كمال الإيمان.

وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلى من أن يصحبني عابد سيء الخلق.

وقال يوسف بن أسباط: علامة حسن الخلق عشر خصال:

١- قلة الخلاف.

٢- وحُسن الإنصاف.

٣- وترك طلب العثرات.

٤- وتحسين ما يبدو من السيئات.

٥- والتماس المعذرة.

٦- واحتمال الأذى.

٧- والرجوع بالملامة على النفس.

٨- والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره.

٩- وطلاقة الوجه للصغير والكبير.

١٠- ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه.

وذهب الغزالي إلى أن حُسن الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال الجميلة المحمودة شرعًا وعقلًا بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية، فها هنا أربعة أمور:

أحدها: فعل الجميل.

والثاني: القدرة عليه.

والثالث: المعرفة به.

والرابع: هيئة للنفس بها تميل على الحسن ويتيسر عليها.

وليس الخلق عبارة عن الفعل؛ رب شخص خلقه السخاء ولا يبذل، إما لفقد المال، أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء.

وليس هو عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة إلى الإمساك والإعطاء واحد، وكل إنسان خلق بالفطرة قادرًا على الإعطاء، والإمساك.

وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد،بل هو عبارة عن المعنى الرابع،فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة[(١)].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «وحُسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة الرفق وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والفداء الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقتهن وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها ويكبحها عن الجزع والبطش.

والعدل: يحمله على اعتدال الخلق وتوسطه فيما بين طرق الإفراط والتفريط»[(٢)].

---

(١) نقلًا عن صلاح الأمة (٥/ ٢٤٠).

(٢) باختصار من مدارج السالكين (٣/ ٣٠٨- ٢٣١١).

ومن أمثلة حسن خلق السلف ﷺ:

شتم رجل سلمان الفارسي فقال له: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول.

وشتم رجل الربيع بن خيثم فقال له: يا هذا سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول.

وقالت له امرأة: يا مرائي. فقال: ما عرفني غيرك.

وقال علي بن يزيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانًا طويلًا ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا.

شتم رجل الأحنف بن قيس فسكت عنه: وأعاد الرجل فسكت عنه وأعاد فسكت عنه. فقال الرجل: والهفاه ما يمنعه من أن يرد على إلا هواني عنده.

وشتمه رجل وجعل يتبعه حتى بلغ حيه. فقال الأحنف: يا هذا إن كان بقى في نفسك شيء فهاته وانصرف. لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره.

وقال رجل لمالك بن دينار: بلغني أنك ذكرتني بسوء ؟! قال: أنت أكرم على من نفسي، إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي.

وقال رجل لبعض الحكماء: والله لأسبنك سبًا يدخل معك في قبرك. فقال: معك يدخل لا معي.

وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب.

قال محمود الوراق:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثلي مقاوم

فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لائم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك من الفاسقين. قال: ليس تقبل شهادتك.

سب رجل ابن عباس ﷺ، فلما فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فتقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل، فرمى إليه بخميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم.

فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل ما يبعد عن الله، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

قال يحيي بن منده: كان عمي سيفًا على أهل البدع، وهو أكبر من أنه يثني عليه مثلي، كان -والله- آمرًا بالمعروف. ناهيًا عن المنكر، كثير الذكر، قاهرًا لنفسه، عظيم الحلم، كثير العلم. قرأت عليه قول شعبة: من كتبت عنه حديثًا فأنا له عبد: فقال عمي: من كتب عني حديثًا فأنا له عبد.

قال خطيب الموصل أبو الفضل: حدثني أبي قال توجهت من الموصل سنة ٤٥٩هـ إلى أبي إسحاق -يعني الشيرازي- فلما حضرت عنده رحب بي وقال: من أين أنت؟ فقلت: من الموصل. قال: مرحبًا، أنت بلديي.

قلت: يا سيدي أنت من فيروز آباد؟ قال: أما جمعتنا سفينة نوح؟

فشاهدت من حسن أخلاقه، ولطائفه، وزهده ما حبب إلى لزومه، فصحبته إلى أن مات.

وقيل إن أبا إسحاق نزع عمامته -وكانت بعشرين دينارًا- وتوضأ في دجلة فجأة لص فأخذها وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبستها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرس. فقال: لعل الذي أخذها محتاج.

قيل للأحنف بن قيس: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما بلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتته جارية بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت الجارية فقال لها: لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى.

كان الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قيل له: إن فلانًا يقع في عرضك يقول: والله لأغيظن من أمره -يعني إبليس- ثم يقول: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كاذبًا فاغفر له.

وكان أبو معاوية الأسود يدعو لمن نال منه

وشتم رجل بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فبالغ في شتمه وهو ساكت.

فقيل له: ألا تشتمه كما شتمك فقال: إني لا أعرف له شيئًا من المساوئ حتى أشتمه به ولا يحل لي أن أرميه بالكذب.

وقال رجل مرة لسالم بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا شيخ السوء فقال له سالم: ما أراك أبعدت يا أخي[(١)].

ويذكر العلامة جمال الدين القاسمي جملة من الأخلاق التي ينبغي أن يتربى عليها أهل الإسلام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ملخصه: «كل من أعار الوجود نظره البصير علم أن حاجة المرء على تأديب نفسه، لا تفوقها حاجة، لأن الإنسان إلى الشر أميل منه إلى الخير، وعلى الشهوات النفسية أميل منه إلى الكمالات الروحية، فكان من المحتم العناية بتهذيب خلقه، وتحليه بالمحاسن والفضائل، وتطهير نفسه من المساوئ والرذائل، فيصبح محمود

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (٥/ ٢٥٣-٢٧٠)

الأقوال والأفعال، مثالًا للفضيلة والكمال، وهذه شذرة مما يلزمك أن تتخلق به من آداب نفسك: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، لا تستخفن بفضائل شريف، لا تميلن إلى سخيف، لا تقولن هجرًا لئلا يسقط قدرك، لا تفعلن نكرًا لئلا يقبح ذكرك، إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن، فكلام الإنسان بيان فضله، وترجمان عقله، فأقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يستقبح من الكلام فإنه ينفر عنك الكرام، ويوثب عليك اللئام، إياك واللجاج فإنه يوغر القلوب، وينتج الحروب، فاقتصر من الكلام على ما يثبت حجتك ويبلغك حاجتك، ون قال بلا احترام أجيب بلا احتشام، لا تعود نفسك إلا ما تحظى بأجره وتحمد على ذكره، وإياك ومحاجة من يملكك قهره وينفذ فيك أمره، يستدل على رزانة الرجل بقلة نطقه ومقاله، وعلى فضله بفضل عمله واحتماله فأكرم إخوانك، وأكثر خلانك، وأكفهم لسانك، فطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، تعام عما تسوؤك رؤيته، وتغاب عما تضرك معرفته، ولا تشر على م لا يقبل منك، ولا تجب عما لا تسأل عنه، وإذا عاتبت فاستبق، وإذا صنعت معروفًا فاستره، وإذا صنع إليك فانشره، وإذا أذنبت فاعتذر، وإذا أذنب إليك فاغتفر، فالمعذرة بيان العقل، والمغفرة بيان الفضل، لا تزهد في رجل عرف فضله، وجرب عقله، ولا تعن قويًا على ضعيف. وتلا تؤثر دنيا على شرف، ولا تشر بما يعقب الوزر والإثم، ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم.

الق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة منهما، وتوقر من غير كبر، وتواضع من غير مذلة، ليكن ضالة عقلك التي ينشدها ونجعته التي يرتاده الحق، فاحكم به ولو على نفسك، ولا تكن ممن تأخذ العزة بالإثم، عليك بالنشاط والعمل، وترك البطالة والكسل، ولا تكن كلًا على غيرك، فإن الرجل كل الرجل الذي يأكل من كسبه، ويشرب من ورده.

أقدم على جلائل الأعمال مع الصبر والثبات، واحمل نفسك على معالي الأمور والتثبت بأحسن الأعمال، والأمور العظام والتهاون لنيلها بالآلام، فإن الكسل من

النقائص التي توجب الخسائس، والشرور.

وقد قيل: إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقت في بحر الحرمان.. ليكن مجلسك هادئًا. وحديثك موزونًا مرتبًا، وإذا جلست فلا تستوفر، وتحفظ من تشبيك أصابعك وفرقعتها، والعبث بشاربك ولحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنحنحك، والتمطي والتثاؤب في وجه الناس وفي الصلاة وغيرها.

أصغ إلى الكلام الحق ممن حدثك من غير إظهار تعجب مفرط، ولا تسأله إعادته، واسكت عن المضاحك والحكايات، لا تحدث عن إعجابك بولدك وشرعك وكلامك وتضيفك وسائر ما يخصك. إذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك، وتفكر في جهتك.

لتكن سهل اللقاء والبشاشة ولو في حال المرض، وبادر بالتحية والبشر من تلقاه واكتم بؤسك، واجعل شكواك لمن يقدر على غناك، ولا تحضر منازعة فإنك لا تخلو من قسط من أذاها، ولو بالمطالبة بأداء الشهادة.

إياك والانبساط فإنه عورة من عوراتك، فلا تبذله إلا لمأمون عليه حقيق به، لا تتصنع تصنع المرأة في التزين، ولا تتبذل تبذل العبد، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدًا على ظلم، لا تعلم أحدًا من أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عليهم وإن رأوه كثيرًا لم تبلغ رضاهم قط، واجفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ليكن لك فضل عزلة؛ فإن كثرة الخلطة مجلبة الابتذال.

ومما يروي عن علي رضي الله عنه: إياك وفعل القبيح فإنه ذكرك ويكثر وزرك، إياك أن تستهل ركوب المعاصي فإنها تكسوك في الدنيا ذلة وتكسبك في الاخرة سخط اللهز عليك بالحكمة فإنها الحلية، عليك بالحياء فإنه عنوان النبل، عليك بالسخاء فإنه ثمرة العقل، عليك بالأناة فإن المتأني حرى بالإصابة عليك بحسن الخلق فإنه يكسبك الكرامة ويكفيك الملامة، عليك بلزوم الحلال، وحسن البر بالعيال، عليك بالصدقة تنج من دناءة الشح، عود نفسك الجميل فإنه يجمل عنك الأحدوثة، ويجزل لك المثوبة، عود نفسك

حسن الكلام تأمن الملام. كن بالوحدة آنس منك بقرناء السوء، كن للمظلوم عونًا، وللظالم خصمًا، كن للود حافظًا وإن لم تجد محافظًا، كن مؤاخذًا نفسك مغالبًا سوء طبعك، وإياك أن تحمل ذنوبك على ربك. كن بأسرارك بخيلًا، ولا تذع سرًا أودعته فإنه الإذاعة خيانة، كن حسن المقال جميل الأفعال، فإن مقال الرجل برهان فضله، وفعاله عنوان عقله، كن صموتًا من غير عي، فإن الصمت زينة العالم وستر الجاهل.

كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل، كن متصفًا بالفضائل مبرأ من الرذائل.

لا تأس على ما فات، لا تقولن ما يسؤوك جوابه، لا تركنن في مودة من لم تكشفه، لا تزهدن من شيء حتى تعرفه، لا تضمن ما لم تقدر على الوفاء به، لا تخبر بما لم تحط علمًا به، لا تأمن البلاء في أمنك ورخائك، لا تعدن شرًا ما أدركت به خيرًا، لا تعدن خيرًا ما أدركت به شرًا، لا تتكلم بما لا تعلم فكفى بذلك جهلًا، لا تمسك عن إظهار الحق إذا وجدت له أهلًا، لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال:

لا تعود نفسك اليمين فإن الحلاف لا يسلم من الإثم، لا تعود نفسك الغيبة فإن معتادها عظيم الجرم، لا تيأس من الزمان إذا منع، ولا تثق به إذا أعطى، كن على أعظم الحذر، لا يؤنسك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل، لا تخل نفسك من فكرة تزيدك حكمة، وعبرة تفيدك عصمة، لا تسيء الخطاب فيسوءك الجواب، ولا تحارب من لا يعتصم بالدين، فإن مغالب الدين محروب(١)، لا تغالب من لم يستظهر بالحق فإن مغالب الحق مغلوب.

لا تجهل نفسك فإن الجاهل بنفسه جاهل بكل شيء»(٢).

---

(١) أي مهزوم في الحرب.

(٢) جوامع الآداب في أخلاق الأحباب لجمال الدين القاسمي الدمشقي (٦-١٥) باختصار ط. مؤسسة قرطبة.

أما الأدب فقد ذكر ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لكتاب الأدب في صحيح الإمام البخاري رحمه الله قال: الأدب استعمال ما يحمد قولًا وفعلًا[١].

وعبر بعضهم بأنه: الأخذ بمكارم الأخلاق، وقيل: الوقوف مع المستحسنات، وقيل: هو تعظيم من فوقه والرفق بمن دونه.

والأدب كذلك مما ورد في تعريفه: حسن الأخلاق وفعل المكارم.

والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس سمي أدبًا؛ لأنه يأْدِبُ الناس إلى المحامد ويدعوهم إليها.

وجاء في المصباح عن الأدب: أنه تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق، وقيل: الأدب ملكة تعصم من قامت به عما يشينه.

وقال ابن القيم رحمه الله: «الأدب اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة: الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وكذلك يطلق الأدب في اللغة: على الجمع وسمي الأدب أدبًا لأنه يأدِبُ الناس، يجمعهم إلى المحامد، والأدب: هو الخصال الحميدة.

أما استعمالات هذه الكلمة في كتب أهل العلم فإنها تأتي بمعنى: خصال الخير مثل: آداب الطعام، وآداب الشراب، وآداب النكاح، وآداب القضاء، وآداب الفتيا وآداب المشي، وآداب النوم، ونحو ذلك.

وللعلماء في هذا مصنفات، ويُطلق بعض الفقهاء كلمة آداب على كل ما هو مطلوب سواء كان واجبًا أو مندوبًا ولذلك بوبوا فقالوا: آداب الخلاء والاستنجاء مع أن منها ما هو مستحب وما هو واجب، فكلمة أدب أو آداب أو أن هذا الشيء من الآداب لا يعني أنه فقط مستحب بل ربما يكون واجبًا.

ويطلق الفقهاء أيضًا كلمة «أدب» بمعنى: الزجر والتأديب، كما جاء في حديث:

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤١٤).

جعل السوط في البيت فإنه أدب لهم[١] - يعني: لأهل البيت.

إذا قيل: أدبه بمعنى عاقبه وزجره وعزره فهذه من معاني كلمة الأدب كذلك.

والأدب أيضًا يطلق على شيء يتعلق باللغة: إصلاح اللسان والخطاب وتحسين الألفاظ والصيانة عن الخطأ والزلل كما صنف ابن قتيبة رحمه الله «أدب الكاتب» إذن كلمة الأدب المستعملة في اللغة هذه لفظة مولدة حدثت في الإسلام، أطلقوا على بعض الأشياء المتعلقة باللسان من الشعر والنثر أدبًا، فهذا إطلاق لغوي يتعلق بإصلاح اللسان والخطابة

وقد ذكر الفقهاء الآداب على أبواب الفقه، فذكروا في كل باب ما يخصه من الآداب، فالاستنجاء مثلًا ذكروا آداب الاستنجاء، غير الأحكام الفقهية مما يجوز ولا يجوز ذكروا أشياء من الآداب، وفي الطهارة كذلك بأقسامها ذكروا آدابًا وفي القضاء ذكروا آداب القضاء في كتب الفقه.

وصنفت كتب خاصة بالأدب مثل: كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي، ونظم ابن عبد القوي رحمه الله منظومته المشهورة في الأدب والآداب وشرحها السفاريني رحمه الله ومن قبله صنف الإمام ابن مفلح كتاب «الآداب الشرعية».

وهناك كتب تتكلم بشكل مخصوص عن آداب معينة مثل: «**تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**» لابن جماعة رحمه الله، و«**الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**» للخطيب البغدادي رحمه الله، و«**أدب الإملاء والاستملاء**» للسمعاني، وهو إملاء الحديث وكتابته كيف يملي المحدث الحديث؟ وكيف يكتبه عنه الطلاب؟ وفي آداب الفتيا كتب منها «**آداب الفتيا**» للسيوطي، وفي آداب البحث والمناظرة مثل كتاب «**آداب البحث**

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٣٢) من حديث ابن عمر مرفوعًا، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٨٤)، و«الأوسط» (٤/ ٣٤١)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم» وقد أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٠٦) وحسنه الألباني لشواهده في «الصحيحة» (١٤٤٦)، (١٤٤٧).

والمناظرة» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، هذه كتب خاصة بآداب العلم والتعلم.

كذلك في «آداب الأكل» للإقفاهسي و«آداب الأطفال» للهيتمي، وفي الصحبة كتب مثل كتاب «آداب الصحبة» للسلمي، وفي آداب العشرة كتب مثل كتاب أبي البركات الغزي، وفي التجارة أيضًا، آداب التجارة، وآداب الحوار، وآداب معاملة اليتيم، وآداب الطبيب، وهناك الكثير من الكتب تتكلم في آداب مخصوصة.

أما بالنسبة لأهمية الأدب فقد حث الإسلام المسلم أن يعتني بالآداب في أولاده وذويه ولا يتغافل عنهم ويذكرهم ويأدبهم بآداب الإسلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] قال عليّ رضي الله عنه: «علموهم وأدبوهم». وقال مجاهد رحمه الله: «أوقفوا أنفسكم وأهليكم بتقوى الله وأدبوهم».

ومما جاء في النصوص الشرعية في معاني ما يتعلق بالأدب والتأديب قول النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «**ثلاثة يُؤتون أجرهم مرتين ... ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»(١).

وكذلك فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «**كل شئ ليس من ذكر الله لهو ولعب، إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة**»(٢) وتأديب الرجل فرسه أي: ترويضه وتعليمه.

والأدب كذلك هذه اللفظة جاءت في حديث جابر رضي الله عنه عندما تزوج ثيبًا، وسأله النبي ﷺ فأخبره أنه تزوج بثيب فقال عليه الصلاة والسلام: «**فهلا تزوجت بكرًا**

---

(١) أخرجه: البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١/٨٩/٢)، والنسائي في «كتاب عشرة النساء» رقم (٥٢، ٥٣، ٥٤) من حديث جابر بن عبد الله أو جابر بن عمير، وله شاهد عند الترمذي، وابن ماجه وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٥).

تلاعبها وتلاعبك» قال يا رسول الله استشهد والدي ولي أخوات صغار فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تأدبهن، ولا تقوم عليهن فتزوجت ثيبًا لتقوم عليهن وتأدبهن[١].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] قال ابن عباس وغيره: «أدبوهم وعلموهم» وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع، فالأدب: «اجتماع خصال الخير في العبد ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس».

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطاء والخلل وهو شعبة من الأدب العام.

«والأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله وشرعه، وأدب مع خلقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع أحدها: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة، الثاني: صيانة قلبه أن يلتفت إلى غيره، الثالث: صيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله وخطابهم وسؤالهم كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به، قال المسيح ﷺ: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل: لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال: تعلم ما في نفسي ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به وهو محض التوحيد فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم وأنه بعد وفاته لا اطلاع له عليهم وأن الله ﷻ وحده هو المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [المائدة: ١١٧] ثم وصفه بأن

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

شهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعم فقال: وأنت على كل شيء شهيد ثم قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فإذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا أنهم عبيد سوء من أبخس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له: لم تعذبهم لأن قربة العبودية تستدعي إحسان السيد إلى عبده ورحمته فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الأجودين وأعظم المحسنين إحسانا عبيده لولا فرط عتوهم وإباؤهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب وقد تقدم قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فإذا عذبتهم: عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه فليس في هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض إلى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدرية وإنما هو إقرار واعتراف وثناء عليه سبحانه بحكمته وعدله وكمال علمه بحالهم واستحقاقهم للعذاب ثم قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل الغفور الرحيم، وهذا من أبلغ الأدب مع الله تعالى، فإنه قاله في وقت غضب الرب عليهم والأمر بهم إلى النار فليس هو مقام استعطاف ولا شفاعة بل مقام براءة منهم، فلو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، لأشعر باستعطافه ربه على أعدائه الذين قد اشتد غضبه عليهم، فالمقام مقام موافقة للرب في غضبه على من غضب الرب عليهم فعدل عن ذكر الصفتين اللتين يسأل بهما عطفه ورحمته ومغفرته إلى ذكر العزة والحكمة المتضمنتين لكمال القدرة وكمال العلم والمعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك تكون عن كمال القدرة والعلم ليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا عن خفاء عليك بمقدار جرائمهم، وهذا لأن العبد قد يغفر لغيره لعجزه عن الانتقام منه ولجهله بمقدار إساءته إليه والكمال: هو مغفرة القادر العالم، وهو العزيز الحكيم وكان ذكر هاتين الصفتين في هذا المقام عين الأدب في الخطاب، وفي بعض الآثار: حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك

لك الحمد على حلمك بعد علمك واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وكذلك قول إبراهيم الخليل ﷺ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠] ولم يقل وإذا أمرضني حفظا للأدب مع الله وكذلك قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها وقال في الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] وكذلك قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠] ولم يقولوا: أراده ربهم ثم قالوا: أم أراد بهم ربهم رشدا وألطف من هذا قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل أطعمني وقول آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقل: رب قدرت علي وقضيت علي وقول أيوب عليه السلام: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ولم يقل فعافني واشفني وقول يوسف لأبيه وإخوته: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ولم يقل: أخرجني من الجب حفظا للأدب مع إخوته وتفتيا عليهم: أن لا يخجلهم بما جرى في الجب وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ولم يقل: رفع عنكم جهد الجوع والحاجة أدبا معهم وأضاف ما جرى إلى السبب ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب إليه منه فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل: أن يستر عورته وإن كان خاليا لا يراه أحد أدبا مع الله على حسب القرب منه وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرًا وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنًا.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل وحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد فألهمه ومكنه وعرفه وأرشده وأرسل إليه رسله وأنزل إليه كتبه لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدالة على الاعتدال والتمام ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى وأن ذلك نالها منه امتحانا واختبارا ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه وهي التقوى ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور».

والأدب هو الدين كله؛ فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهرًا ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة فقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة إيذانا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة، وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده لا سيما إذا وقف بين يديه فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا، ومن الأدب: نهى النبي ﷺ المصلي: أن يرفع بصره إلى السماء فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي

ربه مطرقًا خافضًا طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق قال: والجهمية لما لم يفقهوا هذا الأدب ولا عرفوه ظنوا أن هذا دليل أن الله ليس فوق سمواته على عرشه كما أخبر به عن نفسه واتفقت عليه رسله وجميع أهل السنة قال: وهذا من جهلهم بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول على نقيض قولهم إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلى الأرض ولا يرفع بصره إليهم فما الظن بملك الملوك سبحانه وسمعته يقول في نهيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام وهو كلام الله وحالتا الركوع.

والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين ويكون حال القيام والانتصاب أولى به ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ﷺ والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان كما ذكرنا في غير هذا الموضع ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: أنه من السنة و: كان الناس يؤمرون به ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء فعظيم العظماء أحق به ومنها: السكون في الصلاة وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائما قال: لا ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها فهذا الدوام والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة، وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه ويتضاءل ويتصاغر في نفسه حتى

يكون أقل من الهباء والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرا وباطنا ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علما وعملا وحالا والله المستعان.

وأما الأدب مع الرسول: فالقرآن مملوء به فرأس الأدب معه: كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا أو يحمله شبهة أو شكا أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحد المرسل ﷻ بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم وإلا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه: تأويلا وحملا فقال: نؤوله ونحمله فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بهذه الحال ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له: سألتك بالله لو قدر أن الرسول حي بين أظهرنا وقد واجهنا بكلامه وبخطابه: أكان فرضا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفات إلى سواه فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا وبأي شيء نسخ فوضع إصبعه على فيه وبقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة هذا أدب الخواص معه لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم وعزل كلامه عن اليقين وأن يستفاد

منه معرفة الله أو يتلقى منه أحكامه بل المعول في باب معرفة الله: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبركا لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٢-٧٤] والناصح لنفسه العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ويتأملها حق تأملها وينزلها على الواقع: فيرى العجب ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا فالحديث لك واسمعي يا جارة والله المستعان ومن الأدب مع الرسول: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته فإنه سبب لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ

بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا بل قولوا: يا رسول الله ﷺ يا نبي الله فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا إن شاء أجاب وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجلبله هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] [الأنبياء: ٧] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة.

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به ومع العالم: أدب آخر ومع السلطان أدب يليق به وله مع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته ولكل حال أدب: فللأ كل آداب وللشرب آداب وللركوب والدخول والخروج

والسفر والإقامة والنوم آداب وللبول آداب وللكلام آداب وللسكوت وللإستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة والإخلال به مع الأم تأويلًا وإقبالًا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة.

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان.

وانظر أدب الصديق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك جمزا وسعيا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي والله أعلم فصل قال صاحب المنازل الأدب: حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان هذا من أحسن الحدود فإن الانحراف إلى أحد طرفي الغلو والجفاء: هو قلة الأدب والأدب: الوقوف في الوسط بين الطرفين فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها ما جعلت حدودا له فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين والعدوان: هو سوء الأدب وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله ﷺ وفعلها وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سرا وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه كالتشهد الأول والسلام الذي حذفه سنة وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله ﷺ لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه فإن النبي ﷺ لم يكن ليأمر بأمر

ويخالفه وقد صانه الله من ذلك وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب إلى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله ﷺ في الركعة الأولى فهذا هو التخفيف الذي أمر به لا نقر الصلاة وسرقها فإن ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه: فليته شبع على القول الآخر وهو كجائع قدم إليه طعام لذيذ جدًّا فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ولكن لو أحس بجوعه لما قام من الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك لكن القلب شبعان من شيء آخر ومثال هذا التوسط في حق الأنبياء عليهم السلام: أن لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ولا يجفو عنهم كما جفت اليهود فالنصاري عبدوهم واليهود قتلوهم وكذبوهم والأمة الوسط: آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ما جاءوا به ومثال ذلك في حقوق الخلق: أن لا يفرط في القيام بحقوقهم ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله أو عن تكميلها أو عن مصلحة دينه وقلبه وأن لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية فإن الطرفين من العدوان الضار وعلى هذا الحد فحقيقة الأدب: هي العدل والله أعلم»[(١)].

أما التزكية، فقد بعث الله ﷻ الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، ليذكّروا بآيات الله وليعلّموا الناس وليزكّوا الأنفس، فالتعليم والتذكير والتزكية هي أهم مهمات الرسل، انظر مصداق ذلك في دعوة إبراهيم لذريته: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) ما تقدم من كلام على أنواع الأدب منقول من مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله.

وانظر الاستجابة لهذه الدعوة والمنّة على هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ولقد قال موسى لفرعون: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧-١٨].

وقال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

فتزكية النفس من مهمات الرسل، وهي هدف للمتقين، وعليها مدار النجاة عند الله ﷻ.

والتزكية في اللغة تأتي على معان: منها التطهير، ومنها النمو وهي كذلك في الاصطلاح، فزكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات، وتحققها بمقامات، وتخلقها بأسماء وصفات.

فالتزكية في النهاية: تطهرٌ وتحقق وتخلق، ولذلك وسائله المشروعة، وماهيتها وثمراتها الشرعية، ويظهر آثار ذلك على السلوك، في التعامل مع الله ﷻ ومع الخلق، وفي ضبط الجوارح وفقًا لأوامر الله.

إن تزكية القلوب والنفوس: إنما تكون بالعبادات فإذا أُدِّيت العبادة على كمال وتمام فعندئذ يتحقق القلب بمعان تكون النفس بها مزكاة، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء، وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله والناس: مع الله قيامًا بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهادًا في سبيله، ومع الناس على حسب الدائرة وعلى مقتضى المقام وعلى ضوء التكليف الرباني.

فالتزكية لها وسائل مثل: الصلاة، والإنفاق، والصوم، والحج، والذكر، والفكر وتلاوة القرآن، والتأمل، والمحاسبة، وتذكر الموت، إذا أُديت هذه على كمالها وتمامها.

ومن آثار ذلك أن يتحقق القلب بالتوحيد، والإخلاص، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والحلم، والصدق مع الله، والمحبة له، ويتخلى عما يقابل ذلك من رياء، وعجب، وغرور، وغضب للنفس، أو للشيطان، وبذلك تصبح النفس مزكاة فتظهر ثمرات ذلك في ضبط الجوارح على أمر الله في العلاقة مع الأسرة والجوار والمجتمع والناس.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وبين يديك أيها القارئ الكريم سفرٌ جليل، حوى آدابًا وأخلاقًا وفضائل، تزكي النفوس، وتطهر القلوب، بحول وقوة علام الغيوب، لمن كان راغبًا في النجاة في الآخرة والسعادة في الدنيا.

وقد حرصت على أن أورد فيه ما صح من الأحاديث النبوية في كل باب، مع نقل كلام أهل العلم عليها، حرصت كذلك على أن يخلوا الكتاب من ألفاظ وعبارات الطرقية، وأصحاب الشطحات، سوى ما قد يفوت سهوًا، وعذري فيما يفوت تأثر كثير من كتب الأخلاق والآداب والرقائق بتلك العبارات وقد اعتمدت في هذا الكتاب على كتب الرقائق المسندة، وكتب الأدب والأخلاق من منثورٍ ومنظوم، وأغلب مادة الكتاب من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي رحمه الله ومختصراته، بعد تصفيتها من الغبش ومن أبواب كتابنا هذا:

العلم وفضله، علم المعاملة، العلوم المحمودة، آداب المعلم والمتعلم، آفات العلم، الطهارة وأسرارها، فضائل الصلاة، صلاة الجمعة، الزكاة وأسرارها، دقائق الآداب الباطنة في الزكاة، آداب القابض للزكاة، صدقة التطوع فضلها وآدابها، الصوم وأسراره، سنن الصوم، بيان أسرار الصوم وآدابه، الحج وأسراره، آداب القرآن

وفضائله، آداب التلاوة، الأذكار والدعوات، أوراد الليل والنهار وترتيبها، أوراد الليل، اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال، قيام الليل وفضله، الأسباب الميسرة لقيام الليل، آداب الأكل، آداب الضيافة، آداب النكاح، آداب المعاشرة، آداب الولادة، آداب الطلاق، آداب الكسب والمعاش، الحلال والحرام، آداب الصحبة ومعاشرة الخلق، صفات الصاحب، حقوق الإخوان، حقوق المسلم، آداب عيادة المريض، آداب تشييع الجنائز، حقوق الجار، حقوق الأقارب والأرحام، حقوق الأولاد، حقوق المملوك، العزلة والخلطة، آداب السفر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حكم السماع، من أخلاق النبوة، أحوال القلوب، مداخل إبليس، ثبات القلوب على الخير، حسن الخلق، الطريق إلى تهذيب الأخلاق، علامات مرض القلب وصحته، شهوات النفوس، علامات حسن الخلق، تنشئة الأبناء، شهوة البطن، شهوة الفرج، آفات اللسان، الكلام فيما لا يعني، الخوض في الباطل، التقعر في الكلام، الفحش والسب، المزاح، السخرية والاستهزاء، إفشاء السر والكذب، الغيبة، النميمة، ذي اللسانين، الغضب، كظم الغيظ، الحلم، العفو، الرفق، الحقد والحسد، الدنيا، المال، الحرص والطمع، البخل، الرياء، الكبر، العجب، الغرور، التوبة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، الفقر، الزهد، التوكل، المحبة، الرضا، النية، الإخلاص، الصدق، المحاسبة والمراقبة، التفكر، الموت، القبر، جهنم، الجنة، سعة رحمة الله تعالى.

وختامًا فدونك هذه السبيكة الخالصة، والعقد المتلألئ، عسى الله أن ينفع به قارئه، وكاتبه وكل من شارك في إخراجه ونشره، اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، واجعلنا من أهل السعادة والفوز في الدنيا والآخرة، وتوفنا على الإسلام والسنة.

وكتب

إسلام محمود دربالة

مدير مركز أبحاث ودراسات المستقبل للإسلام

موسوعة

الأخلاق والآداب

في

سؤال وجواب

العلم وفضله

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل العلم والعلماء؟

ج: قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وفي «الصحيحين» من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» [أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)].

وعن أبي أمامة ﷺ قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير**» [أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٢١٣)].

وفي حديث آخر: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يرثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**» [أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٢٢٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢١٢)].

قال الخطابي: في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه بسط الأجنحة.

الثاني: أنه بمعنى التواضع تعظيمًا لطالب العلم.

الثالث: أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة**» [أخرجه مسلم (٢٦٩٩)].

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

ومن فضائل التعليم ما أخرجاه في «الصحيحين» عن سهل بن سعد ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لعلي ﷺ: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**» [أخرجه البخاري (٣٠٠٩)].

وقال ابن عباس: «**إن الذي يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر**». فإن قيل ما وجه استغفار الحوت للمعلم؟ فالجواب: أن نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت، فإن العلماء عرفوا بالعلم ما يحل ويحرم، وأوصوا بالإحسان إلى كل شيء حتى المذبوح والحوت، فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءً لحسن صنيعهم.

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**» [أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢)]، فإن الفقهاء أولي الفهم، كمثل البقاع التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ لأنهم علموا وفهموا، وفرعوا وعلَّموا. وغاية الناقلين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم، أنهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم، وأما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا، فهم العوام الجاهلة.

وقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: لولا العلماء لسار الناس مثل البهائم.

وقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه: «**تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهوالأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة**».

س: وما هو العلم الواجب تعلمه على كل مسلم ومسلمة؟

ج: روى عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**».

قال الفقهاء: هو علم الفقه، إذ به يعرف الحلال والحرام.

وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها.

وقالت الصوفية: هو علم الإخلاص وآفات النفوس.

وقال المتكلمون: هو علم الكلام. إلى غير ذلك من الأقوال.

والمعاملة التي كلفها الله للعباد على ثلاثة أقسام: اعتقاد، وفعل، وترك.

فإذا بلغ الصبي، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها، فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم، فإن كان له مالًا وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك.

وأما التروك: فهو بحسب ما يتجدد من الأحوال، إذا لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه، ولا على الأبكم تعلم ما يحرمه من الكلام، فإن كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير، وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك.

وأما الاعتقادات: فيجب عليه تعلم أركان الإيمان ونواقضه حتى يحذر الوقوع فيما يضاد الإيمان. وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع، وجب عليه أن يتلقن الحق،

كما لوكان تاجرًا في بلد شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلم الحذر منه.

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار. فبان بما ذكرنا أن المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين: ما يتعين وجوبه على الشخص.

أما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب إذ هو ضروري في بقاء الأبدان على الصحة، والحساب، فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها.

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها أثم أهل البلد، وإذا قام بها من تقوم به الكفاية سقط الفرض عن الباقين.

ولا يتعجب من قولنا: أن الطب والحساب من فروض الكفاية، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة.

وأما التعميق في دقائق الحساب، ودقائق الطب وغير ذلك، فهذا يعد فضيلة، لأنه يستغنى عنه.

وقد يكون بعض العلوم مباحًا، كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها، وتواريخ الأخبار.

وقد يكون بعضها مذمومًا، كعلم السحر، والطلسمات، والتلبيسات.

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة، وتنقسم إلى أصول، وفروع ومقدمات ومتممات.

فالأصول: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة، وآثار الصحابة.

والفروع: ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره، كما فهم من قوله: «**لا يقضي القاضي وهو غضبان**» [أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)] أنه لا يقضي جائعًا.

والمقدمات: هي التي تجري مجرى الآلات، كعلم النحو واللغة، فانهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والمتممات: كعلم القراءات، ومخارج الحروف، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم، فهذه هي العلوم الشرعية، وكلها محمودة.

علم المعاملة

فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب، كالخوف، والرجاء، والرضا، والصدق، والإخلاص، وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهر ذكرهم، كسفيان الثوري، وأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقدمات، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه.

وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار، واللعان، والسبق، والرمي، ويفرع التفرعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج إلى مسألة منها، ولا يتكلم في الإخلاص، ولا يحذر من الرياء، وهذا عليه فرض عين، لأن في إهماله هلاكه، والأول فرض كفاية. ولو أنه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب. ولوسئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي، لقال: هذا فرض كفاية، ولقد صدق، ولكن خفي عليه أن الحساب فرض كفاية أيضًا، فهلا تشاغل به، وإنما تبهرج عليه النفس؛ لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة، لا بالحساب.

واعلم: أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح.

فمن ذلك: الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقًا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله: «**إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في**

الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الوَرِع الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لهم».

فكان إطلاقهم اسم الفقه على الآخرة أكثر؛ لأنه لم يكن متناولا للفتاوى، ولكن كان متناولا لذلك بطريق العموم والشمول، فثار من هذا التخصيص تلبيس بعض الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة، والإعراض عن علم المعاملة للآخرة.

اللفظ الثاني: العلم فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، أي نعمه وأفعاله في عباده، فخصوه وسموا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه وإن كان جاهلا بالتفسير والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيد وقد كان ذلك إشارة إلى أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط فيثمر ذلك التوكل والرضا، وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام في الأصول، وذلك من المنكرات عند السلف.

اللفظ الرابع: التذكير والذكر. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فنقلوا ذلك إلى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات، وهي من أشد ما يؤذي العوام.

اللفظ الخامس: الحكمة. والحكمة: العلم والعمل به.

قال ابن قتيبة رحمه الله: لا يكون الرجل حكيمًا حتى يجمع العلم والعمل. وقد سار هذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

العلوم المحمودة

س: ما هي أقسام العلوم المحمودة؟

ج: اعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين:

الأول: محمود إلى أقصى غاياته، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل. وهوالعلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، والتوصل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدر ما يتيسر لهم.

القسم الثاني: العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات، فإن في كل منهم افتقارًا واقتصارًا واستقصاءً.

فكن أحد رجلين: إما مشغول بنفسك، وإما متفرغًا لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، واشتغل بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص، والحسد، والرياء، والعجب، قبل إصلاح ظاهرك.

فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات، فإن في الخلق كثيرًا يقومون بذلك، فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه، ومثله من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره. فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها، وما أبعد ذلك، فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج في ذلك.

فابتدأ بكتاب الله ﷻ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعلوم القرآن: من التفسير، ومن ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، إلى غير ذلك.

وكذلك في السنة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت.

ولا تستغرق عمرك في فن منها للاستقصاء، فإن العلم كثير، والعمر قصير، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها، وكل شيء يطلب لغيره، فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب.

آداب المعلم والمتعلم

س: وضح بعض آداب المتعلم؟

ج: المتعلم ينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات؛ إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، فروى عن الإمام أحمد رحمه الله: أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين.

وأهديت إلى أبي بكر الأنباري جارية: «**فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فعزبت عنه، فقال: أخرجوها إلى النخاس، فقالت: هل من ذنب؟ قال: لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدر مثلك أن يمنعني علمي**».

وعلى المتعلم أن يتواضع لمعلمه، ويبالغ في خدمته، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما: «**يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء**».

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في بداية الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه.

وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه؛ لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم، ثم يصرف قوته إلى أشرف العلوم، وهوالعلم المتعلق بالآخرة فهذه وظائف المتعلم.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضًا: من ذلك الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ولا يطلب على إفاضة العلم أجرًا، ولا يقصد به جزاءً ولا شكرًا، بل يعلم لوجه الله تعالى، ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين، بل يرى الفضل لهم إذ يهيؤوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها، فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها.

فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم.

ومنها أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئًا، وأن يزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مهما أمكن، لا على وجه التوبيخ، فإن التوبيخ يهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله، فلا يلقي إليه مالا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أأنثر درًا بين سارحة النعم ... أأنظم منثورًا لراعية الغنم

ومن منح الجهال علمًا أضاعه ... ومن منع المستوجين فقد ظلم

ومنها أن يكون المعلم عاملًا بعلمه. ولا يكذب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك**».

آفات العلم

س: وما المقصود بعلماء السوء؟

ج: علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها.

وقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله ﷻ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» [أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد في مسنده (٨٢٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٥٩)]. «**عرف الجنة**» يعني ريحها.

وقال بعض السلف: أشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط.

واعلم: أن الواجب على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهدًا أومعرضًا عن المباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلل من الدنيا مهما استطاع؛ لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروى أن سفيان الثوري رحمه الله: «**كان حسن المطعم. وكان يقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها في العلف لم تعمل**».

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «**يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم**». والطباع تتفاوت.

س: وما هي صفات علماء الآخرة؟

ج: من صفات علماء الآخرة أن يعلموا أن الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة. وأنهما كالضرتين، فهم يؤثرون الآخرة، ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى العلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إيثارًا لما يعظم نفعه، كما روي عن شقيق البلخي رحمه الله أنه قال لحاتم: قد صحبتني مدة، فماذا تعلمت؟ قال: ثمانية مسائل:

أما الأولى: فإني نظرت إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارقه محبوبه، فجعلت محبوبي حسناتي لتكون في القبر معي.

وأما الثانية: فإني نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى.

وأما الثالثة: فإني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه، ثم نظرت من قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معي شيء له قيمة، وجهته إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيت الناس يرجعون إلى المال والحسب والشرف، وليست بشيء، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت في التقوى لأكون عنده كريمًا.

وأما الخامسة: فإني رأيت الناس يتحاسدون، فنظرت في قوله تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الحسد.

والسادسة: رأيتهم يتعادون، فنظرت في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدوًا.

والسابعة: رأيتهم يذلون أنفسهم في طلب الرزق، فنظرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والثامنة: رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم، فتوكلت على الله تعالى:

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا منقبضين عن السلاطين، محترزين من مخالطتهم.

قال حذيفة رضي الله عنه: «**إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، و يقول ما ليس فيه**».

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: «**إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه فإنه لص**».

وقال بعض السلف: إنك لم تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة: أن لا يتسرعوا في الفتوى، وأن لا يفتوا إلا بما يتقنون صحته.

وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: «**أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحد يُسأل عن حديث أو فتوى إلا ود أن أخاه كفاه ذلك. ثم قد آل الأمر إلى إقدام أقوام يدعون العلم اليوم، يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجمع أهل بدر واستشارهم**».

ومن صفاتهم: أن يكون أكثر بحثهم في علم الأعمال عما يفسدها ويكد القلوب ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة سهلة، وإنما التعب في تصفيتها.

وأصل الدين: التوقي من الشر، ولا يصح أن يتوق حتى يعرف.

ومن صفاتهم: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها. فإن عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتباع الصحابة وخيار التابعين، وتوقي كل ما حدث.

الطهارة وأسرارها

س: ما هي مراتب الطهارة؟

ج: اعلم: أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأول: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطاهرة إلا المرتبة الأولى، فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب، ظنًا منه بحكم الوسوسة وقلة علمه أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلًا بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في أمر الظاهر، كما روى عن عمر بن الخطاب ﷺ: **«أنه توضأ من جرة نصرانية»**، وكانوا لا يكادوا يغسلون أيديهم من الزهم ويصلون على الأرض، ويمشون حفاة، ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار.

وقد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين

الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر، والعجب، والجهل، والرياء، والنفاق، ولو رأوا مقتصرًا في الاستجمار على الحجر، أوحافيًا يمشي على الأرض، أو من يصلي عليها من غير حائل أومتوضأ من آنية عجوز، لأنكروا عليه أشد الإنكار، ولقبوه بالقذر، واستنكفوا من مؤاكلته.

فانظر كيف جعلوا البذاذة التي هي من الإيمان قذارة، والرعونة نظافة، وصيروا المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا، لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء، ولم يعتقد أن استعمال الماء الكثير أصل الدين، فليس ذلك بمنكر، بل هو فعل حسن. وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث إلى كتب الفقه.

س: وما هي أنواع إزالة الفضلات؟

ج: إزالة الفضلات نوعان: النوع الأول: أوساخ تزال، كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدرن، فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل والتدهين لإزالة الشعث، وكذلك ما يجتمع في الأذن والأنف من الوسخ يستحب إزالته.

ويستحب التسوك والمضمضة لإزالة ما على الأسنان واللسان من القلح، وكذلك وسخ البراجم والدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق، وذلك يزيله الغسل.

النوع الثاني من إزالة الفضلات: أجزاء تحذف، مثل قص الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة، وقص الأظافر، ويكره نتف الشيب، ويستحب خضابه.

فضائل الصلاة

س: تحدث عن فضل الصلاة؟

ج: الصلاة عماد الدين وغرة الطاعات. وقد ورد في فضائل الصلاة أخبار كثيرة مشهورة، ومن أحسن آدابها الخشوع.

وقد روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله**» [أخرجه مسلم (٢٢٨)].

وله في حديث أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه**» [أخرجه البخاري، ومسلم (٢٢٦)].

س: اذكر طرفًا من خشوع السلف في الصلاة؟

ج: كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزع حائط.

وقال ميمون بن مهران: «**ما رأيت مسلم بن يسار ملتفتًا في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها، وإنه في المسجد فما انفلت، وكان أهل بيته إذا دخل المنزل سكتوا، فإذا قام إلى الصلاة تكلموا وضحكوا**».

وكان علي بن الحسن رضي الله عنهما: «**إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم**».

س: وما هو روح الصلاة؟

ج: اعلم: أن للصلاة أركانًا وواجبات وسننًا، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب، فإن الصلاة تشتمل على أذكار ومناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة، لأن النطق إذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال، لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ولم يكن القلب حاضرًا، لم يحصل المقصود، فإن الفعل متى خرج عن مقصوده بقى صورة لا اعتبار بها، قال الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] والمقصود أن الواصل إلى الله ﷻ هو الوصف الذي استولى على القلب

حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطرأ، لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها.

س: ما هي المعاني التي يتم بها الخشوع في الصلاة؟

ج: **المعنى الأول**: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهمك أمر حضر قلبك ضرورة، فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوي ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

والمعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب؛ لأنه ربما كان القلب حاضرًا مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

والمواد، إما ظاهرة، وهي ما يشغل السمع والبصر، وهو القرب من القبلة، والنظر إلى موضع سجوده، والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة، وأن لا يترك عنده ما يشغل حسه، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما صلى في انبجانية لها أعلام نزعها وقال: «**إنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**» [أخرجه البخاري (٧٥٢)، ومسلم (٥٥٦)].

وإن كان من المواد الباطنة، فطريق علاجه أن يرد النفس قهرًا إلى ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة، بأن يقضي أشغاله، ويجتهد في تفريغ قلبه، ويجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر القيام بين يدي الله ﷻ وهول المطلع، فإن لم تسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يتفكر فيما أهمه واشتهاه، فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق.

واعلم: أن العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوي، والعلة إذا قويت جاذبت المصلي وجاذبها إلى أن تنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثل ذلك كمثل رجل تحت

شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه وفي يده خشبة يطيرها بها، فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها، فقيل له هذا شيء لا ينقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة إذا علت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار كانجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار، فذهب العمر النفيس في دفع ما لا يندفع، وسبب هذه الشهوة التي توجب هذه الأفكار حب الدنيا.

قيل لعامر بن عبد قيس رَحِمَهُ اللهُ: هل تحدثك نفسك بشيء من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لأن تختلف الأسنة في أحب إلي من أجد هذا.

واعلم: أن قطع حب الدنيا من القلب أمر صعب، وزواله بالكلية عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفق المعين.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

ومن ذلك الرجاء: فإنه زائد على الخوف، فكم من معظم ملكًا يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره.

والمصلي ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته الثواب، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وينبغي للمصلي حضور قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع المؤذن فليمثل النداء للقيامة ويشمر للإجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر. وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف

عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه.

إذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذبن قلبك لسانك، لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فقد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فإذا استعذت، فاعلم أن الاستعاذة هي لجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغوًا، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وكذلك في جميع ما تتلو.

وقد روي عن زرارة بن أبي أوفى ﷺ: «**أنه قرأ في صلاته**: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] **فخر ميتًا**»، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف.

واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذل؛ لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خلقت منه وتفهم معنى الأذكار بالذوق.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون.

فأما من هوقائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده.

صلاة الجمعة

س: اذكر بعض الآداب المتعلقة بيوم الجمعة وصلاة الجمعة؟

ج: هي نحو من خمسة عشر:

أحدها: أن يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة، بالتنظيف، وغسل الثياب، وإعداد ما يصلح لها.

الثاني: الاغتسال في يومها، كما جاء في الأحاديث في «الصحيحين» [أخرجه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)]. والأفضل في الاغتسال أن يكون قبيل الرواح إليها.

الثالث: التزين بتنظيف البدن، وقص الأظافر، والسواك، وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات، ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه.

الرابع: التبكير إليها ماشيًا. وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكون وخشوع، وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

الخامس: أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين إلا أن يرى فرجة فيتخطى إليها.

السادس: أن لا يمر بين يدي المصلي.

السابع: أن يطلب الصف الأول، إلا أن يرى منكرًا أويسمعه فيكون في التأخر عذرًا.

الثامن: أن يقطع النفل من الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشتغل بإجابة المؤذن، ثم بسماع الخطبة.

التاسع: أن يصلي السنة بعد الجمعة إن شاء ركعتين، وإن شاء أربعًا، وإن شاء ستًا.

العاشر: أن يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر.

واختلف في هذه الساعة، ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه: «**أنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضي الصلاة**» [أخرجه مسلم (٨٥٢)، قال الألباني في «رياض الصالحين» (ص٤٢٥): «صحح الأئمة وقفه على أبي موسى الأشعري ومنهم الإمام الدارقطني»]. وفي حديث آخر: «**هي ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضي الصلاة**» [أخرجه

الترمذي (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في الساعة التي ترجى في الجمعة، وفيه: كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، قال الحافظ فى «تهذيب التهذيب» (٨/ ٤٢٣): «وقال أبونعيم: ضعفه على بن المديني، وقال ابن سعد: كان قليل الحديث، يستضعف، وقال ابن السكن: يروى عن أبيه عن جده أحاديث فيها نظر، وقال الحاكم: حدث عن أبيه، عن جده نسخة فيها مناكير، وضعفه الساجى، ويعقوب بن سفيان، وابن البرق، وقال ابن عبد البر: مجمع على ضعفه»، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (١٨٩٠)]. **وفي حديث جابر** ﷺ: «**أنها آخر ساعة بعد العصر**». **وفي حديث أنس** ﷺ **قال**: «**التمسوها ما بين صلاة العصر وغروب الشمس**» [أخرجه أبو داود (١٠٤٨) كتاب الصلاة - باب الإجابة آية ساعة هي يوم الجمعة، والنسائي (١٣٨٩) كتاب الجمعة - باب وقت الجمعة، وهو حديث حسن].

وقال أبوبكر الأثرم رحمه الله: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تنتقل في الأوقات كتنقل ليلة القدر في ليالي العشر.

الحادي عشر: أن يكثر من الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم

الثاني عشر: أن يقرأ سورة الكهف.

س: ما هي الأوقات المنهي عن التطوع بالصلاة فيها؟

ج: لا يتطوع في أوقات النهي بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح؛ لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة، وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه. وأما ما له سبب، كتحية المسجد، وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها، فعلى روايتين.

س: ما هي أسرار النهي عن صلاة التطوع في أوقات الكراهة؟

ج: النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة أسرار:

أحدها: ترك التشبه بعباد الشمس.

الثاني: التحذير من السجود لقرن الشيطان، فإن الشمس تطلع معها قرن

الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها، فإذا استوت قارنها، فإذا زالت الشمس فارقها، فإذا تضايفت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها.

الثالث: أن سالكي طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظبة على نمط واحد يورث الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط؛ لأن النفس حريصة على ما منعت منه، فمنع الإنسان من الصلاة في أوقات النهي، ولم يمنع من نوع آخر من التعبد، كالقراءة، والتسبيح لينتقل العبد من حال إلى حال، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود.

الزكاة وأسرارها

س: تحدث عن أهمية الزكاة ومنزلتها في الإسلام؟

ج: الزكاة: أحد مباني الإسلام، وقد قرنها الله ﷻ بالصلاة، فقال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

أما أنواع الزكاة، وأقسامها، وأسباب وجوبها، فظاهر مشهور في مظانه من كتب الفقه، وإنما نذكر هنا بعض الشروط والآداب.

س: ما هي شروط الزكاة؟

ج: من الشروط أن يُخرج المنصوص عليه، ولا يخرج القيمة في الصحيح، فإن من أجاز إخراج القيمة إنما تلمح سد الخلة فقط، وسد الخلة ليس هو المقصود بل بعضه، فإن واجبات الشرع ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعبد محض، كرمي الجمار، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى، لأن ما لا يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو إليه، فلا يظهر خلوص العبودية به، بخلاف ما ذكرنا.

والقسم الثاني: عكس ذلك، وهو ما لا يقصد منه التعبد، بل المقصود منه حض

محض، كقضاء دين الآدميين، ورد المغصوب ونحو ذلك، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل، بل كيفما وصل الحق إلى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

وأما القسم الثالث: فهو المركب، وهو أن يقصد منه الأمران جميعًا: امتحان المكلف، وحظ العباد، فيجتمع فيه تعبد رمي الجمار، وحظ رد الحقوق، فلا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد، ولعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القبيل، فحظ الفقير مقصود في سد الخلة، وحق التعبد مقصود الشرع في اتباع التفاصيل، وبهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج، والله أعلم.

دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

س: اذكر بعض الآداب الخاصة بالمزكي؟

ج: اعلم: أن على ما يريد الآخرة في زكاته وظائف:

الأول: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء: ابتلاء مدعي محبة الله تعالى بإخراج محبوبه، والتنزه عن صفة البخل المهلك، وشكر نعمة المال.

الوظيفة الثانية: الإسرار بإخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة، وفي الإظهار إذلال للفقير أيضًا، فإن خاف أن يتهم بعدم الإخراج أعطى من المال لا يبالي من الفقر بالأخذ بين الجماعة علانية، وأعطى غيره سرًا.

الوظيفة الثالثة: أن لا يفسدها بالمن والأذى، وذلك أن الإنسان إذا رأى نفسه مُحسنًا إلى الفقير، منعمًا بالإعطاء، ربما حصل منه ذلك، ولو حقق النظر لرأي الفقير محسنًا إليه بقبول حق الله الذي هو طهرة له.

وإذا استحضر مع ذلك أن إخراجه للزكاة شكر لنعمة المال، فلا يبقى بينه وبين الفقير معاملة. ولا ينبغي أن يحتقر الفقير لفقره، لأن الفضل ليس بالمال ولا النقص

بعدمه.

الوظيفة الرابعة: أن يستصغر العطية، فإن المستعصم للفعل معجب به. وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتصغيره، وتعجيله، وستره.

الوظيفة الخامسة: أن ينتقي من ماله أحله وأجوده وأحبه إليه، أما الحل، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا. وأما الأجود، فقد قال الله تعالى: **﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾** [البقرة: ٢٦٧].

وينبغي أن يلاحظ في ذلك أمرين: أحدهما: حق الله ﷻ بالتعظيم له، فإنه أحق من اختير له، ولوأن الإنسان قدم إلى ضيفه طعامًا رديئًا لأوغر صدره.

والثاني: حق نفسه، فإن الذي يقدمه هو الذي يلقاه غدًا في القيامة، فينبغي أن يختار الأجواد لنفسه.

وأما أحبه إليه، فلقوله تعالى: **﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران: ٩٢].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما: «**إذا اشتد حبه لشيء من ماله قربه لله ﷻ**».

وروي: «**أنه نزل الجحفة وهو شاكٍ، فقال: إني لأشتهي حيتانًا، فالتمسوا له فلم يجدوا إلا حوتًا، فأخذته امرأته فصنعته ثم قربته إليه، فأتى مسكين، فقال ابن عمر** رضي الله عنه: **خذه، فقال له أهله: سبحان الله قد عنيتنا ومعنا زاد نعطيه، فقال: إن عبد الله يحبه**».

وروي أن سائلًا وقف بباب الربيع بن خيثم رحمة الله عليه فقال: اطعموه سكرًا، فقالوا: نطعمه خبزًا أنفع فقال: ويحكم أطعموه سكرًا، فإن الربيع يحب السكر.

الوظيفة السادسة: أن يطلب لصدقته من تزكو به، وهم خصوص من عموم الأصناف الثمانية، ولهم صفات:

الأولى: التقوى، فليخص بصدقته المتقين فإنه يرد بها هممهم إلى الله تعالى.

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتخير العُبَّادُ وهم سجود، فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه،

فقيل له: ما يمنعك أن ترسل بها إليهم؟ فيقول: أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني.

الثانية: العلم، فإن في إعطاء العالم إعانة على العلم ونشر الدين، وفي ذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممن يرى الإنعام من الله وحده ولا يلتفت إلى الأسباب إلا بقدر ما ندب إليه من شكرها، فأما الذي عادته المدح عند العطاء، فإنه سيذم عند المنع.

الرابعة: أن يكون صائنًا لفقره، ساترًا لحاجته، كاتمًا للشكوى، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطالب إلا بعد البحث عنهم، وسؤال أهل كل محلة عمن هذه صفته.

الخامسة: أن يكون ذا عائلة، أومحبوسًا لمرض أودين، فهذا من المحصرين، والتصدق عليه إطلاق لحصره.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام، فإن الصدقة عليهم صدقة وصلة، وكل من جمع من هذه الخلال خلتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جمع.

آداب القابض للزكاة

س: وضح بعض الآداب المتعلقة بقابض الزكاة؟

ج: لابد أن يكون آخذ الزكاة من الأصناف الثمانية، وعليه في ذلك أمور:

- أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، وليكن ذلك بمقدار شكر السبب، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، كما ورد في الحديث. ومن تمام الشكر أن لا يحتقر العطاء وإن قل، ولا يذمه، ويغطي ما فيه من عيب، وكما أن وظيفة المعطي

الاستصغار فوظيفة المعطي الاستعصام، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله ﷻ. فإن من لا يرى الواسطة واسطة، فهو جاهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلًا.

- أن ينظر فيما يعطاه، فإن لم يكن من حل لم يأخذه أصلًا، لأن إخراج مال الغير ليس بزكاة، وإن كان من شبهة تورع عنه، إلا أن يضيق عليه الأمر، فمن كان أكثر كسبه حرامًا، فأخرج الزكاة ولم يعرف لما أخرجه مالك معين، كانت الفتوى فيه أن يتصدق به، فيجوز لهذا الفقير أن يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن الصافي.

- أن يتوق الشبه في قدر ما يأخذ، فيأخذ القدر المباح له،ولا يأخذ أكثر من حاجته. فإن كان غارمًا لم يزد على مقدار الدين، أوغازيًا لم يأخذ إلا مقدار ما يحتاج إليه، وإن أخذ بالمسكنة أخذ قدر حاجته دون ما يستغنى عنه، وكل ذلك موكول إلى اجتهاده، والورع ترك ما يريب.

س: ما هو قدر الغنى المانع من أخذ الزكاة؟

ج: اختلف العلماء في قدر الغني المانع من الزكاة، والصحيح فيه أن يكون له كفاية على الدوام، إما من تجارة، أو صناعة، أو أجر عقار، أوغير ذلك، وإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يتممها، وإن لم يكن له ذلك أخذ ما يكفيه. وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنته ولا يزيد على ذلك، وإنما اعتبر بالسنة، لأنها إذا ذهبت جاء وقت الأخذ، وإذا أخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء.

صدقة التطوع فضلها وآدابها

س: ما هي فضائل الصدقة؟

ج: فضائل الصدقة كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم مال وراثه أحب إليه من ماله**»؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «**فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر**» [أخرجه البخاري (٦٤٤٢)].

وفي «الصحيحين» من رواية أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يصعد إلى الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل**» [أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)].

وفي أفراد مسلم، من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما نقصت صدقة من مال**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٨)]. وروي عن عائشة ﷺ أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» فقالت: ما بقي منها إلا كتفها، فقال: «**بقي كلها إلا كتفها**» [أخرجه الترمذي (٢٤٧٠) وقال: حديث صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٩١٩)].

س: أيهما أفضل للفقير الأخذ من الزكاة أم من الصدقة؟

ج: اختلفوا: أيما أفضل للفقير، أن يأخذ من الزكاة، أومن الصدقة. فقال قوم: من الزكاة أفضل، وقال آخرون: من الصدقة أفضل.

س: وما هي أفضل الصدقة؟

ج: عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ، أي الصدقة أفضل؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**» [أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)]. أخرجاه في «الصحيحين».

الصوم وأسراره

س: وضح طرفًا من فضل الصوم ومنزلته؟

ج: في الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله ﷻ حيث يقول سبحانه: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» [أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)]. «لي» بهذه الإضافة شرفًا، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مخصبة، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وترك الشهوات تضيق عليهم المسالك. وفي الصوم أخبار كثيرة تدل على فضله وهي مشهورة.

سنن الصوم

س: اذكر بعضًا من سنن الصوم ومستحباته؟

ج: يستحب السحور، وتأخيره، وتعجيل الفطر، وأن يفطر على التمر.

ويستحب الجود في رمضان، وفعل المعروف، وكثرة الصدقة، اقتداء برسول الله ﷺ.

ويستحب دراسة القرآن والاعتكاف في رمضان: لا سيما في العشر الأواخر، وزيادة الاجتهاد فيه.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة ﵂ قالت: «**كان النبي ﷺ إذا دخل**

العشر -يعني الأخير-، **شد مئزره، وأحيا الليل، وأيقظ أهله**» [أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤)].

ذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين:

أحدهما: أنه الإعراض عن النساء.

الثاني: أنه كناية عن الجد والتشمير في العمل. قالوا: وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القدر.

بيان أسرار الصوم وآدابه

س: ما هي مراتب الصوم؟

ج: للصوم ثلاث مراتب: صوم العموم. وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

وأما صوم الخصوص: فهو كف النظر، واللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالى، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية.

فمن آداب صوم الخصوص: غض البصر، وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم أومكروه، أوما لا يفيد، وحراسة باقي الجوارح.

وفي الحديث من رواية البخاري، أن النبي ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» [أخرجه البخاري (١٩٠٣)].

ومن آدابه: أن لا يمتلئ من الطعام في الليل، بل يأكل بمقدار، فإنه ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه. ومتى شبع أول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه، وكذلك إذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه إلى قريب من الظهر، لأن كثرة الأكل تورث الكسل

والفتور، ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل، لأن المراد منه أن يذوق طعم الجوع، ويكون تاركًا للمشتهى.

س: وماذا عن صوم التطوع؟

ج: فأما صوم التطوع، فاعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة، كصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان، وكصيام يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وعشر ذي الحجة، والمحرم.

وبعضها يتكرر في كل شهر، كأوله، وأوسطه، وآخره، فمن صام أول الشهر وأوسطه وآخره فقد أحسن. غير أن الأفضل أن يجعل الثلاثة أيام البيض [أخرجه البخاري (١١٧٨)، ومسلم (٧٢١)].

وبعضها يتكرر في كل أسبوع وهو يوم الإثنين، ويوم الخميس [أخرجه الترمذي (٧٤٧)، والنسائي (٢٣٥٨)، وأحمد في مسنده (٢١٢٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٥٨٣)]. وأفضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا [أخرجه البخاري (٥٠٥٢)، ومسلم (١١٥٩)]. وذلك يجمع الثلاثة معان:

أحدها: أن النفس تعطي يوم الفطر حظها، وتستوفي في يوم الصوم تعبدها، وفي ذلك جمع بين مالها وما عليها، وهو العدل.

والثاني: أن يوم الأكل يوم شكر، ويوم الصوم يوم صبر، والإيمان نصفان: شكر وصبر.

والثالث: أنه أشق على النفس في المجاهدة، لأنها كلما أنست بحالة نقلت عنها.

فأما صوم الدهر: ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ فقال: كيف بمن يصوم الدهر كله؟ فقال: «**لا صام ولا أفطر -أو- لم يصم ولم يفطر**» [أخرجه أبو داود (٢٤٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٢٣)]. وهذا محمول على من سرد الصوم في الأيام المنهي عن صيامها: فأما إذا **أفطر** يومي العيدين وأيام التشريق فلا بأس بذلك.

فقد روي عن هشام بن عروة رحمه الله: «**أن أباه كان يسرد الصوم، وكانت عائشة** رضي الله عنها **تسرد**». وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: «**سرد أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عامًا**».

واعلم: أن من رزق فطنة، علم المقصود، فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو أفضل منه. فقد كان ابن مسعود قليل الصوم، وكان يقول: «**إذا صمت ضعفت عن الصلاة، وأنا أختار الصلاة على الصوم**». وكان بعضهم إذا صام ضعف عن قراءة القرآن، فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلحه.

الحج وأسراره

س: وضح بعض الآداب الخاصة لمن أراد الحج؟

ج: ينبغي لمن أراد الحج أن يبدأ بالتوبة، ورد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويرد ما عنده من الودائع. ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير، على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد، والرفق بالفقراء. ويستصحب ما يصلحه كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة.

ويتصدق بشيء قبل خروجه، وإذا اكترى فليظهر للجمال كل ما يريد أن يحمله من قليل وكثير. وقد قال رجل لابن المبارك: «**احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن الجمال**».

وينبغي أن يلتمس رفيقًا صالحًا محبًا للخير معينًا عليه، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، إن ضاق صدره صبره.

وليؤمِّر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقًا، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما احتيج إلى التأمير لأن الآراء تختلف، فلا ينتظم التدبير، وعلى الأمير الرفق بالقوم، والنظر في

مصالحهم، وأن يجعل نفسه وقاية لهم.

وينبغي للمسافر تطييب الكلام، وإطعام الطعام، وإظهار محاسن الأخلاق، فإن السفر يخرج خفايا الباطن، ومن كان في السفر الذي هو مظنة الضجر حسن الخلق، كان في الحضر أحسن خلقًا. وقد قيل: إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكو في صلاحه. وينبغي له أن ويودع رفقاءه وإخوانه المقيمين، ويلتمس أدعيتهم، ويستودع أهله وماله، ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله، وفي ركوبه ونزوله، وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج، وكذلك جميع المناسك من الإحرام، والطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، وغير ذلك من أعمال الحج يأتي فيها بما ذكر من الأذكار والدعوات والآداب.

س: اذكر بعض أسرار الحج؟

ج: من الآداب، أن يكون خاليًا في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه، ليجتمع على طاعة الله تعالى، وأن يكون أشعث أغبر، رث الهيئة غير مستكثر من الزينة. وينبغي أن يتجنب ركوب المحمل إلا من عذر، كمن لا يستمسك على الزاملة، وقد شرف الله تعالى بيته وعظمه، ونصبه مقصدًا لعباده، وجعل ما حوله حرمًا له تفخيمًا لأمره، وتعظيمًا لشأنه، وجعل عرفة كالميدان على فنائه. واعلم: أن في كل واحد من أفعال الحج تذكرة للمتذكر، وعبرة للمعتبر.

فمن ذلك: أن يتذكر بتحصيل زاد الآخرة من الأعمال، وليحذر أن تكون أعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيرًا، فإذا فارق وطنه ودخل البادية وشهد تلك العقبات، فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال.

ومن ذلك: أن يتذكر وقت إحرامه وتجرده من ثيابه، إذا لبس المحرم الإحرام لبس

كفنه، وأنه سيلقى ربه على زي مخالف لزي أهل الدنيا، وإذا لبى فليستحضر بتلبيته إجابة الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]. وليرج القبول، وليخش عدم الإجابة، وكذلك إذا وصل إلى الحرم ينبغي أن يرجو الأمن من العقوبة، وأن يخشى أن لا يكون من أهل القرب، غير أنه ينبغي أن يكون الرجاء غالبًا، لأن الكرم عميم، وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير لا يضيع.

ومن ذلك إذا رأى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه، وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين إليه، وليستشعر عظمة الطواف به، فإنه صلاة، ويعتقد عند استلام الحجر أنه مبايع لله على طاعته، ويضم إلى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة، وليتذكر بالتعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجأ المذنب إلى سيده وقرب المحب.

وأنشد بعضهم في ذلك:

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد ... علقتها مستجيرًا أيها الباري
وما أظنك لما أن علقت بها ... خوفًا من النار تدنيني من النار
وها أنا جار بيت أنت قلت لنا ... حجوا إليه وقد أوصيت بالجار

ومن ذلك: إذا سعى بين الصفا والمروة، ينبغي أن يمثلها بكفتي الميزان، وتردده بينهما في عرصات القيامة، أو تردد العبد إلى باب دار الملك، إظهارًا لخلوص خدمته، ورجاء الملاحظة بعين رحمته، وطمعًا في قضاء حاجته.

وأما الوقوف بعرفة: فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق، وارتفاع أصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة، واجتماع الأمم في ذلك الموطن، واستشفاعهم.

فإذا رميت الجمار: فاقصد بذلك الانقياد للأمر، وإظهار الرق والعبودية، ومجرد الامتثال من غير حظ النفس.

وأما المدينة: فإذا لاحت لك فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ﷺ، وشرع إليها هجرته، وجعل فيها بيته، ثم مثل في نفسك مواضع أقدام رسول الله ﷺ عند

ترده فيها، وتصور خشوعه وسكينته.

آداب القرآن وفضائله

س: اذكر بعض فضائل القرآن؟

ج: أعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله ﷻ، وقد مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الإسراء: ٩]. ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» [أخرجه البخاري (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن - باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ﷻ أهلين من الناس**»، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل الله وخاصته**» [أخرجه أحمد (١١٨٧٠، ١١٨٨٣، ١٣١٣٠)، والدارمي (٣٣٢٦)، وابن ماجه (٢١٥) وإسناده حسن]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» [أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وقال: حديث حسن صحيح].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون**».

ولا ينبغي أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صخابًا ولا حديدًا. وقال الفضيل رحمه الله: «**حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلغو مع من يلغو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلهو مع من يلهو، تعظيمًا لله**».

ولا ينبغي أن يكون له إلى أحد حاجة، بل ينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

آداب التلاوة

س: اذكر بعض آداب تلاوة القرآن؟

ج: ينبغي لقارئ القرآن أن يكون على وضوء، مستعملًا للآداب. مطرقًا غير متربع ولا متكئ، ولا جالس على هيئة المتكبر.

وأفضل الأحوال: أن يقرأ في الصلاة قائمًا، وأن يكون في المسجد. فأما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر من ذلك، ومنهم من كان يختم في كل ثلاث ختمة، ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالًا بالتدبير أو بنشر العلم، أو بتعليمه، بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا. وأولى الأمر: مالا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**لأن أقرأ البقرة وآل عمران، وأرتلهما وأتدبرهما أحب إلي من أقرأ القرآن كله هذرمة**» ومن وجد خلسة في وقت، فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب.

س: وماذا عن استحباب تحسين الصوت بالقراءة؟

ج: يستحب تحسين القراءة، وإذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع، فأما القراءة بالألحان، فقد كرهها السلف.

ويستحب الإسرار بالقراءة. وقد جاء في الحديث: «**فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**» [أخرجه أحمد (١٦٩١٧، ١٦٩٩١)، وأبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (٢٥٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣١٠٥)]. إلا أنه ينبغي أن يسمع نفسه. ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات

لمقصود صحيح، إما لتجويد الحفظ، أو ليصرف عن نفسه الكسل والنوم، أو ليوقظ الوسنان. فأما حكم القراءة في الصلاة، ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض، وموضع الجهر والإسرار فذلك معروف مشهور في كتب الفقه. ومن كان عنده مصحف ينبغي له أن يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجورًا.

وينبغي لتالي القرآن العظيم أن ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأن يعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية، فليرددها.

وقام تميم الداري ﷺ بآية وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] وكذلك: قام بها الربيع بن خيثم رحمة الله عليه ليلة.

وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل مايراه. وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء، كيف تنقسم إلى لحم وعظم، وعرق وعصب، وأشكال مختلفة من رأس ويد، ورجل، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع، والبصر، والعقل، وغير ذلك، فيتأمل هذه العجائب.

وإذا تلا أحوال المكذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر.

وليتخلى التالي من موانع الفهم، مثل أن يخيل الشيطان إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مخرجه، فيكرره التالي، فيصرف همته عن فهم المعنى. ومن ذلك أن يكون التالي مصرًا على ذنب، أومتصفًا بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه، فهو الجرب على المرآة، يمنع من تجلي الحق، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه مقصود

بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فلينتبه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود. وليتأمل الكتاب ويعمل بمقتضاه، فإن مثل العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، كمثل من كرر كتاب الملك وأعرض عن عمارة مملكته وما أمر به في الكتاب فهو مقتصر على دراسته، مخالفٌ أوامره، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت. وينبغي أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن لا يلتفت إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإن من رأى نفسه بصورة التقصير، كان ذلك سبب قربه.

الأذكار والدعوات

س: ما هي أفضل العبادات التي تؤدى باللسان بعد تلاوة القرآن؟

ج: من أفضل العبادات التي تؤدي باللسان بعد تلاوة القرآن؛ ذكر الله ﷻ، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث التي تدل على فضل ذكر الله ﷻ؟

ج: يدل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وفي أفراد مسلم عنه ﷺ أنه قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده**» [أخرجه مسلم (٢٧٠٠)]. وفي ذلك أحاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال. وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ما جلس قوم مجلسًا فتفرقوا على غير ذكر الله ﷻ، إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة**» [أخرجه أبو داود (٤٨٥٥)، وأحمد في مسنده (١٠٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٢٢٧٣)]. وفي حديث آخر: «**لا يجلس قوم مجلسًا لا يذكرون الله ﷻ ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة**

يوم القيامة».

وأما فضيلة الدعاء: فقد روى أبوهريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء**» [أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمد (٨٥٣٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٩٢)]. وللدعاء آداب: من ذلك أن يتحرى الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، والجمعة من الأسبوع، والسحر من الليل. ومن الأوقات الشريفة بين الآذان والإقامة، وعقيب الصلوات، وعند نزول الغيث، وعند القتال في سبيل الله، وعند ختم القرآن، وفي السجود، وعند الإفطار، وعند حضور القلب ووجله. وعلى الحقيقة فإن شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، فإن وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه، وحالة السجود حالة الذل. ومن آداب الدعاء أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه، وأن يخفض صوته حال الدعاء. ومن آدابه أن يبدأ بذكر الله ﷻ، ثم يصلي على النبي ﷺ، ولا يتكلف السجع في الدعاء. ومن آدابه وهو الأدب الباطن -وهو الأصل في الإجابة- التوبة ورد المظالم.

س: لوألقيت الضوء على تنويع العبادات وتوزيعها على الأوقات؟

ج: إذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الانسان: ٢٥-٢٦]، فهذا ونحوه مما ذكر من الآيات في ذلك يدل على أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر.

أوراد الليل والنهار وترتيبها

س: ما هي الأوراد المأثورة بالنهار وكم عددها؟

ج: أوراد النهار سبعة، الورد الأول من أوراد النهار: ما بين طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وهو وقت شريف، وقد أقسم الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]. فينبغي للعبد إذا انتبه من النوم أن يذكر الله ﷻ فيقول: «**الحمد الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» [أخرجه البخاري (٧٣٩٤)]. روي ذلك عن النبي ﷺ من أفراد البخاري. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهوعلى كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر**». وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «**أصبحنا وأصبح الملك لله...**» [أخرجه مسلم (٢٧٢٣)]. إلى آخره، ويقول: «**بسم الله لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» ثلاث مرات [أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، وأحمد في مسنده (٤٤٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الشيخ عبد العزيز بن باز في تحفة الأخيار (٣٨) بعد أن ذكر كلام الترمذي: وهو كما قال رحمه الله. اهـ] ثلاث مرات، «**رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا**» [أخرجه أبو داود (١٥٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٤٢٨)].

ويذكر سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**» [أخرجه البخاري (٦٣٠٦)].

ويقول: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين**» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦٤١) والدارمي (٢٦٨٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٣)، وأورد الحديث الشيخ عبد العزيز بن باز في تحفة الأخيار (٤٦) وصحح إسناده. اهـ]. ويدعو «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**» [أخرجه مسلم (٢٧٢٠)].

فهذه الأدعية لا يستغني المسلم عن حفظها. وينبغي له قبل خروجه إلى صلاة الفجر أن يصلي السنة في منزله ثم يخرج متوجهًا إلى المسجد. فإذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: «اللهم إني أسألك من فضلك**» [أخرجه مسلم (٧١٣)]. ثم يطلب الصف الأول منتظرًا للجماعة داعيًا بنحو ما تقدم من الأذكار والأدعية فإذا صلى الفجر استحب أن يمكث في مكانه إلى طلوع الشمس. فقد روى أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة**» [أخرجه الترمذي (٥٨٦) كتاب الجمعة - باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الفجر، وهو حديث حسن بشواهده]. وليكن وظائف وقته أربعًا: الدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر، وليأت بما أمكنه، وليتفكر في قطع القواطع، وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه، وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضحى، وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار، إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة، وهوالربع، وهذا وقت شريف، وفيه وظيفتان: **إحداهما**: صلاة الضحى.

والثانية: ما يتعلق بالناس من عيادة مريض، أوتشييع جنازة، أوحضور مجلس علم، أوقضاء حاجة مسلم. وإن لم يفعل شيئًا من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر،

الورد الثالث: من وقت الضحى إلى الزوال، والوظيفة في هذا الوقت، الأقسام الأربعة، وزيادة أمرين:

أحدهما: الاشتغال بالكسب والمعاش، فإن كان تاجرًا فليتجر بصدق وأمانة، وإن كان صاحب صنعة، فليصنع بنصيحة وشفقة، ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل.

والثاني: القيلولة، فإنها مما تعين على قيام الليل، كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت.

واعلم: أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فالاعتدال أن ينام من ذلك الثلث، وهوثمان ساعات، فمن نام أقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه، ومن نام أكثر من ذلك كثر كسله، فإذا أكثر من ذلك في الليل فلا وجه لنومه في النهار، بل من نقص منه استوفى ما نقص في النهار.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر، وهو أقصر أوراد النهار وأفضلها، فينبغي له في هذا الوقت إذا أذن المؤذن أن يجيبه مثل قوله، ثم يقوم فيصلي أربع ركعات، ويستحب أن يطيلهن، فإن أبواب السماء تفتح حينئذ، ثم يصلي الظهر وسنتها، ثم يتطوع بعدها بأربع.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر، فيستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر، والصلاة، وفنون الخير، ومن أفضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة.

الورد السادس: إذا دخل وقت العصر إلى أن تصفر الشمس وليس في هذا الوقت صلاة سوى أربع ركعات بين الأذانين، ثم فرض العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأربعة التي سبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم.

الورد السابع: من اصفرار الشمس إلى أن تغرب، وهو وقت شريف. قال الحسن البصري رحمه الله: كانوا أشد تعظيمًا للعشي من أول النهار، فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة

وبالمغرب تنتهي أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه، فقد انقضت من طريقه مرحلة. وليعلم أن العمر أيام تنقضي جملتها بانقضاء آحادها. قال الحسن: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا مضى يومك مضى بعضك. وليتفكر هل ساوى يومه أمسه، فإن رأى أنه قد توفر على الخير في نهاره، فليشكر الله تعالى على التوفيق، فإن تكن الأخرى، فليتب وليعزم على تلافي ما سبق من التفريط في الليل، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وليشكر الله تعالى على صحة جسمه، وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير، وقد كان جماعة من السلف يستحبون أن لا ينقضي يوم إلا عن صدقة، ويجتهدون فيما أمكن من كل خير.

أوراد الليل

س: وما هي الأوراد المأثورة بالليل؟

ج: من الأوراد المأثورة بالليل: الوتر قبل النوم، إلا من كان عادته القيام بالليل، فإن تأخيره في حقه أفضل، قالت عائشة رضي الله عنها: «**من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أول الليل، وأوسطه، وآخره، فانتهى وتره إلى السحر**» [أخرجه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥)]. ثم ليقل بعد الوتر: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاث مرات [أخرجه أبو داود (١٤٣٠)، والإمام أحمد في مسنده (٢٠٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود»].

- النوم، وإنما عددناه من الأوراد، لأنه إذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة. وقد قال معاذ رضي الله عنه: «**إني لأحتسب في نومتي كما أحتسب في قومتي**».

فمن آداب النوم: أن ينام على طهارة، لما روت عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ: «**كان إذا أراد أن ينام يتوضأ وضوءه للصلاة**» [أخرجه البخاري (٢٨٨)، ومسلم (٣٠٥)]. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «**إن الأرواح يعرج بها في منامها إلى السماء فتؤمر بالسجود عند العرش، فما كان منها طاهرًا سجد عند العرش، وما كان ليس بطاهر سجد بعيدًا عن العرش**».

ومن آدابه: أن يتوب قبل نومه، لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره أن يطهر باطنه، لأنه ربما مات في نومه.

ومنها: أن يزيل كل غش في قلبه لمسلم، ولا ينوي ظلمه، ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ.

ومنها: أن لا يبيت من له شيء يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده، لأنه في «**الصحيحين**» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**» [أخرجه البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية]. وينبغي له أيضًا أن لا يبالغ في تمهيد الفراش متنعمًا بذلك، فإنه يزيد في النوم، وينبغي أن لا ينام حتى يغلبه النوم، فقد كان السلف لا ينامون إلا غلبة. ومن آدابه أن يستقبل القبلة وأن يدعو بما ورد من الأحاديث في ذلك، أن ينام على جنبه الأيمن، فمما جاء في ذلك ما روي أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ماحدث بعده**» [أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)]. فإذا وضع جنبه فليقل: «**باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بماتحفظ به عبادك الصالحين**» أخرجاه في «الصحيحين». وفي الصحيحين أيضًا، من حديث عائشة، أن النبي ﷺ: «**كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفخ فيهما وقرأ فيهما**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده،

يفعل ذلك ثلاث مرات» [أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٢١٩٢)]. وفيهما من حديث البراء بن عازب ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإنك إن مت ليلتك مت على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيرًا» [أخرجه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠)].

وعن علي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة: «إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما، فسبحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمداه ثلاثًا وثلاثين، وكبراه أربعًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم» [أخرجه البخاري (٦٣١٨)، ومسلم (٢٧٢٧)]. وحديث أبي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور، وفيه أن شيطانًا قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب» [أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، وقال ابن حجر في «الفتح» (٤/٥٦٩)، «وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبونعيم من طرق»]. وفي أفراد مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» [أخرجه مسلم (٢٧١٥)].

فإذا استيقظ للتهجد، فليدع بدعاء رسول الله ﷺ: «اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت» وفي رواية: «وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت» [أخرجه البخاري

١١٢٠، ومسلم (٧٦٩)].

وليجتهد أن يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى، وأول ما يجري على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى، فهاتان علامتان على الإيمان.

الورد الخامس من أوراد الليل: يدخل بمضي النصف الأول إلى أن يبقى من الليل سدسه، وذلك وقت شريف. وروي أن داود عليه السلام قال: «**يا رب، أية ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بي وأخلو بك، وارفع إلي حوائجك**».

فإذا قام إلى التهجد، قرأ العشر آيات من آخر سورة «آل عمران»، كما روي في «الصحيحين» أن النبي ﷺ **فعل ذلك** [أخرجه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣)]. وليدع بما سبق من دعائه ﷺ عند قيامه من الليل. ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين، لما روى أبوهريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا قام أحدكم يصلي بالليل، فليبدأ بركعتين خفيفتين**» [أخرجه مسلم (٧٦٨)]، ثم يصلي مثنى مثنى، وأكثر ما روي عن النبي ﷺ أنه: «**كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر، وأقلهن سبع**» [أخرجه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٧)].

الورد السادس من الليل: السدس الأخير وهو وقت السحر، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وفي الحديث: «**إن قراءة الرجل آخر الليل محضورة**» [أخرجه مسلم (٧٥٥)].

وجاء طاووس إلى رجل وقت السحر فقالوا: هو نائم، فقال: «**ما كنت أرى أن أحدًا ينام وقت السحر**».

فإذا فرغ المسلم من صلاة **السحر**، فليستغفر الله ﷻ. وروي عن ابن عمر ﵄ أنه كان يفعل ذلك.

اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

س: كيف تختلف الأوراد باختلاف الأحوال؟

ج: السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال: إما أن يكون عابدًا، أو عالمًا، أو متعلمًا، أو واليًا، أو محترفًا.

الأول: **العابد**: وهو المنقطع عن الأشغال كلها إلى التعبد، فهذا يستعمل ما ذكرنا من الأوراد، وقد تختلف وظائفه، فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف مختلفة، فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة، حتى يختم في يوم ختمة، أوختمتين، أوثلاثًا، وكان فيهم من يكثر التسبيح، ومنهم من يكثر الصلاة، ومنهم من يكثر الطواف بالبيت.

فإن قيل: فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد؟

فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائمًا مع التدبر يجمع الجميع، ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك، والأفضل يختلف باختلاف حال الشخص، ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلينظر المسلم ما يراه أشد تأثيرًا فيها فليواظب عليه، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره. قال أبو سليمان الداراني: «**فإذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع**».

الثاني: **العالم**: الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى، أوتدريس، أوتصنيف، أوتذكير، فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد فإنه يحتاج إلى المطالعة في الكتب، والتصنيف والإفادة، فإن استغرق الأوقات في ذلك، فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات، وإنما نعني بالعلم المقدم على العبادة الذي يرغب في الآخرة، ويعين على سلوك طريقها، والأولى بالعالم أيضًا أن يقسم أوقاته، لأن استغراق الأوقات في

العلم لا تصبر عليه النفس، فينبغي أن يخص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا، ثم ما بعد طلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم، صرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم، فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات، ثم من ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة، لا يترك ذلك إلا في وقت أكل، أوطهارة، أومكتوبة، أوقيلولة، ومن العصر إلى اصفرار الشمس بسماع ما يقرأ عليه من تفسير، أوحديث، أوعلم نافع، ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح، فيكون ورده الأول من عمل اللسان، والثاني في عمل القلب بالتفكير، والثالث في عمل العين واليد والمطالعة والنسخ، والرابع بعد العصر في عمل السمع لتتروح العين واليد.

وأما الليل: فأحسن قسمة فيه قسمة الشافعي رحمه الله، فإنه كان يقسمه ثلاثة أجزاء: الثلث الأول: لكتابة العلم، والثاني: للصلاة، والثالث: للنوم، فأما الصيف، فربما لا يحتمل ذلك، إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار.

الثالث: حال المتعلم: فإن التعلم أفضل من التشاغل بالأذكار والنوافل، وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد، لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالإفادة، وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف، فإن كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ أفضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها.

الرابع: **الوالي**: مثل الإمام، والقاضي، أوالمتولي للنظر في أمور المسلمين، فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادة يتعدى نفعها، فينبغي أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك، ويقنع بأوراد الليل.

الخامس: **المحترف**: وهو محتاج إلى الكسب له أو لعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبد، بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر، فإذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد.

قيام الليل وفضله

س: اذكر لنا طرفًا من فضل قيام الليل؟

ج: قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «**لم أجد من العبادة شيئًا أشد من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره**».

الأسباب الميسرة لقيام الليل

س: ما هي الأسباب الميسرة لقيام الليل؟

ج: قيام الليل صعب إلا من وفق للقيام بشروطه الميسرة له، فمن الأسباب ظاهر، ومنها باطن.

فأما الظاهر: فأن لا يكثر الأكل، كان بعضهم يقول: لا تأكلو كثيرًا فتشربوا كثيرًا فتناموا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

ومنها: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة. ومنها: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل ومنها أن يجتنب الأوزار. قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها سلامة القلب للمسلمين، وخلوه من البدع، وإعراضه عن فضول الدنيا. ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل. ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل. ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام

ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام. قال أبوسليمان رَحِمَهُ اللهُ: «**أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا**».

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «**إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا آتاه إياه، وذلك كل ليلة**» [صحيح]: أخرجه مسلم (٧٥٧) كتاب صلاة المسافرين - باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء، من حديث جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا].

وإحياء الليل مراتب:

أحدها: أن يحيي الليل كله، روي ذلك عن جماعة من السلف.

الثانية: أن يقوم نصف الليل، وهو مروي أيضًا عن جماعة من السلف وأحسن الطريق في هذا أن ينام الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثلث الليل، فينبغي أن ينام النصف الأول، والسدس الأخير، وهوقيام داود عليه السلام.

ففي «الصحيحين»: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**» [صحيح]: أخرجه البخاري (٣٤٢٠) ومسلم (١١٥٩)]. ونوم آخر الليل حسن، لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة، ويقلل صفرته.

المرتبة الرابعة: أن يقوم سدس الليل أوخمسه، والأفضل من ذلك ما كان في النصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السدس الاخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يراعى التقدير، فإن مراعاة ذلك صعب ثم فيما يفعله طريقان:

أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المكابدة، وهوطريق جماعة من السلف.

وفي «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ مصليًا من الليل إلا رأيناه، وما كنا نشاء أن نراه نائمًا إلا رأيناه**» [أخرجه البخاري

(١١٤١)]. وكان عمر ﷺ يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله، فيقول: الصلاة الصلاة».

وقال الضحاك: «**أدركت أقوامًا يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة**».

الطريق الثاني: أن ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم، وانتبه، قام الباقي. قال سفيان الثوري: «**إنما هي أول نومة، فإذا انتبهت لم أقلها - يعني: لم ينم**».

المرتبة السادسة: أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين.

وفي «سنن أبي داود» قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعًا ركعتين، كتبا ليلتئذ من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**». وكان طلحة بن مصرف يأمر أهله بقيام الليل، ويقول: صلوا ركعتين، فإن الصلاة في جوف الليل تحط الأوزار.

فهذه طرق قسمة الليل، فلتخير المسلم لنفسه ما يسهل عليه، فإن صعب القيام عليه في وسط الليل، فلا ينبغي أن يخل بإحياء ما بين العشاءين وورد السحر، ليكون قائمًا في الطرفين، وهذه مرتبة سابعة.

س: من لم تتيسر له الصلاة بالليل فماذا يفعل؟

ج: من صعبت عليه الطهارة في الليل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مستقبل القبلة، وليذكر الله تعالى، وليدع مهما قدر. فإن لم يجلس فليدع وهو مضطجع، ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته، فليأت به بعد صلاة الضحى. فقد ورد ذلك في الحديث [[صحيح]: أخرجه أبو داود (١٤٥١)، وابن ماجه (١٣٣٥) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٣٠)]. وليحذر من له عادة بقيام الليل أن يتركها، ففي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن عمرو: «**لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**» [أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩)].

آداب الأكل

س: إلى كم قسم تنقسم آداب الأكل؟

ج: آداب الأكل، منها ما هو قبله، ومنها ما هو مع الأكل، ومنها ما هو بعد الأكل.

س: تحدث عن الآداب المستحبة قبل الأكل؟

ج: من القسم الأول: غسل اليدين قبل الأكل، لأنها لا تخلو من درن، ومن ذلك أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، فإنه أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ من رفعه على المائدة، وهوأدنى إلى التواضع، ومن ذلك أن يجلس الجلسة على السفرة، فينصب رجله اليمنى، ويعتمد على اليسرى، وينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعًا بالأكل، ولا يقصد به النعم فقط، وعلامة صحة هذه النية أخذ البلغة دون الشبع.

قال النبي ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع، وأن يرفع يده قبل الشبع ومع فعل ذلك لم يكد يحتاج إلى طبيب، ومن ذلك أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير منه، وأن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده.

القسم الثاني: في الآداب حالة الأكل: وهو أن يبدأ ببسم الله في أوله، ويحمد

الله تعالى في آخره.

ومن ذلك أن يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وأن لا يمد يده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، ولا يذم مأكولًا، ومن ذلك أن يأكل مما يليه،إلا أن يكون الطعام متنوعًا كالفاكهة، وليأكل بثلاث أصابع، وإذا وقعت لقمة أخذها. ومن ذلك أن لا ينفخ في الطعام الحار، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ماله عجم وثفل، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطب.

القسم الثالث: من آداب الأكل ما يستحب بعد الطعام، وهوأن يمسك قبل الشبع ويلعق أصابعه، وأن يسلت القصة، وليحمد الله، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها**» [أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، من حديث أنس بن مالك ﷺ]. ويغسل يديه من الغمر.

س: اذكر آداب الشرب؟

ج: من آداب الشرب أن يتناول الإناء بيمينه، وينظر فيه قبل الشرب، ويمص مصًا لا عبًا، فقد روي عن علي ﷺ: مصوا الماء مصًا ولا تعبوه عبًا، فإن الكباد من العب، ولا يشرب قائمًا، ويتنفس في شربه ثلاثًا خارج الإناء.

ففي «الصحيحين» أن النبي ﷺ: «**كان يتنفس في الإناء ثلاثًا**» [صحيح]: أخرجه البخاري (٥٦٣١)، ومسلم (٢٠٢٨)، من حديث أنس بن مالك ﷺ]. والمعنى يتنفس في شربه في الإناء، بأن يباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النفس في الإناء.

س: اذكر آداب الأكل التي تلزم من يأكل مع جماعة من الناس؟

ج: من ذلك أن لا يبتدئ في الأكل إذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن أو زيادة فضل، بل ينتظر حتى يبتدئ الأكبر في السن أو صاحب الفضل إلا أن يكون

هو المتبوع.

ومنها أن لا يسكتوا على الطعام، بل يتكلموا بالمعروف، ويتحدثوا بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

ومن ذلك أن يقصد كل منهم الإيثار لرفيقه، ولا يحوج رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل ينبسط، ولا يتصنع بالانقباض. ومن ذلك أن لا ينظر إلى أصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا.

ومن ذلك أن لا يفعل ما يستقذره من غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئًا من فيه ليرمي به، صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل، ولا الخل في الدسمة، فقد يكرهه غيره، ولا يغمس بقية اللقمة التي أكل منها في المرقة.

س: اذكر بعض الآثار في استحباب تقديم الطعام للإخوان والأصحاب؟

ج: يستحب تقديم الطعام إلى الإخوان، روي ذلك عن علي ﷺ قال: لأن أجمع إخواني على صاع من الطعام أحب إلي من أن أعتق رقبة.

وكان خيثمة رحمه الله: «**يصنع الخبيص والطعام الطيب، فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول: كلوا، فما صنعته إلا لكم**».

ويقدم ما حضر من غير تكلف، ولا يستأذنهم في التقديم، بل يقدم من غير استئذان، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده.

ومن آداب الزائر أن لا يقترح طعامًا بعينه، وإن خير بين طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يعلم أن مضيفه يسر باقتراحه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي رحمه الله على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لونًا آخر، فلما علم الزعفراني اشتد فرحه.

س: وهل يستحب الدخول على قوم يأكلون؟

ج: لا ينبغي لأحد إذا علم أن قومًا يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصد، فسألوه الأكل، نظر، فإن علم أنهم إنما سألوه حياء منه، فلا يأكل، وإن علم أنهم يحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل.

ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكان واثقًا به عالمًا أنه إذا أكل من طعامه سر بذلك، جاز له أن يأكل.

آداب الضيافة

س: اذكر بعض آداب الضيافة؟

ج: من آداب الضيافة، أن يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق، وقال بعض السلف: لا تأكل إلا طعام تقي،ولا يطعم طعامك إلا تقي.

وينبغي أن يقصد الفقراء دون الأغنياء. وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافتهم، فإن إهمالهم يوجب الإيحاش وقطيعة الرحم، وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه، ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استعمال السنة في إطعام الطعام واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، ولا يدعو من يعلم أنه تشق عليه الإجابة، أو إذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب.

س: وما هي آداب الإجابة للدعوة؟

ج: أما آداب الإجابة، فإن كانت دعوة عرس، فالإجابة عليها واجبة إذا دعاه المسلم في اليوم الأول، وإن كانت لغيره، فهي جائزة، ثم ينبغي أن لا يخص الغني بالإجابة دون الفقير، ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائمًا، بل يحضر، فإن كان تطوعًا وعلم أن فطره يسر أخاه المسلم فليفطر.

فأما إن كان الطعام حرامًا فليمتنع من الإجابة، وكذلك إذا كان ثمة فرش محرمة،

أوإناء محرم، أومزمار أوصورة، وكذلك إذا كان الداعي ظالمًا أوفاسقًا أومبتدعًا أومفاخرًا بدعوته.

وينبغي أن لا يقصد بالإجابة إلى الدعوة نفس الأكل، بل ينوي به الاقتداء بالسنة، وإكرام أخيه المؤمن، وينوي صيانة نفسه عمن يسيء به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا متكبر.

وينبغي أن يتواضع في مجلسه إذا حضر، ولا يتصدر، وإن عين له صاحب الدار مكانًا لم يتعده، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي منه الطعام، فإنه دليل على الشره.

س: وما هي آداب إحضار الطعام؟

ج: إحضار الطعام له خمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف.

الثاني: تقديم الفاكهة أولًا قبل غيرها، وذلك أصلح في باب الطب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١-٢٢]. ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم، خصوصًا المشوي، ثم أفضل الطعام بعد اللحم الثريد، ثم الحلوى، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وتكملة الأمر صب الماء الفاتر على اليد عند الغسل.

الثالث: أن يقدم جميع الألوان الحاضرة.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم.

الخامس: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل من الكفاية نقص في المروءة.

وينبغي أن يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام، فإذا أراد الضيف الانصراف ينبغي أن يخرج معه إلى باب الدار، فإنه سنة، وذلك من إكرام الضيف ومن تمام الإكرام طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

وأما الضيف فينبغي أن يخرج طيب النفس وإن جرى في حقه، فذلك من حسن الخلق والتواضع، ولا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة.

آداب النكاح

س: ما هي فوائد النكاح؟

ج: لا يختلف العلماء في أن النكاح مستحب، مندوب إليه، كثير الفضائل، وفيه فوائد، منها: الولد، لأن المقصود بقاء النسل، وفيه فوائد محبة الله تعالى بالسعي لذلك، ليبقى جنس الإنسان.

وفيه طلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته. وفي طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الولد الصغير. ومن فوائد النكاح: التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة. وفيه ترويح النفس، وإيناسها بمخالطة الزوجة.

ومنها: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب العيش، فإن الانسان يتعذر عليه أكثر ذلك مع الواحدة، ولو تكفل به لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب. ومن فوائده أيضًا: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمال عظيمة الفضل، فإنها رعاية وولاية، وفضل الرعاية عظيم، وإنما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها، ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ﷻ. وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال: «**دينار أنفقته في سبيل الله،**

ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أفضلها الذي أنفقته على أهلك» [أخرجه مسلم (٩٩٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ].

س: وما هي آفات النكاح؟

ج: في النكاح آفات، أقواها: العجز عن طلب الحلال، فإن ذلك يصعب، فربما امتدت يد المتزوج إلى ما ليس له.

الثانية: القصور عن القيام بحقوق النساء، والصبر على أخلاقهن وأذاهن، وفي ذلك خطر، لأن الرجل راع وهومسؤول عن رعيته.

الثالثة: أن يكون الأهل والولد يشغلونه عن ذكر الله ﷻ، فينقضي ليله ونهاره بالتمتع بذلك، فلا يتفرغ القلب للفكر في الآخرة والعمل لها، فهذه مجامع الآفات، والفوائد فالحكم على شخص واحد، بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقًا مصروف على الإحاطة بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض نفسه على هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد، بأن كان له مال حلال وحسن خلق، وهو مع ذلك شاب يحتاج إلى تسكين الشهوة، ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح أفضل، وإن انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الآفات، فتركه أفضل، وهذا في حق من لم يحتج إلى النكاح، فإن احتاج إليه فإنه يلزمه.

س: وما هي الأمور المستحب توافرها في المرأة لطيب العشرة؟

ج: يعتبر في المرأة لطيب العشرة أمور:

أحدها: الدين، وهوالأصل، لقول النبي ﷺ: **«عليك بذات الدين»** [[صحيح]: أخرجه البخاري (٥٠٩٠) كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع - باب استحباب نكاح ذات الدين، من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا بلفظ: **«تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»**]. فإذا لم يكن لها دين أفسدت دين زوجها، وأزرت به. وإن سلكت الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش.

الثاني: حسن الخُلق، فإن سيئة الخلق ضررها أكثر من نفعها.

الثالث: حسن الخِلقة، وهومطلوب، إذ به يحصل التحصن، ولهذا أمر بالنظر إلى المخطوبة. وقد كان أقوام لا ينظرون في الحسن، ولا يقصدون التمتع، كما روي أن الإمام أحمد رحمه الله: «**اختار امرأة عوراء على أختها**»، إلا أن هذا يندر، والطباع على ضده

الرابع: خفة المهر، وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين. وقال عمر رضي الله عنه: «**لا تغالوا في مهور النساء**».

وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة، يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل.

قال الثوري: إذا تزوج الرجل وقال: أي شيء للمرأة؟ فاعلم أنه لص.

الخامس: البكارة، لأن الشارع ندب إلى ذلك، ولأنها تحب الزوج وتألفه أكثر من الثيب، فيوجب ذلك الود، فإن الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف، وهو أيضًا أكمل لمودته لها، لأن الطبع ينفر من التي مسها غيره.

السادس: أن تكون ولودًا.

السابع: النسب، وهوأن تكون من بيت دين وصلاح.

الثامن: أن تكون أجنبية.

وكما ينبغي للرجل أن ينظر في المرأة، ينبغي للولي أن ينظر في دين الرجل وأخلاقه وأحواله، لأنها تصير بالنكاح مرقوقة، ومتى زوجها من فاسق أومبتدع، فقد جنى عليها وعلى نفسه.

قال رجل للحسن: «**ممن أزوج ابنتي؟ قال: ممن يتقي الله، فإنه إن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لن يظلمها**».

آداب المعاشرة

س: ما هي الحقوق التي تلزم الزوج لزوجته؟

ج: أما الزوج، فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمرًا:

الأول: الوليمة فإنها مستحبة.

الثاني: حسن الخلق مع الزوجات. واحتمال الأذى منهن لقصور عقلهن.

وفي الحديث الصحيح: «**استوصوا بالنساء خيرًا، خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا**» [أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

واعلم: أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم على طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ، ففي «الصحيحين»، من حديث عمر رضي الله عنه: «**أن أزواج النبي ﷺ كن يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل**» [أخرجه البخاري (٥١٩١)، ومسلم (١٤٧٩)].

الثالث: أن يداعبها ويمازحها، وقد سابق عليه السلام عائشة رضي الله عنها، وكان يداعب نساءه ﷺ، وقال لجابر: «**هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك**» [أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥)].

الرابع: أن يكون ذلك بقدر، ولا ينبسط في الرعاية إلى أن تسقط هيبته بالكلية عند المرأة، بل ينبغي أن يقصد طريق الاقتصاد. وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أنه عتب على بعض عماله، فكلمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت: يا أمير المؤمنين فيم وجدت عليه؟ قال: يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟ إنما أنت لعبة يلعب بك ثم تتركين**».

الخامس: الاعتدال في الغيرة، وهوأن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي يخشى

غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن، وقد نهى النبي ﷺ: «**أن يطرق الرجل أهله ليلًا**» [أخرجه البخاري (٥٢٤٤)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، ومسلم (١٩٢٨)، من حديث أنس بن مالك ﷺ].

السادس: الاعتدال في النفقة والقصد دون الاسراف والتقتير، ولا ينبغي للرجل أن يستأثر عن أهله بالطعام الطيب، فإن ذلك مما يوغر الصدر.

السابع: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض، ويلقنها الاعتقاد الصحيح، ويزيل عن قلبها كل بدعة إن كانت، ويعلمها أحكام الصلاة والحيض والاستحاضة، فيعرفها أنها إذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر، وإذا انقطع دمها قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء، وهذا لا يكاد النساء يراعينه.

الثامن: إذا كانت له نسوة ينبغي أن يعدل بينهن، والعدل في المبيت والعطاء، لا في الحب والوطء، فإن ذلك لا يملكه، فإن سافر وأراد استصحاب إحداهن أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

التاسع: النشوز، فإذا كان النشوز من المرأة، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهرًا، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف، فإن لم ينفع هجرها في المضجع، فولاها ظهره أوانفرد عنها بالفراش، وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثة أيام، فإن لم ينفع ضربها ضربًا غير مبرح، وهوأن لا يدمي لها جسمًا، ولا يضرب لها وجهًا.

العاشر: في آداب الجماع، يستحب البداءة بالتسمية [أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤)]. والانحراف عن القبلة، وأن يتغطى هوأهله بثوب، وأن لا يكونا متجردين، وأن يبدا بالملاعبة والضم والتقبيل. ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة، ثم إذا قضي وطره فليتمهل لتقضي وطرها، فإن إنزالها ربما تأخر.

ومن الأداب: أن تأتزر الحائض بإزار من حقويها إلى ما بين الركبة إذا أراد الاستمتاع بها، ولا يجوز وطؤها في الحيض، ولا في الدبر، ومن أراد أن يجامع مرة

ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ.

ومن الآداب: أن لا يحلق شعره، ولا يقلم أظافره، ولا يخرج دمًا وهو جنب، وأما العزل فهو مباح مع الكراهة.

س: وما هي الحقوق التي تلزم الزوجة تجاه زوجها؟

ج: عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو جاز لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» لعظم حقه عليها.

وفي هذا القسم أحاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته، وحقوقه عليها كثيرة، وأهمها أمران:

أحدهما: الستر والصيانة.

الثاني: القناعة، وعلى هذا كان النساء في السلف، كان الرجل إذا خرج من منزله يقول له أهله: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار. ومن الواجب عليها: أن لا تفرط في ماله، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن كان بغير رضاه، كان له الأجر وعليها الوزر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها قبل نقلها إلى الزوج لتعرف آداب العشرة، وينبغي للمرأة أن تكون قاعدة في بيتها، لازمة لمغزلها، قليلة الكلام لجيرانها، كثيرة الانقباض في حال غيبة زوجها، تحفظه غائبًا وحاضرًا، وتطلب مسرته في جميع الأحوال، ولا تخونه في نفسها ولا في ماله، ولا توطئ فراشه من يكره،ولا تأذن في بيته إلا بإذنه، ولتكن همتهاصلاح شأنها وتدبيره، قائمة بخدمة الدار في كل ما أمكنها، ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع أقربائها.

آداب الولادة

س: ما هي آداب الولادة واستقبال المولود؟

ج: آداب استقبال المولود ستة:

الأول: أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيهما الخير.

الثاني: أن يؤذن في أذن المولود حين يولد.

الثالث: أن يسميه اسمًا حسنًا.

وفي أفراد مسلم: «**إن أحب أسمائكم إلى الله ﷻ عبد الله وعبد الرحمن**» [أخرجه مسلم (٢١٣٢)]. ومن كان له اسم مكروه، استحب تبديله، فقد غير النبي ﷺ أسماء جماعة، وقد كره من الأسماء: أفلح، ونافع، ويسار، ورباح، وبركة، لأنه يقال: أهو ثمة؟ فيقال: لا.

الرابع: العقيقة عن الذكر شاتان، وعن الأنثى شاة.

الخامس: أن يحنكه بتمرة.

السادس: الختان.

آداب الطلاق

س: ما هي آداب الطلاق؟

ج: مما يتعلق بآداب الطلاق، وهو أبغض المباحات إلى الله ﷻ فيكره للرجل أن يفاجئ به المرأة من غير ذنب، ولا يجوز للمرأة أن تلجئه إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاق فليراع فيه أربعة أشياء.

الأول: أن يطلقها في طهر لم يصبها فيه، لئلا تطول عليها العدة.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة ليستفيد بها الرجعة إن ندم.

الثالث: أن يتلطف في الأمر في الطلاق بإعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع، فقد روي عن الحسن بن علي ﵄ أنه: «**طلق امرأة وبعث إليها بعشرة آلاف درهم، فقالت: متاع قليل من حبيب مفارق**».

الرابع: أن لا يفشي سرها، وفي الحديث الصحيح في أفراد مسلم «**إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه، ثم ينشر سرها**» [أخرجه مسلم (١٤٣٧)].

وروي عن بعض الصالحين أنه: «**أراد طلاق امرأته فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يهتك سرًا، فلما طلقها قيل له: لم طلقتها؟ فقال: مالي ولامرأة غيري. فهذا كله في بيان ماعلى الزوج**».

آداب الكسب والمعاش

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الكسب والحث عليه؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فذكره في معرض الامتنان، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] فجعلها نعمة، وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي أفراد البخاري أن النبي ﷺ قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمله يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**» [أخرجه البخاري (٢٠٧٢)].

وفي حديث: «**أن زكريا عليه السلام كان نجارًا**» [أخرجه مسلم (٢٣٧٩)].

قال ابن عباس ﵄: «كان آدم عليه السلام حراثًا، ونوح نجارًا، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا، وداود زرادًا، وموسى وشعيب

ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة».

س: اذكر بعض الآثار في فضل الكسب والحث على الاكتساب؟

ج: من الآثار روي أن لقمان الحكيم قال لابنه: «**يا بني استعن بالكسب الحلال، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الخصال استخفاف الناس به**».

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجل جلس في بيته أومسجده وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «**إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي**»، وقال حين ذكر الطير: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخلهم، والقدوة بهم.

وقال أبوسليمان الداراني: «**ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يتعب لك، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد**»، فإن قيل: قال أبو الدرداء: «**زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترت العبادة؟**» فالجواب: أنا لا نقول: إن التجارة لا تراد لذاتها، بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفضل على الإخوان، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه، والتفاخر ونحو ذلك، فهو مذموم.

س: ما هي الأمور التي ينبغي توافرها في عقد الاكتساب؟

ج: ليكن العقد الذي به الاكتساب جامعًا لأمور أربعة: الصحة، والعدل، والإحسان، والشفقة على الدين.

الأمر الأول: في الصحة، فإن كان العقد بيعًا، فله ثلاثة أركان: العاقد والمعقود عليه، واللفظ.

الركن الأول: أما العاقد، فينغي للتاجر أن لا يعامل المجنون، لأنه غير مكلف، فلا يصح بيعه، ولا يعامل العبد إلا أن يعلم أنه مأذون له، وكذلك الصبي لا يعامل إلا أن يكون قد أذن له الأب أو الوصي، فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وعند الشافعي لا تصح عقود الصبي، ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة، يصح بيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا تصح.

وأما الظلمة ومن أكثر ماله حرام، فلا ينبغي أن يعامل إلا في شيء يعرف أن عينه حلال.

الركن الثاني: المعقود عليه، وهو المال المقصود نقله، ولا يجوز بيع الكلب، لأنه نجس العين، فأما البغل والحمار فيجوز بيعهما، سواء قلنا: إنهما طاهران أونجسان، ولا يجوز بيع الحشرات، ولا بيع العود والمزمار، والصور المصنوعة من الطين ونحوه، ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حسًا ولا شرعًا، أما الحس فكالطير في الهواء، والعبد الآبق ونحوهما، وأما الشرع فكالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أوالولد دون الأم، فهذا ممنوع تسليمه شرعًا.

الركن الثالث: اللفظ، وهو الإيجاب والقبول، فإن تقدم القبول للايجاب لم يصح في إحدى الروايتين، ويصح في الأخرى، سواء كان بلفظ الماضي أو بلفظ الطلب، فإن تبايعا بالمعاطاة، فظاهر كلام أحمد صحة البيع.

وقال القاضي أبو يعلي: لا يصح ذلك إلا في الأشياء اليسيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة في الأشياء المحقرة دون النفيسة، لجريان العادات بذلك، وينبغي من طريق الورع أن لا يترك الإيجاب والقبول ليخرج عن شبهة الخلاف، وقد شدد الله تعالى في أمر الربا، فينبغي أن يحذر من الوقوع فيه، وهو قسمان: ربا الفضل، وربا النسيئة، فينبغي أن يعرف ذلك وما يجري فيه الربا، ويحتاج أيضًا أن يعرف شروط السلم، والإجازة والمضاربة، والشركة، فإن المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة.

الأمر الثاني: وهو العدل، واجتناب الظلم في المعاملة، ونعني بالظلم ما يتضرر به الغير، وهو ينقسم إلى ما يعم ضرره وما يخص.

الأول: الاحتكار، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر وتضييق الأقوات على الناس.

وصفته: أن يستكثر من ابتياع الغلات في الغلاء، ويتربص بها زيادة الأسعار، فأما إذا دخلت له غلة من ضيعته وحبسها، فليس محتكرًا، وكذلك إذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس، وفي الجملة تكره التجارة في القوت، لأنه قوام الآدمي.

القسم الثاني: ما يخص ضرره، نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها، أو يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري. وقد قال النبي ﷺ: «**من غشنا ليس منا**» [أخرجه مسلم (١٠١)].

واعلم: أن الغش حرام في البيوع، وفي الصناعات، وقد سئل الإمام أحمد عن رفو الثوب حتى لا يبين، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه.

وينبغي للتاجر أن يحقق الوزن، ولا يتخلص في هذا حتى يرجح إذا أعطي، وينقص إذا أخذ، ومتى خلط العلاف الطعام ترابًا ثم كاله فهو مطفف، وكذلك القصاب إذا خلط عظمًا لم تجر العادة بمثله.

وقد نهي عن النجش، وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ليُغر المشتري، ونهي عن التصرية.

الأمر الثالث: في الإحسان بالمعاملة، وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان، فمن الإحسان المسامحة في البيع، وأن لا يغبنه في الربح بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولكن يراعى فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته، فينبغي أن يمتنع البائع من قبول ذلك، فإن ذلك من الإحسان.

من ذلك أنه إذا أراد استيفاء الثمن أوالدين، فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض، وتارة بالإنظار، وتارة بالتساهل، وتارة في جودة النقد.

ومن **الإحسان**: أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا مضرر بالبيع، والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة، وما لصاحبها من الأجر والثواب.

الأمر الرابع: في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته، لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، بل يراعي دينه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة أشياء:

الأول: حسن النية في التجارة فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال، ليكون بذلك من جملة المجاهدين، ولينو النصح للمسلمين.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أوتجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لوتركت بطل المعاش، إلا أن من الصناعة ما هومهم، ومنها ما يستغني عنه لكونه متعلقًا بالزينة أوطلب التنعم، فليشتغل بصناعة مهمة، ليكون في قيامه بها كافيًا عن المسلمين مهمًا، وليجتنب صناعة الصياغة، والنقش، وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي: خياطة الخياط القباء الديباج للرجل، ويكره أن يكون جزارًا، لأنه يوجب قساوة القلب، أو حجامًا، أو كناسًا لما فيه مباشرة النجاسة، وفي معناه الدباغ.

ولا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والعبادات، وفروض الكفايات.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجهل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد، وقد كان صالحوا السلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووسطه للتجارة، وإذا سمع أذان الظهر والعصر، فينبغي أن يترك المعاش اشتغالًا بأداء الفرض.

الرابع: أن يلازم ذكر الله تعالى في السوق، ويشتغل بالتسبيح والتهليل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة،فلا يكون أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتوق مواقع الشبه ومواضع الريب، ولا يقف مع الفتاوى، بل يستفتي قلبه ما يحز في القلب.

الحلال والحرام

س: ما حكم طلب الحلال؟ وكيف نجيب على من يقول أن الحلال منعدم وغير موجود؟

ج: طلب الحلال فرض على كل مسلم، وقد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال، وقالوا: لم يبق منه إلا الماء الفرات، والحشيش النبات، وما عدا ذلك فقد أفسدته المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا، وعلموا أنه لابد لهم من الأقوات توسعوا في الشبهة والحرام، وهذا من الجهل، وقلة العلم، فإن في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات**» [أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها، واستطار في الدين شررها، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة.

ونحن نوضح ذلك في أقسام:

القسم الأول: في فضيلة طلب الحلال، وذم الحرام، ودرجات الحلال والحرام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]، والطيبات: الحلال، فأمر بذلك قبل العمل، وقال في ذم الحرام: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم

بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»، وذكر الحديث إلى قوله: «**ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب يارب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**» [أخرجه مسلم (١٠١٥)]. رواه مسلم. وروي في ذلك غير حديث.

وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه، فأكل أبوبكر الصديق رضي الله عنه: «**شيئًا من شبهة ثم قاءه**».

س: وما هي درجات الحلال، وما هي درجات الحرام؟

ج: الحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، والحرام كله خبيث، ولكن بعضه أخبث من بعض، كما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حار في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. مثال ذلك في الحرام المأخوذ بعقد فاسد، حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر، بل المغصوب أغلظ، إذ فيه إيذاء الغير، وترك طريق الشرع في الاكتساب، ليس في العقود الفاسدة إلا ترك طريق التعبد فقط، وكذلك المأخوذ ظلمًا من فقير أو صالح أو يتيم، أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسق.

س: وما هي درجات الورع؟

ج: الورع له درجات أربع:

الدرجة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهذا لا يحتاج إلى أمثلة.

الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب، كما يأتي

في قسم الشبهات. ومن هذا قوله ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» [أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٧٧)].

الدرجة الثالثة: الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس لله تعالى، وهوورع الصديقين، مثال ذلك ما روي عن يحيى بن يحيى النيسابوري رحمة الله عليه أنه: «**شرب دواء، فقالت له امرأته: لومشيت في الدار قليلًا حتى يعمل الدواء، فقال: هذه مشية لا أعرفها، وأنا أحاسب نفسي ثلاثين سنة**». فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق في الدين فلم يقدم عليها، فهذا من دقائق الورع.

«والتحقيق فيه أن الورع له أول وغاية، وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشد تشديدًا، كان أسرع جوازًا على الصراط، وأخف ظهرًا، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام، فإن شئت فزد في الاحتياط، وإن شئت فترخص، فلنفسك تحتاط وعليها تترخص.

س: وما هي مراتب الشبهات وكيف نميزها عن الحرام؟

ج: حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه نص في هذه الأقسام الثلاثة، وهي الحلال والحرام وما بينهما، والمشكل فيها هوالمتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس، وهوالشبهة. ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول: الحلال المطلق الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريمًا لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق إليها تحريمًا أوكراهية.

مثال ذلك الماء الذي يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد. الحرام المحض: ما فيه صفة محرمة، كالشدة في الخمر، والنجاسة في البول، أوحصل بسبب منهي عنه، كالمتحصل بالظلم والربا، فهذان الطرفان ظاهران، ويلتحق بهما ما تحقق أمره، ولكن يحتمل تغيره، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه، فإن صيد

البر والبحر حلال، إلا أنه من صاد ظبية أوسمكة، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين، لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه، فلودل عليه دليل، مثل أن يجد في الظبية جرحًا لا يقدر عليه، إلا بعد الضبط، كالكي، ويحتمل أن يكون غيره، فهذا موضع الورع.

وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين.

ومثالات الشبهة كثيرة، والمهم منها مثالان:

المثال الأول: الشك في السبب المحلل أو المحرم، وينقسم إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أن يكون الحل معلومًا من قبل، ثم يقع **الشك** في المحلل، فهذه شبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرى صيدًا فيجرحه فيقع في الماء فيصادفه ميتًا، ولا يدري هل مات بالغرق أوبالجرح؟ فهذا حرام، لأن الأصل التحريم.

النوع الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فيكون الأصل الحل، والحكم له، كما لوطار طائر، فقال رجل: إن كان هذا غرابًا فامرأته طالق، وقال آخر: وإن لم يكن غرابًا، فامرأته طالق: ثم التبس الأمر، فإنا لا نقضي بالتحريم في واحد منهما، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما.

النوع الثالث: أن يكون الأصل التحريم، ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهومشكوك فيه، والغالب حله، مثاله أن يرمي على صيد فيغيب عنه، ثم يدركه ميتًا وليس عليه أثر سوى سهمه، فهذا الظاهر فيه الحل، لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دليل التحقيق بالوسوسة، فأما إن ظهر عليه أثر ثدمة أو جرحة أخرى التحق بالنوع الأول.

النوع الرابع: أن يكون الحل معلومًا، ولكن يغلب على الظن طريان المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعًا، مثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد

على علامة معينة توجب عليه الظن، فتوجب تحريم شربه، كما أوجب منع الوضوء به.

المثال الثاني: أن يختلط الحرام بالحلال، ويشتبه الأمر فيه. وذلك على أضرب:

أحدها: إذا اختلطت ميتة بمدكاة، أوبعشرة من المذكيات، ونحو ذلك من العدد المحصور، ومثله أن تشتبه أخته بأجنبيات، فهذه شبهة يجب اجتنابها.

الثاني: أن يختلط حرام محصور بحلال غيرمحصور، كما لواشتبهت أخته أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح من شاء منهن، لأن في تحريمهن حرجًا كبيرًا، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعًا، لم يلزمه ترك الشراء والأكل، لأن في ذلك حرجًا، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابه أن في الناس من يرابي، وما تركوا الدراهم بالكلية، وأن مجنًا سرق في زمانه، وما تركه شراء المجن، فاجتناب هذا من ورع الوسوسة.

الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كحكم الأموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، نحوأن يأخذه من يد سلطان ظالم، فإن لم يكن له علامة، فتركه ورع، ولا يحرم ذلك، لأنه قد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعده أن أثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشراء بالسوق، ولولا صحة ذلك لا نسد باب جميع التصرفات فإن الفسق يغلب على الناس، لكن الأصل في الأموال الحل، وإذا تعارض أصل وغالب، ولا أمارة على الغالب، حكم بالأصل كما قلنا في طين الشوارع وأواني المشركين، فقد توضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية، مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة، وكانت الصحابة تلبس الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة.

ومن تأمل أحوال الدباغين والصباغين، علم غلبة النجاسة عليهم، فيدل ذلك على أنهم لم يكونوا يحترزون إلا من نجاسة مشاهدة، أويكون عليها علامة، فأما الظن

الذي يستفاد من رد الوهم إلى مجاري الأحوال، فلم يعتبروه، فإن قيل: قد كانوا يتوسعون في أمور الطهارة، ويحترزون من شبهات الحرام، فما الفرق؟

قلنا: إن أردت أنهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل، وإن أردت أنهم احترزوا من كل نجاسة وجب اجتنابها فصحيح، وأما تورعهم عن الشبه، فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس، والنفس تميل إلى الأموال كيف كانت بخلاف الأنجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال، والله أعلم.

س: وكيف يميز الإنسان بين ما يقدم له من طعام أوهدية؟

ج: اعلم: أنه لوقدم لك الطعام أوأهديت لك الهدية، أوأردت أن تشتري شيئًا من شخص فليس لك أن تقول: هذا مما لا أتحقق حله، فأريد أن أفتش عنه وليس لك أن تترك البحث مطلقًا، بل السؤال واجب مرة، وحرام مرة، ومندوب مرة، ومكروه مرة.

والقول الشافي فيه: أن مظنة السؤال الريبة، وهي تحصل إما من أمر يتعلق بالمال أوبصاحب المال، أما ما يتعلق بصاحب المال، فنحوأن يكون مجهولًا، وهوالذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه، كزي الأجناد، ولا على صلاحه، كثياب أهل العلم والزهد، فها هنا لا يجب السؤال ولا يجوز، لأن فيه هتك المسلم وإيذاءه، ولا يقال لهذا: إنه مشكوك فيه، لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيها الريبة بدلالة، مثل أن يكون على خلقة الأتراك، وأهل البوادي المعروفين بالظلم، وقطع الطريق، فهذا يجوز معاملته، لأن اليد تدل على الملك، وهذه الدلالات ضعاف، إلا أن الترك من الورع.

وأما ما يتعلق بالمال، فنحوأن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في السوق أحمال من طعام مغصوب فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة من السوق أن يسأل عما يشتريه، إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر حرامًا كان التفتيش ورعًا غير واجب.

وكذلك نقول في رجل له مال حلال خالطه حرام، مثل أن يكون تاجرًا يعامل معاملات صحيحة ويرابي، فهذا إن كان الأكثر من ماله حرامًا، لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش، فإن ظنه أن المأخوذ من وجه حلال جاز، وإلا ترك، وإن كان الحرام أقل، فالمأخوذ شبهة، والورع تركه.

واعلم: أن السؤال إنما يقع لأجل الريبة، فلا ينقطع إلامن حيث تنقطع الريبة المفضية له، بأن لا يكون المسؤول متهمًا، فإن كان متهمًا وعلمت أن له غرضًا في حضورك أوقبول هديته، فلا ثقة بقوله، وينبغي أن يسأل غيره.

س: من كان في يده مال مختلط منه الحلال والحرام ثم تاب، فكيف يميز بينهما؟

ج: من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه تمييز الحرام وإخراجه، فإن كان معلوم العين، فأمره سهل، وإن كان ملتبسًا مختلطًا، فإن كان من ذوات الأمثال، كالحبوب والنقود والأدهان، وكان معلوم القدر، ميز ذلك القدر، فإن أشكل فله طريقان:

أحدهما: الأخذ بغالب الظن.

والثاني: الأخذ باليقين، وهوالورع.

فإذا أخرج المال الحرام، فإن كان له مالك معين، وجب صرفه إليه أوإلى وارثه، وإن كان لذلك المال زيادة ومنفعة، جمع ذلك كله وصرفه إليه، وإن يئس من معرفة المالك ولم يدر أمات عن وارث أم لا؟ فليتصدق به، وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين، صرف ذلك إلى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين.

مسألة: إذا كان في يده مال حلال وشبهة، فليخص نفسه بالحلال، وليقدم قوته وكسوته على أجرة الحجام والزيت وإسجار التنور، وأصل هذا قوله ﷺ في كسب الحجام: «**اعلفه ناضحك**» [أخرجه الترمذي (١٢٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٠٠٠)].

ولو كان في يد أبويه حرام، فليمتنع من مؤاكلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم

يقبلا تناول اليسير.

وقد روي: «**أن أم بشر الحافي ناولته تمرة فأكلها، ثم صعد الغرفة فقاءها**».

س: وما الحكم في أموال الأعطيات التي يعطيها السلاطين؟

ج: من أخذ مالًا من السلطان فلابد أن ينظر في مدخل ذلك إلى السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأما في هذا الزمان، فالاحتراز أولى، لأنه قد علم طريق الأخذ، ثم لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت على الإنكار.

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيء، لأنه يأخذ حقه ويبقى أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركًا.

س: وما أحوال من يخالط الأمراء والعمال الظلمة؟

ج: اعلم: أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم وهي شرها.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن**» [[صحيح]: أخرجه الترمذي (٢٢٥٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

وقال حذيفة: «**إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه**».

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: «**ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يدك ما أريده، ولا في يدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عني**».

وأيضًا: فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله ﷻ، إما بفعله أوقوله

أوسكوته».

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه في موضع غير مغصوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالًا، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أويتمثل له قائمًا، ويخدمه، ويتواضع له بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه.

والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى آخر يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟!

وتقبيل اليد له معصية، إلا أن يكون عند خوف، أولإمام عادل، أوعالم يستحق ذلك. فأما غير ما ذكرنا، فلا يباح في حقهم إلا مجرد السلام.

وأما القول: فهوأن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدوكلامه هذه الأقسام.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أويظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الأثر: «**من دعا لظالم بطول البقاء، فقد أحب أن يعصي الله**».

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك الله، أو وفقك الله، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئًا من ذلك وسكت فهوشريك فيه، وكذا إذا سمع من كلامهم ما هوفحش وكذب وشتم

وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهومعذور في السكوت.

قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي، وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر.

س: وما الأعذار والأحوال التي تسوغ الدخول على الأمراء الظلمة؟

ج: فإن سلم مما ذكرنا، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مكثرًا لسواد الظلمة.

وروي أن سعيد بن المسيب: «**دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار، فقالوا**: ادخل من هذا الباب **واخرج من الآخر، قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مائة وألبس المسوح**».

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلمًا عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحته يتوقع لها قبولًا، فهذا حكم الدخول.

الحال الثاني: أن يدخل عليه زائرًا، فجواب السلام لابد منه.

وأما القيام والإكرام، فلا يحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للحمد، كما أنه بالظلم مستحق للذم، فإن دخل عليه وحده، وقد رأى أن يقوم إعزاز للدين فهوأولى، وإن كان دخوله عليه في جمع، فمراعاة حشمة أرباب

الولايات فيما بين الرعايا أولى وأمثل، ولا بأس بالقيام على هذه النية.

وإن علم أن ذلك لا يورث فسادًا في الرعية ولا يناله أذى من غضبه، فترك الإكرام بالقيام أولى، ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما بفعله مما لا يدري أنه محرم.

فأما إعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر، فلا فائدة فيه، بل عليه أن يخوفه من ركوب المعاصي مهما كان التخويف يؤثر في قلبه، وعليه وأن يرشده إلى المصالح.

ومتى عرف طريقًا للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه إياه.

الحال الثالث: أن يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب لقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم، كما قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، إما يوم مض فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم في غد على وجل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم؟!

مسألة: إذا بعث إليك سلطان مالًا لتفرقه على الفقراء، وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به كما سبق بيانه، ويتولى تفرقته على الفقراء.

ومن العلماء من امتنع من أخذه، وإذا كان أكثر أموالهم الحرام، حرمت معاملتهم وما بنته الظَّلَمَةُ من القناطر والمساجد والسقايات، ينبغي أن ينظر فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بنيت بها لمالك معين، لم يجز العبور عليها إلا للضرورة، وإن لم يعرف مالكها جاز العبور عليها، والورع الامتناع، والله أعلم.

آداب الصحبة ومعاشرة الخلق

س: س: لو ذكرت بعض فضائل حسن الخلق واستحباب الإحسان للخلق؟

ج: اعلم: أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق سوء الخلق، لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر، ولا يخفي ما في حسن الخلق من الفضل، والأحاديث دالة على ذلك.

فقد روي من حديث أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن**» [[صحيح]: أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٣٢)].

وفي حديث آخر: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة مساويكم أخلاقًا**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٨٩) والترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن، ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٢٠١)].

وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**» [أخرجه أحمد في مسنده (٩٤٠٣) والترمذي (٢٠٠٤)، وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٧٧)].

س: اذكر بعض الأحاديث في فضل المحبة في الله؟

ج: في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبعة يظلهم الله في ظلة يوم لا ظل إلا ظله**» فذكر منهم: «**ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه**» [أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١)].

وفي حديث آخر يقول الله ﷻ: «**حقت محبتي للمتحابين في، وحقت محبتي**

للمتباذلين في، وحقت محبتي للمتزاورين في» [أخرجه مالك في «الموطأ» (١٧٧٩)، وأحمد (٢١٤٩٧)، (٢١٥٢٥)، (٢١٥٥٩)، (٢١٥٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٣٢١)].

وفي حديث آخر: «**أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله وتبغض في الله**»، والأحاديث في ذلك كثيرة.

واعلم: أن من يحب في الله يبغض في الله، فإنك إذا أحببت إنسانًا لكونه مطيعًا لله، فإذا عصى الله أبغضته في الله، لأن من أحب لسبب أبغض لوجوده ضده، ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة، فإنك تحبه من وجه وتبغضه من وجه.

فينبغي أن تحب المسلم لإسلامه، وتبغضه لمعصيته، فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال، فأما ما يجري منه مجرى الهفوة التي يعلم أنه نادم عليها، فالأولى حينئذ الإغماض والستر، فإذا أصر على المعصية وخفتها.

واعلم: أن المخالف لأمر الله تعالى أقسام:

أحدهما: أن يكون كافرًا فإن كان حربيا فهومستحق للقتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة، وإن كان ذميًا فلا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار له إلى أضيق الطريق. وترك البداءة بالسلام. فإن سلم قيل له: وعليك. والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسترسال إليه والانبساط كما يفعل بالأصدقاء.

القسم الثاني: المبتدع، فإن كان ممن يدعوإلى بدعة. وكانت البدعة بحيث يكفر بها، فأمره أشد من الذمي؛ لأنه لا يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة. وإن كان ممن لا يكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالة. ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر؛ لأن شر الكافر غير متعد؛ لأنه لا يلتف إلى قوله، بخلاف المبتدع الذي يدعوإلى بدعته لأنه يزعم أن ما يدعوإليه حق فيكون سببا لغواية الخلق، فشره متعد، فإظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره ولاتشنيع

عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد فأما المبتدع العامي الذي لا يقدر أن يدعو ولا يخاف الاقتداء به، فأمره أهون والأولى أن يتلطف به في النصح فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإن لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه، تأكد استحباب الإعراض عنه، وإن علم أن ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده في قلبه، فالإعراض عنه أولى؛ لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها.

القسم الثالث: العاصي بفعله لا باعتقاده، فإن كانت بحيث يتأذى بها غيره، كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك، فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته، وكذلك الحكم فيمن يدعو إلى الفساد، كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب لأهل الفساد، فهذا ينبغي إهانته ومقاطعته والإعراض عنه. فأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو زنا أو سرقة أوترك واجب، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقت مباشرته إن صودف، وجب منعه بما يمتنع به، فإن كان النصح يرده وكان أنفع له، نصح وإلا أغلظ له.

صفات الصاحب

روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» [[حسن]: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٠١٩)].

واعلم: أنه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي إما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذلك غرضنا، وإما دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع إيذاء من

يكدر الاستفادة بالعلم والعلم، ومنها: الاستفادة من الجاه تحصينًا عن إيذاء من يكدر الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها: الاستفادة من الجاه تحصينًا به عن تضييع الأوقات ويصد القلب عن العبادة، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة.

فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطًا لا تحصل إلا بها وفي الجملة:

فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلًا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا. أما العقل، فهو رأس المال، ولا خير في صحبة الأحمق، لأنه يريد أن ينفعك فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما أن يكون بحيث إذا أفهم فهم. وأما حسن الخلق، فلا بد منه، إذ رب عاقل يغلبه غضب أوشهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق، فإنه لا يخاف الله، ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به وأما المبتدع فيخاف من صحبته بسراية بدعته قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يقليك منه، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى**».

قال يحيى بن معاذ: «**بئس الصديق تحتاج أن تقول له: اذكرني في دعائك، وأن تعيش معه بالمداراة، أو تحتاج أن تعتذر إليه**».

ودخل جماعة على الحسن وهو نائم، فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت، فقال: «**رحمك الله، هذا والله فعل الإخوان**».

وقال أبو جعفر لأصحابه: «**أيدخل أحدكم يده في كم أخيه فيأخذه منه ما يريد؟**

قالو: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون».

ويروى أن فتحًا الموصلي جاء إلى صديق له يقال له: عيسى التمار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادمة: «أخرجي لي كيس أخي، فأخرجته، فأخذ درهمين، وجاء عيسى إلى منزله فأخبرته الجارية بذلك، فقال: إن كنت صادقة، فأنت حرة، فنظر فإذا هي قد صدقت، فعتقت».

حقوق الإخوان

س: ما هي الحقوق التي تلزم الإنسان تجاه إخوانه؟

ج: **الحق الأول**: قضاء الحاجات والقيام بها، وذلك درجات: أدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، لكن مع البشاشة والاستبشار.

وأوسطها: القيام بالحوائج من غير سؤال.

وأعلاها: تقديم حوائجه على حوائج النفس.

وقد كان بعض السلف يتفقد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم.

الحق الثاني: على اللسان بالسكوت تارة، وبالنطق أخرى.

أما السكوت، فهوأن يسكت عن ذكر عيوبه في حضوره وغيبته، وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته، وعن السؤال عما يكره ظهوره من أحواله. ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربما لا يريد إعلامه بذلك، وأن يكتم سره ولوبعد القطيعة، ولا يقدح في أحبابه وأهله، ولا يبلغه قدح غيره فيه.

الحق الثالث: وينبغي أن يسكت عن كل ما يكرهه، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أن نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه في المعنى.

واعلم: أنك إن طلبت منزهًا عن كل عيب لم تجد، ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية.

وقال ابن المبارك: «**المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات**».

وقال الفضيل: «**الفتوة: الصفح عن زلات الإخوان**».

وينبغي أن تترك إساءة الظن بأخيك، وأن تحمل فعله على الحسن مهما أمكن، وقد قال النبي ﷺ: «**وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**» [أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣)].

واعلم: أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهي عنه، وأن ستر العيوب والتغافل عنها سمة أهل الدين.

واعلم: أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تنتظر من أخيك أن يستر عورتك، وأن يسكت عن مساويك، فلوظهر لك منه ضد ذلك اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟

ومتى التمست من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢-٣]. ومنشأ التقصير في ستر العورة والمغري بكشفها الحقد والحسد.

واعلم: أن من أشد الأسباب لإثارة الحقد والحسد بين الأخوان المماراة، ولا يبعث عليها إلا إظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن ماري أخاه، فقد نسبه إلى الجهل والحمق، أوإلى الغفل والسهوعن فهم الشيء على ما هوعليه، كل ذلك استحقار، وهويوغر الصدر ويوجب المعاداة، وهوضد الأخوة.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه، تقتضي النطق بالمحبوب، بل هوأخص بالأخوة، لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت صحب

أهل القبور، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم، لأن السكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، ويسأل عما عرض له، ويظهر شغل قلبه بسببه، ويبدي السرور بما يسر به.

وفي الصحيح من رواية الترمذي: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه**» [أخرجه الترمذي (٢٢٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٧٩)].

ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليك**».

ومن ذلك أن يثني عليه بما يعرفه من محاسن أحواله عند من يؤثر الثناء عنده، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وأفعاله، حتى في خلقه وعقله وهيئته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراط ولا كذب.

وكذلك ينبغي أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح به، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك، وأن تذب عنه في غيبته إذا قصد بسوء، فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

وفي الحديث الصحيح: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠)]. ومتى أهمل الذب عن عرضه يكون قد أسلمه، ولك في ذلك معياران:

أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه، قد قيل فيك وهو حاضر، فتقول ما تحب أن يقوله.

الثاني: أن تقدر أنه حاضر وراء جدار يتسمع عليك، فما تحرك في قلبك من نصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غيبته، ومن لم يكن مخلصًا في إخائه فهو منافق.

ومن ذلك التعليم والنصيحة، فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى

المال، وإذا كنت غنيًا بالعلم فواسه وأرشده.

وينبغي أن يكون نصحك إياه سرًا، والفرق بين التوبيخ والنصيحة الإعلان والإسرار، كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

ومن ذلك: العفوعن الزلات، فإن كانت زلته في دينه فتلطف في نصحه مهما أمكن، ولا تترك زجره ووعظه، فإن أبي فالمصارمة:

الحق الخامس: الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو به لنفسك.

وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قال: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**» [أخرجه مسلم (٢٧٣٢)].

وكان أبوالدرداء ﷺ يدعو لخلق كثير من إخوانه يسميهم بأسمائهم. وكان أحمد ابن حنبل ﷺ يدعو في السحر لستة نفر.

وأما الدعاء بعد الموت، فقال عمروبن حريث: «**إذا دعا العبد لأخيه الميت، أتى بها ملك قبره، فقال: يا صاحب القبر الغريب، هذه هدية من أخ عليك شفيق**».

الحق السادس: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه، وقد أكرم النبي ﷺ عجوزًا وقال: «**إنها كانت تغشانا في أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**».

ومن الوفاء أن لا يغر على أخيه في التواضع وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه.

واعلم: أنه ليس من الوفاء موافقة لأخ فيما يخالف الدين، فقد كان الشافعي ﷺ آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقربه ويقبل عليه، فلما احتضر قيل له: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهوعند رأسه ليومئ

إليه فقال: إلى أبي يعقوب البويطي، فانكسر لها محمد، ومع أن محمدًا كان قد حمل مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي ﷺ المسلمين وترك المداهنة، فانقلب ابن الحكم عن مذهبه، وصار من أصحاب مالك.

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يصادق عدوصديقه.

الحق السابع: التخفيف وترك التكلف والتكليف، وذلك أن لا يكلف أخاه ما يشق عليه، بل يروح سره عن مهماته وحاجاته، ولا يستمد من جاهه ولا ماله، ولا يكلفه التفقد لأحواله والقيام بحقوقه والتواضع له، بل يكون قصده بمحبته الله وحده، والتبرك بدعائه، والاستئناس بلقائه، والاستعانة على دينه، والتقرب إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه، وتمام التخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه.

قال جعفر بن محمد: «**أثقل إخواني علي من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي**».

وقال بعض الحكماء: من سقطت كلفته دامت ألفته، ومن تمام هذا الأمر أن ترى الفضل لإخوانك عليك، لا لنفسك عليهم، فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم.

س: وضح بعض آداب المعاشرة للخلق؟

ج: من آداب المعاشرة للخلق: أن تتوقر من غير كبر، وتتواضع في غير ذلة، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضى من غير ذل لهم ولا خوف منهم، وتتحفظ في مجالسك من تشبيك أصابعك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك، والتثاؤب.

واصغ إلى محدثك، ولا تسأله الإعادة، ولا تحدث بإعجابك بولدك وجاريتك، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيين، ولا تتبذل تبذل العبد.

وخوف أهلك في غير عنف، ولن لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك وعبد، فيسقط وقارك، ولا تكثر الالتفات إلى ورائك.

ولا تجالس السلطان، فإن فعلت فاحذر الذنوب والغيبة، وصن سره، واحذر المداعبة عنده، وتحفظ من الجشاء بحضرته والتخلل، وإن قربك فكن منه على حذر، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك، وارفق به رفقك بالصبي، وكلمه بما يشتهيه، ولا تدخل بينه وبين أهله وحشمه.

وإياك وصديق العافية، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلسًا فاجلس فيما هو أقرب للتواضع، ولا تجلس على الطريق، فإذا جلست فغض البصر، وانصر المظلوم، وأرشد الضال.

ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى.

واحذر مجالسة العوام، فإن فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء أخلاقهم وترك الخوض في حديثهم.

واحذر كثرة المزاح فإن اللبيب يحقد عليك في المزاح، والسفيه يجترئ عليك.

حقوق المسلم

س: اذكر حقوق المسلم على المسلم؟

ج: من حقوق المسلم: أن تسلم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وجميع هذا منقول في الآثار.

ومنها: أن لا تؤذي أحدًا من المسلمين بقول ولا فعل، وأن تتواضع للمسلمين، فلا تتكبر عليهم، ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض، ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض.

ومنها: أن لا تزيد في الهجرة على ثلاثة أيام لمن تعرفه، للحديث المشهور في ذلك

[أخرجه مسلم (٢٧٣٢)].

واعلم: أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بالدنيا، أما حق الدين، فإن هجران أهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي أن تدوم، ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق، إذا كان هجرانك لهم يؤثر فيهم، وتراعى المصالح والمفاسد في ذلك.

ومنها: أن يحسن إلى كل من يقدر أن يحسن إليه من المسلمين ما استطاع، وأن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه، ويستأذن ثلاثًا فإن لم يأذن انصرف.

ومنها: أن يخالق الناس بخلق حسن، وذلك أن يعامل كلًّا منهم بحسب طريقته، فإنه متى لقي الجاهل بالعلم، واللاهي بالفقه، والغبي بالبيان، أذى وتأذى.

ومنها: أن يوقر المشايخ، ويرحم الصبيان، وأن يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقًا، وأن يفي لهم بالوعد، وينصف الناس من نفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه.

قال الحسن: «**أوحى الله إلى آدم ﷺ كلمات، وقال: فيهن جماع الأمر لك ولولدك: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئًا. وأما التي لك: فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التي بيني وبينك: فعليك الدعاء وعلي الإجابة. وأما التي بينك وبين الناس: فتصحبهم بالذي تحب أن يصحبوك به**».

ومنها زيادة توقير ذوي الهيئات.

ومنها: إصلاح ذات البين، وستر عورات المسلمين.

واعلم: أنه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا اقتدى بلطفه، فإنه جعل الشهادة في الزنى أن يشهد أربعة من العدول أنهم شهدوا ذلك كالميل في المكحلة، وهذا لا يتفق، ومن هذا أثر كرمه في الدنيا يرجى منه ذلك في الآخرة.

ومنها: أن يتقي مواضع التهم، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به، وألسنتهم عن غيبته.

ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة، ويسعى في قضاء حوائجهم.

ومنها: أن يبدأ بالسلام كل مسلم قبل أن يكلمه، ومن السنة المصافحة.

ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين، ولا بأس بالمعانقة، وأما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء، فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت ﷺ، والقيام على سبيل الإكرام لأهل الفضل حسن، وأما الانحناء فمنهي عنه.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم نفسه وماله عن ظلم الغير، ويناضل دونه وينصره.

ومنها: أنه إذا ابتلي بذي شر، فينبغي أن يجامله ويتقيه، لحديث عائشة ﷺ أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة متى عهدتني فحاشا إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»**. [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٧٠٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٨٨٩)].

وقال محمد بن الحنفية: **«ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًا، حتى يجعل الله ﷻ له فرجًا»**.

ومنها: أن يجتنب مخالطة الأغنياء، ويختلط بالمساكين، ويحسن إلى الأيتام. ومنها: عيادة مرضاهم. ومنها: أن يشبع جنائزهم، ويزور قبورهم.

آداب عيادة المريض

س: اذكر بعض آداب عيادة المريض؟

ج: من آداب العائد: أن يضع يده على المريض، ويسأله كيف هو، ويخفف الجلوس، ويظهر الرقة، ويدعو له بالعافية، ويغض البصر عن عورات المكان. ويستحب للمريض أن يفعل ما أخرجه مسلم في أفراده، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «**ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**» [أخرجه مسلم (٢٢٠٢)].

س: وما الآداب التي يلزم المريض الأخذ بها؟

ج: جملة آداب المريض: حسن الصبر، وقلة الشكوى والتضجر، والفزع إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

آداب تشييع الجنائز

س: ما المقصود من تشيع الجنائز والتعزية؟

ج: المقصود من التشييع: قضاء حق المسلمين، والاعتبار.

قال الأعمش: «**كنا نحضر الجنائز، فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم**».

س: وما المقصود من زيارة القبور؟

ج: المقصود من زيارة القبور: الدعاء، والاعتبار، وترقيق القلب.

س: ما آداب تشييع الجنائز؟

ج: من آداب تشييع الجنائز: المشي، ولزوم الخشوع، وترك الحديث، وملاحظة الميت، والتفكير في الموت، والاستعداد له.

حقوق الجار

س: ما هي حقوق الجار؟

ج: الجوار يقتضي حقًا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة.

واعلم: أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى والرفق، وابتداء الخير، وأن يبدأ جاره بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ولا يطلع إلى داره، ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في طرح التراب في فنائه، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف من عوراته، ولا يتسمع عليه كلامه، ويغض طرفه عن حرمه، ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب.

حقوق الأقارب والأرحام

س: وما هي حقوق الأقارب وذوي الرحم؟

ج: في الحديث الصحيح، من رواية عائشة، أن النبي ﷺ قال: «**الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله**» [أخرجه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥)]. وفي حديث آخر من أفراد البخاري: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**» [أخرجه البخاري (٥٩٩١)].

وفي حديث آخر من أفراد مسلم أن رجلًا قال: يا رسول، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيؤون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، قال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**» [أخرجه مسلم (٢٥٥٨)]. والمعنى أنك منصور عليهم، وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة، كما ينقطع كلام من سف المل، وهو الرماد الحار. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في صلة الرحم، وفي حقوق الوالدين، وفي تأكد حق الأم.

حقوق الأولاد

س: وما هي حقوق الولد على والديه؟

ج: لما كانت الطباع تميل إلى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به، إلا أنه قد يغلب هوى الوالد للولد، فيترك تعليمه وتأديبه. وقد قال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]. قال المفسرون: معناه: علموهم وأدبوهم.

وينبغي للوالد أن يحسن اسم ابنه، ويعق عنه، فإذا بلغ سبع سنين أمره بالصلاة وختنه، فإذا بلغ زوجه.

حقوق المملوك

س: ما هي حقوق المملوك؟

ج: أما حقوق المملوك، فأن يطعمه، ويكسوه ولا يكلفه ما لا يطيق، ولا ينظر إليه بعين الازدراء، وأن يعفو عن زلله، وليتذكر الله عند زلل نفسه، فيعفو رجاء أن يعفو الله تعالى عنه.

العزلة والخلطة

س: أيهما أفضل العزلة أم الخلطة؟

ج: اختلف الناس في العزلة والمخالطة، أيتهما أفضل؟ مع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل، وأكثر الزهاد اختاروا العزلة.

وممن ذهب إلى اختيار العزلة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفضيل، وبشر الحافي، وآخرين.

وممن ذهب إلى استحباب المخالطة سعيد بن المسيب، وشريح، والشعبي، وابن المبارك وآخرين.

س: وما هي حجج القائلين بتفضيل العزلة على الخلطة والعكس؟

ج: لكل طائفة فيما ذهبت إليه حجج، ونحن نشير إلى ذلك.

أما حجة الأولين، فقد روي في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**» [أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨)].

وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ، قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟

قال: «**املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**» [أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧٣٢) والترمذي (٢٤٠٦)، وقال: هذا حديث حسن، ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٩٢)]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «**خذوا بحظكم من العزلة**». وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ: «**لوددت أن بيني وبين الناس بابًا من حديد، لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألقى الله سبحانه**».

وقال ابن مسعود ﷺ: «**كونوا ينابيع العلم، مصابيح الليل، أحلاس البيوت**

جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض».

وقال أبوالدرداء رضي الله عنه: «**نعم صومعة المرء المسلم بيته، يكف لسانه وفرجه وبصره، وإياكم ومجالس الأسواق، فإنها تلهي وتلغي**».

وقال داود الطائي: «**فر من الناس كما تفر من الأسد**».

وقال أبومهلهل: «**أخذ بيدي سفيان الثوري وأخرجني إلى الجبانة، فاعتزلنا ناحية، فبكى ثم قال: يا أبا مهلهل، إن استطعت أن لا تخالط في زمانك أحدًا فافعل، وليكن همك مرمة جهازك**».

وأما حجة من اختار المخالطة، فمن ذلك قول النبي ﷺ «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**» [[صحيح]: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٥١)]. واحتجوا بأشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ . [آل عمران: ١٠٥]، وهذا ضعيف، لأن المراد تفرق الآراء والمذاهب في أصل الشريعة، واحتجوا أيضًا بقوله ﷺ: «**لا هجرة بعد ثلاث**» [أخرجه مسلم (٢٥٦٢)]. قالوا: والعزلة هجر بالكلية، وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة.

س: ما هي فوائد العزلة؟

ج: **فوائد العزلة**: ست، **الفائدة الأولى**: الفراغ للعبادة، والاستئناس بمناجاة الله سبحانه، فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إلى ذلك خصوصًا في البداية. قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضي بهم الزهد والخلوة؟ قال: «**إلى الأنس بالله**». وقال أويس القرني رضي الله عنه: «**ما كنت أرى أن أحدًا يعرف ربه فيأنس بغيره**». واعلم: أن من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله، أوبدوام الفكر تحقيق معرفة الله، فالتجرد لذلك أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالبًا

بالمخالطة، وهي أربعة. أحدها: الغيبة، فإن عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها، فإن خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكًا، فإن المستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة إلى الغيبة، وربما خرجوا إلى الشتم. الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر، وفي العزلة سلامة من هذا.

الثالثة: الرياء، وهوالداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه، وأول ما في مخالطة الناس إظهار التشوق إليهم، ولا يخلوذلك عن الكذب، إما في الأصل، وإما في الزيادة، وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل: كيف أصبحت، وكيف أمسيت؟ كما قال بعضهم وقد قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا.

واعلم: أنه إذا كان سؤال السائل لأخيه: كيف أصبحت؟ لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة، كان تكلفًا ورياء، وربما سأله وفي القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله، وفي العزلة الخلاص عن هذا، لأنه من لقي الخلق ولم يخالقهم بأخلاقهم، مقتوه واستثقلوه واغتابوه، ويذهب دينهم فيه، ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم. الرابعة: مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلًا عن الغافلين، وذلك أنه قل أن يجالس الإنسان فاسقًا مدة، مع كونه منكرًا عليها في باطنه، إلا ولوقاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقًا في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هينًا على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، احتقر نفسه، واستصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة.

ومما يدل على سقوط وقع الشيء بسبب تكرره ومشاهدته، إن أكثر الناس إذا رأوا مسلمًا قد أفطر في رمضان، استعظموا ذلك، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لولبس الفقيه ثوبًا من حرير، أو خاتمًا من ذهب، لاشتد إنكار الناس لذلك، وقد يشاهدونه يغتاب، فلا يستعظمون ذلك، والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلسًا يذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين عن الخوض فيها، فإنه قلما تخلوالبلاد من العصبية والخصومات، والمعتزل عنهم سليم. وقد روي ابن عمر ﷺ، أن النبي ﷺ ذكر الفتن، ووصفها وقال: «**إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، فكانوا هكذا**» وشبك بين أصابعه، فقلت: ما تأمروني؟ فقال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع أمر العامة**» [حسن]: أخرجه أبو داود (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وأحمد (٦٩٤٨)، (٧٠٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٧٤٤)].

وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بالنميمة، ومرة بسوء الظن، ومرة بالتهمة،ومرة بالإطماع الكاذبة، ومن خالط الناس لم ينفك من حاسد وعدو، وغير ذلك من أنواع الشر التي يلقاها الإنسان من

معارفه، وفي العزلة خلاص من ذلك، كما قال بعضهم:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرون من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب متنسيب

وقال عمر رضي الله عنه: «**في العزلة راحة من خلطاء السوء**». وقال إبراهيم بن أدهم: «**لا تتعرف إلى من لا تعرف، وأنكر من تعرف**».

وقال رجل لأخيه: «**أصحبك إلى الحج؟ فقال: دعنا نعش في ستر الله، فإنا نخاف أن يرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه**».

وهذه فائدة أخرى في العزلة، وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وطمعك عنهم.

أما طمعهم، فإن رضاهم غاية لا تدرك، فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم وإملاكاتهم، وغير ذلك.

وقد قيل: من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم.

وأما انقطاع طمعك، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر المطامع فيتأذى.

وفي الحديث: «**انظروا إلى من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**» [أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة أخلاقهم، وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث، أن يغتابهم، فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم، فانجر الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامة من ذلك.

س: وما هي آفات العزلة ومضارها؟

ج: اعلم: أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة.

ومن فوائد المخالطة: التعلم والتعليم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستئناس والإيناس، ونيل الثواب في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع، واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال، والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها:

الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم، فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال الربيع بن خيثم: تفقه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام.

سئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: «**خبال ووبال، فقيل له: فالعالم؟ فقال: مالك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها**».

وأما التعليم، ففيه ثواب عظيم إذا صحت النية فيه، ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع، فهو هلاك الدين، وقد سبق ذلك في كتاب العلم، والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين، فيقتضي الدين الاعتزال عنهم، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالتعلم إليه، لم يجز الاعتزال عنه، ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، فإنه أشار بهذه إلى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله سبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف، فإنه لا يرد الراغب في الدنيا إلى الله تعالى، بل لا يزال صاحبه متماديًا في حرصه إلى آخر عمره.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع، أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطر إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل، إلا أن يقصد التصديق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والأنس به، عن كشف وبصيرة، لا عن أوهام وخيالات فاسدة. وأما النفع: فهو أن ينفع الناس، إما بماله أو ببدنه لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع، فهوأفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أوفكر، فذاك الذي لا يعدل به البتة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم، وكسر النفس، وقهر الشهوة، وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه.

وينبغي أن يفهم أن الرياضة لا تراد لنفسها كما لايراد ذلك من رياضة الدابة، بل المراد منها أن تتخذ مركبًا تقطع عليه المراحل، والبدن مطية يسلك بها طريق الآخرة، وفيها شهوات إن لم تكسر جمحت براكبها في الطريق، فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها، ولا يستفيد إلا الخلاص من عضها ورفسها، وهي لعمري فائدة، ولكن ليست معظم المقصود، قيل لراهبك يا راهب، فقال: لست براهب، إنما أنا كلب عقور، حبست نفسي حتى لا أعقر الناس، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر، لكن لا ينبغي أن يقتصر عليه. وأما التأديب: فهوأن يؤدب غيره، ويتطرق إليه من دقائق الآفات ما يتطرق إلى نشر العلم على ماذكر.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس، وقد يكون مستحبًا كالاستئناس بأهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في

أمور الدين.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته.

أما الأول: فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الإملاكات، والدعوات، ففيها ثواب من جهة إدخال السرور على المؤمن.

وأما الثاني: فهوأن يفتح بابه للناس ليعزوه أو يهنئوه أو يعودوه، فإنهم ينالون بذلك ثوابًا، وكذلك إن كان من العلماء فأذن لهم في زيارته.

ولكن ينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها، فيرجح العزلة أو المخالطة، وقد كان أكثر السلف يؤثرون العزلة عليها.

الفائدة السادسة: التواضع، ولا يقدر على ذلك في الوحدة، فقد يكون الكبر سببًا في اختياره العزلة، ويمنعه في المحافل التقصير في إكرامه وتقديمه، وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه، أونحو ذلك.

وعلامة من هذه صفته أن يحب أن يزار ولا يحب أن يزور، ويفرح بتقرب السلاطين والعوام إليه واجتماعهم على بابه، وتقبيل يده، فالعزلة بهذا السبب جهل، لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير.

فإذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقًا بالتفضيل نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله، وإلى الخليط وحاله، وعلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد، ويقاس الفائت بالحاصل، فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل.

فقد قال الشافعي ﷺ: «**الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة للسوء، فكن بين القبض والبسط**»، ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر، وإنما هوإخبار عن حاله، فلا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. فإن قيل: فما آداب العزلة؟

س: وما هي آداب العزلة؟

ج: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبدًا، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلواته مواظبًا على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته، وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبورًا على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغى إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة. وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدر أنه إذا أصبح لا يمسى، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

آداب السفر

س: ما تعريف السفر وما أنواعه؟

ج: السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب عنه، أوالوصول إلى مرغوب إليه.

والسفر سفران: سفر بظاهر البدن عن الوطن، وسفر بسير القلب عن أسفل سافلين إلى ملكوت السماوات، وهذا أشرف السفرين، فإن الواقف على الحالة التي نشا عليها عقيب الولادة، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء، لازم درجة القصور، قانع برتبة النقض، ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض السجن وضيق الحبس.

ولم أر في عيوب الناس شيئًا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير، اندرست مسالكه.

س: ما هي أقسام سفر البدن، وما آفاته وفوائده؟

ج: سفر البدن: أقسام، وله فوائد وآفات عظيمة، فإنه يضاهي النظر في العزلة والمخالطة، وقد ذكرنا منهاج ذلك.

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب أو طلب، فالهرب إما من أمر له نكاية في الأمور الدنيوية، كالطاعون إذا ظهر ببلد، أوكخوف فتنة وخصومة، أو غلاء سعر. وإما أمر له نكاية في الدين، كمن ابتلي في بلده بجاه أو مال أو اتساع أسباب، فصده عن التجرد لله تعالى، فيؤثر الغربة والخمول ويجتنب السعة والجاه، وكمن يدعى إلى بدعة أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوب، فهو إما دنيوي كالمال والجاه، أو ديني كالعلم بأمور دينه، أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه، وقل مذكور بالعلم محصل من زمان

الصحابة ﷺ إلى زماننا إلا وحصل العلم بالسفر وسافر لأجله.

وأما علمه بنفسه وأخلاقه، فذلك أيضًا مهم، فإن سلوك الآخرة لا يمكن إلا بتحسين الخلق وتهذيبه، وإنما سمي السفر سفرًا، لأنه يسفر عن الأخلاق.

وفي الجملة فالنفس في الوطن لا تظهر خبائث أخلاقهم لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة، فإذا حملت وعثاء السفر، وصرفت عن مألوفاتها المعتادة، وامتحنت بمشاق الغربة، وانكشفت غوائلها، ووقع الوقوف على عيوبها.

وأما آيات الله في أرضه، ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر: ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والقفار والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء إلا وهو شاهد لله بالوحدانية، ومسبح بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد.

وإنما نعني بالسمع: سمع الباطن، فبه يدرك نطق لسان الحال، وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية.

وقد ذكرنا أن من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق، لأن الدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله، ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية، ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها، وقد نجا المخففون وهلك المثقلون، والمخف الذي ليست الدنيا أكبر همه.

س: وماذا عن السفر المباح؟

ج: من أقسام السفر أن يكون مباحًا، كسفر التفرج والتنزه،فأما السياحة في الأرض لا لمقصود، ولا إلى مكان معروف، فإنه منهي عنه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «**ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين، ولأن السفر يشتت القلب**»، فلا ينبغي لطالب العلم أن يسافر إلا في طلب علم أومشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته.

س: وما آداب السفر؟

ج: للسفر آداب معروفة مذكورة في مناسك الحج وغيرها، من ذلك أن يبدأ برد المظالم، وقضاء الديون، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، ورد الودائع.

ومنها: أن يختار رفيقًا صالحًا، ويودع الأهل والأصدقاء.

ومنها: أن يصلي صلاة الاستخارة، وأن يكون سفره يوم الخميس بكرة.

ومنها: أن لا يمشي منفردًا، وأن يكون أكثر سيره بالليل، ولا يهمل الأذكار والأدعية، إذا وصل منزلًا أوعلا نشزًا أوهبط واديًا.

ومنها: أن يستصحب معه ما فيه مصلحتهن كالسواك، والمشط، والمرآة، والمكحلة، ونحو ذلك.

س: ما هي الأمور التي لا بد للمسافر منها في سفره؟

ج: ينبغي للمسافر أن يتزود للدنيا والآخرة، أما زاد الدنيا، فالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه.

ولا ينبغي أن يقول: أخرج متوكلًا فلا أحمل زادًا، فهذا جهل، فإن حمل الزاد لا يناقض التوكل.

وأما زاد الآخرة، فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته وصلاته وعبادته، وتعلم رخص السفر، كالقصر والجمع والفطر، ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم، والتنفل للماشي، وكل ذلك مذكور في كتب الفقه بشروطه.

ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد السفر، وهو علم القبلة والأوقات، فإن ذلك في السفر آكد من الحضر.

ويستدل على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرة على ما هو مبين في موضعه، ويعتبر الجبال بأن وجودها جميعها مستقبلة البيت.

وأما المجرة، فتكون أول الليل ممتدة على كتف المصلي اليسري إلى القبلة، ثم يلتوي

رأسها حتى تصير في آخر الليل على كتفه اليمنى، وتسمى المجرة: سرج السماء.

وأما معرفة أوقات الصلوات، فلابد منها، ووقت الظهر يدخل بزوال الشمس، فلينصب المسافر عودًا مستقيمًا، وليعلم علامات على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النقصان علم أنه لم يدخل وقت الظهر، فإذا أخذ في الزيادة علم أنه قد زالت الشمس ودخل الوقت، وهو أول وقت الظهر، وآخره إذا صار ظل كل شيء مثله، ثم يدخل أول وقت العصر، وآخره إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه.

وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تصفر الشمس، ثم يذهب وقت الاختيار، ويبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس، وباقي الأوقات معروفة.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

س: اذكر طرفًا من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي بعث الله به النبيين، ولو طوي بساطه، لاضمحلت الديانة، وظهر الفساد، وخربت البلاد.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث عليه؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين، لأنه قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾، ولم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، فإذا قام به من يكفي سقط عن الباقين، واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له. وفي القرآن العظيم آيات كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مثل القائم على**

حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها، مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصبنا خرقًا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا» [أخرجه البخاري وأحمد في مسنده، وهذا لفظ أحمد].

س: ما هي مراتب إنكار المنكر؟

ج: جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» [أخرجه مسلم (٤٩)].

وفي حديث آخر: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» [أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد في مسنده (١٠٧٥٩) وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٠)].

وقام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب**» [أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وأحمد في مسنده (١)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٤٢)].

س: ما هي أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ج: اعلم: أن أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة:

أحدها: أن يكون المنكر مكلفًا مسلمًا قادرًا، وهذا شرط لوجوب الإنكار. فإن الصبي المميز له إنكار المنكر، ويثاب على ذلك، لكن لا يجب عليه. وأما عدالة

المنكر، فاعتبرها قوم وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، وإنما استدلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وليس لهم في ذلك حجة.

واشترط قوم كون المنكر مأذونًا فيه من جهة الإمام أو الوالي، ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة، وهذا فاسد، لأن الآيات والأخبار عامة تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عنه عصى، فالتخصيص بإذن الإمام تحكم.

ومن العجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا: لا يجوز الأمر بالمعروف ما لم يخرج الإمام المعصوم، وهؤلاء أخس رتبة من أن يتكلموا، لكن جوابهم أن يقال لهم إذا جاؤوا إلى القاضي طالبين حقوقهم: نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهي عن المنكر، ولم يجيئ زمان ذلك لأن الإمام لم يخرج بعد. فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم، مع كونه حقًا، فينبغي أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من السلطان.

قلنا: أما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطان والعز، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة.

الركن الثاني: أن يكون ما فيه الحسبة منكرًا موجودًا في الحال ظاهرًا، فمعنى كونه منكرًا أن يكون محذور الوقوع في الشرع، والمنكر أعم من المعصية، إذ من رأى صبيًا أو مجنونًا يشرب الخمر، فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذلك لو رأى مجنونًا يزني بمجنونة أوبهيمة، فعليه أن يمنعه.

وقولنا: موجودًا في الحال، احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها، ونحو ذلك، فإن ذلك ليس إلى الآحاد، وفيه أيضًا احتراز عما سيوجد في ثاني الحال، كمن يعلم بقرينة حاله أنه عازم على الشرب الليلة، فلا حسبة عليه إلا بالوعظ.

وقولنا: ظاهرًا، احتراز ممن تستّر بالمعصية في داره وأغلق بابه، فإنه لا يجوز أن يتجسس عليه، إلا أن يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار، كأصوات المزامير

والعيدان، فلمن سمع ذلك أن يدخل ويكسر الملاهي، فإن فاحت رائحة الخمر، فالأظهر جواز الإنكار.

ويشترط في إنكار المنكر أن يكون معلومًا كونه منكرًا بغير اجتهاد، فكل ما هو في محل الاجتهاد، فلا حسبة فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله متروك التسمية، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر.

الركن الثالث: في المنكر عليه، ويكفي في صفته أن يكون إنسانًا، ولا يشترط كونه مكلفًا كما بينا قبله من أنه ينكر على الصبي والمجنون.

الركن الرابع: نفس الاحتساب، وله درجات وآداب.

س: ما هي مراتب الحسبة؟

ج: **الأولى**: التعريف

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف.

الثالثة: السب والتعنيف، ولسنا نعني بالسب الفاحشة، بل نقول له: يا جاهل يا أحمق، ألا تخاف من الله تعالى! ونحو ذلك.

والرابعة: المنع بالقهر، ككسر الملاهي وإراقة الخمر.

والخامسة: التخويف والتهديد بالضرب، أومباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هوعليه، فهذه المرتبة تحتاج إلى الإمام دون ما قبلها، لأنه ربما جر إلى فتنة.

واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض.

س: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟

ج: قلنا: أصل الولاية ثابت للكل، وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب:

فللوالد من ذلك الحسبة بالتعريف، ثم بالوعظ والنصح باللطف.

وله من الرتبة الخامسة: أن يكسر العود، وبريق الخمر، ونحو ذلك، وهذا الترتيب ينبغي أن يجري في العبد والزوجة.

وأما الرعية مع السلطان، فالأمر فيه أشد من الولد، فليس معه إلا التعريف والنصح.

ويشترط كون المنكر قادرًا على الإنكار، فأما العاجز، فليس عليه إنكار إلا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به خوف مكروه يناله، فذلك في معنى العجز.

س: ماذا لوعلم المنكر أن إنكاره لا ينفع؟

ج: إذا علم أن إنكاره لا ينفع، فينقسم إلى أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلم أن المنكر يزول بقوله أوفعله من غير مكروه يلحقه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يعلم أن كلامه لا ينفع وأنه إن تكلم ضرب، فيرتفع الوجوب عنه.

الحالة الثالثة: أن يعلم أن إنكاره لا يفيد، لكنه لا يخاف مكروهًا، فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يستحب لإظهار شعائر الإسلام والتذكير بالدين.

الحالة الرابعة: أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، مثل أن يكسر العود، ويريق الخمر، ويعلم أنه يضرب عقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مستحبًا لقوله في الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».

ولا خلاف أنه يجوز للمسلم الواحد أن يهجم على صفوف الكفار ويقاتل، وإن علم أنه يقتل، لكن إن علم أنه لا نكاية له في الكفار، كالأعمى يطرح نفسه على الصف حرم ذلك وكذلك لو رأى فاسقًا وحده وعنده قدح خمر وبيده سيف، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه، لم يجز له الإقدام على ذلك، لأن هذا لا يؤثر في الدين أثرًا يفديه بنفسه، وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر،

وظهر لفعله فائدة، كمن يحمل في صف الكفار ونحوه.

وإن علم المنكر أنه يضرب معه غيره من أصحابه، لم تجز له الحسبة، لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بإفضائه إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء. ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضيع إلا غلبة الظن، فمن غلب على ظنه أنه يصيبه مكروه، لم يجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنه أنه لا يصيبه وجب، ولا اعتبار بحالة الجبان، ولا بالشجاع المتهور، بل الاعتبار بالمعتدل الطبع، السليم المزاج. ونعني بالمكروه: الضرب أوالقتل، وكذلك نهب المال، والإشهار في البلد مع تسويد الوجه، فأما السب والشتم، فليس بعذر في السكوت، لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب.

س: ما هي درجات الاحتساب وما آدابه؟

ج: **الدرجة الأولى**: أن يعرف المنكر، فلا ينبغي له أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر، ولا أن يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار، ولا أن يستخبر جيرانه ليخبروه بما يجري، بل لوأخبره عدلان ابتداء أن فلانًا يشرب الخمر، فله إذ ذاك أن يدخل وينكر.

الدرجة الثانية: التعريف، فإن الجاهل يقدم على الشيء لا يظنه منكرًا، فإذا عرف أقلع عنه، فيجب تعريفه باللطف،فيقال له: إن الإنسان لا يولد عالمًا، ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علمنا العلماء، فلعل قريتك خالية من أهل العلم.

فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء.

ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر، واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فقد غسل الدم بالبول.

الدرجة الثالثة: النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله، ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد، ويحكي له سيرة السلف، ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، وهاهنا آفة عظيمة أن يتوقاها، وهو أن العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم، وذلك غيره بالجهل.

ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه، وهو غاية الجهل، ومذلة عظيمة، وغرور من الشيطان، ولذلك محك ومعيار، فينبغي أن يمتحن به المحتسب نفسه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه، أوباحتساب غيره عليه، أحب إليه من امتناعه عنه باحتسابه، فإن كانت الحسبة شاقة عليه، ثقيلة على نفسه، وهو يود أن يكفي بغيره، فليحتسب، فإن باعثه هو الدين، وإن كان الأمر بالعكس، فهو متبع هوى نفسه، متوسل إلى إظهار جاهه بواسطة إنكاره، فليتق الله وليحتسب أولًا على نفسه.

وقيل لداود الطائي: أرأيت رجلًا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط. قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه السيف، قيل: هو يقوى على ذلك، قال: أخاف عليه الداء الدفين: العجب.

الدرجة الرابعة: السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن، وإنما يعدل إلى هذا عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادئ الإصرار، والاستهزاء بالوعظ والنصح، ولسنا نعني بالسب: الفحش والكذب، بل نقول له: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ﷺ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الانبياء: ٦٧].

الدرجة الخامسة: التغيير باليد، ككسر الملاهي، وإراقة الخمر، وإخراجه من الدار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أدبان:

أحدهما: أن لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يكلفه الخروج عن الأرض المغصوبة، فلا ينبغي أن يجره ولا يدفعه.

والثاني: أن يكسر الملاهي كسرًا يبطل صلاحيتها للفساد، ولا يزيد على ذلك، ويتوقى في إراقة الخمور كسر الأواني إن وجد إليه سبيلًا، وإن لم يقدر إلا بأن يرمي ظروفها بحجر أونحوه، فله ذلك، وتسقط قيمة الظروف، ولوستر الخمر بيديه، فإنه يقصد يديه بالضرب ليتوصل إراقة الخمر، ولوكانت الخمر في قوارير ضيقة الرؤوس، بحيث أن إذا اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق فمنعوه، فله

كسرها، لأن عذر، وكذلك إن كان يضيع الزمان في صبها، وتتعطل أشغاله، فله كسرها ولولم يحذر من الفساق.

فإن قيل: فهلا يجوز الكسر زجرًا، وكذلك الجر بالرجل في الإخراج من الدار المغصوبة زجرًا؟

قلنا: إنما يجوز مثل ذلك للولاة، ولا يجوز لآحاد الرعية، لخفاء وجه الاجتهاد فيه.

الدرجة السادسة: التهديد والتخويف كقوله: دع عنك هذا وإلا فعلت بك كذا وكذا، وينبغي أن يقدم هذا على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه.

والأدب في هذه الرتبة أن لا يهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه، كقوله: لأنهبن دارك، ولأسبين زوجتك، لأنه إن قال ذلك عن عزم، فهوحرام، وإن قاله عن غير عزم، فهو كذب.

الدرجة السابعة: مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه إشهار سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف.

الدرجة الثامنة: أن لا يقدر على الإنكار بنفسه ويحتاج إلى أعوان يشهرون السلاح، فإنه ربما يستمد الفاسق أيضًا بأعوانه ويؤدي إلى القتال، فالصحيح أن ذلك يحتاج إلى إذن الإمام، لأنه إلى الفتن وهيجان الفساد.

وقيل: لا يشترط في ذلك إذن الإمام.

س: ما هي صفات المحتسب؟

ج: صفات المحتسب. **الأولى**: العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها، ليقتصر على حد الشرع. **والثانية**: الورع، فإنه قد يعلم شيئًا ولا يعمل به لغرض من الأغراض.

والثالثة: حسن الخلق، وهوأصل ليتمكن من الكف، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن.

قال بعض السلف: لا يأمر بالمعروف إلا رفيق فيما يأمر به، رفيق فيما ينهي عنه، حليم فيما يأمر به، حليم فيما ينهي عنه، فقيه يأمر به، فقيه فيما ينهى عنه.

ومن الآداب: تقليل العلائق، وقطع عن الخلق لتزول المداهنة، فقد حكي عن بعض السلف أنه كان له سنور، وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من قصاب في جواره شيئًا من الغدد، فرأى على القصاب منكرًا، فدخل الدار فأخرج السنور، ثم جاءه فأنكر على القصاب،فقال: لا أعطيك بعد هذا شيئًا لسنورك، فقال: ما أنكرت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك، وهذا صحيح، فإن لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر الإنكار عليهم.

أحدهما: من لطف ينالونه به.

والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأما الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمتعين، قال الله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: ٤٤].

وروي أن أبا الدرداء ﷺ مر على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه، فقال: «**أرأيتم لووجدتموه في قليب، ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم. فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه، فهو أخي**».

ومر فتى يجر ثوبه، فهم أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة، قال ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، قال: نعم ونعمى عين، فرفع إزاره، فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسن إلى عرس: «**فجيء بجام من فضة فيه خبيص، فتناوله وقلبه على**

رغيف، فأصاب منه، فقال رجل: هذا نبي في سكون».

س: اذكر بعض المنكرات التي ألفها الناس ليحذر منها؟

ج: من ذلك: منكرات المساجد: مما يشاهد كثيرًا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كل ما يقدح في صحة الصلاة، من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها، أو انحراف عن القبلة بسبب عمي أوظلام. ومن ذلك اللحن في القراءة.

واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل له من نافلة يقتصر عليها.

ومن ذلك: تراسيل المؤذنين وتطويلهم مد كلماته.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أوبيده سيف مذهب.

ومن ذلك: ما يجري من القصاص في المساجد من الكذب، والأشياء المنهي عنها، كالخوض في الكلام الموجب للفتن، ونحو ذلك.

ومن ذلك أن يكون الرجال مختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم.

ومنها: الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة، والتعويذات، وقيام السؤال، وإنشادهم الأشعار، ونحوهذا. فهذه منها ما هوحرام، ومنها ما هو مكروه.

منكرات الأسواق: ومن ذلك: الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة بعشرة، ورابح فيها درهمًا، وكان كاذبًا، فهوفاسق. ويجب على من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة للبائع، كان شريكًا له في الخيانة، وكذلك إذا علم العيب، لزمه أن يبينه للمشتري، وكذلك التفاوت في الميزان والذراع، يجب على كل من عرفه تغييره، إما بنفسه، أوبرفعه إلى الوالي حتى يغيره.

ومنها: الشروط الفاسدة، واستعمال الربا، وبيع الملاهي، والصور المجسمة، ونحو ذلك.

منكرات الشوارع: من ذلك بناء دكان متصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج

الأجنحة، وغرس الأشجار إذا كان ذلك يؤدي إلى تضييق الطريق والإضرار بالمارة. فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل إلى البيوت فجائز، فإن ذلك يشترك الكافة في الحاجة إليه.

ومن المنكرات: ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس، فيجب المنع من ذلك، إلا إذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب.

ومن ذلك: تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق، وكذلك طرح الكناسة على جواد الطريق، وتبديد قشور البطيخ، أورش الماء بحيث يخشى منه الزلق، والماء الذي يجتمع من ميزان معين. فأما ان كان من المطر، فذلك على الولاة، وليس للآحاد في ذلك إلا الوعظ.

منكرات الحمامات: من ذلك: صور الحيوانات على باب الحمام أوداخله، ويكفي في زوال ذلك أن تشوه وجوه الصور، بحيث يبطل به تصويرها. ومن لم يقدر على الإنكار، لم يجز له الدخول إلا للضرورة، وليعدل إلى حمام آخر.

ومن ذلك: كشف العورات، والنظر إليها، وكشف المدلك عن الفخذ، وما تحت السرة، لتنحيه الوسخ أومس العورة.

ومنها: غمس اليد والأواني النجسة في المياة القليلة، فإن فعل ذلك مالكي، لم ينكر عليه، بل يتلطف به، ويقول له: يمكنك أن لا تؤذيني بتفويت الطهارة علي.

منكرات الضيافة: من ذلك: فرش الحرير للرجال، والبخور في مجمرة فضة أوذهب، والشرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما، وكذلك تعليق الستور وفيها الصور، وسماع القينات والأوتار، وإطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم، فكل ذلك منكر يجب تغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأما الصور على النمارق والبسط، فليس بمنكر، وكذلك الفرش الحرير، والذهب للنساء، فإنه جائز، ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب، فإن ذلك جرح مؤلم لا يجوز، وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك، والاستئجار على ذلك غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومن ذلك أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته، فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه، وإن لم يتكلم المبتدع جاز الحضور مع إظهار الكراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مضحك بالفحش والكذب، لم يجز الحضور، ويجب الإنكار، فإن كان مزحًا لا كذب فيه ولا فحش، أبيح ما لم يقل من ذلك، فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه.

المنكرات العامة: من تيقن أن في السوق منكرًا يجري على الدوام، أو في وقت معين وهوقادر على تغييره، لم يجز له أن يسقط ذلك عنه بالقعود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قدر على تغيير البعض لزمه.

وحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يُعْلِمُ ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى إلى جيرانه وأهل محلته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى السواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأقرب، سقط عن الأبعد، وإلا خرج به كل قادر عليه.

س: وماذا عن أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟

ج: ذكرنا درجات الأمر بالمعروف، والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الأولان وهما: التعريف والوعظ، فأما تخشين القول، نحو: يا ظالم، يا من لا يخاف الله، فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها إلى الغير، لم يجز، وإن لم يخف إلا على نفسه، فهو جائز عند جمهور العلماء، والذي أراه المنع من ذلك، لأن المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر أكبر من المنكر الذي قصد إزالته، وذلك أن قرب السلاطين التعظيم، فإن سمعوا من آحاد الرعية: يا ظالم، يا فاسق، رأوا غاية الذل، لم يصبروا على ذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا تتعرض بالسلطان، فإن سيفه مسلول، فأما ما جرى من السلف من التعرض لأمرائهم، فإنهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب**».

س: اذكر بعض مواعظ السلف للخلفاء والأمراء؟

ج: دخل شيخ من الأزد على معاوية، فقال: «**اتق الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بُعدًا، ومن الآخرة إلا قربًا، وعلى إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن يلحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باق، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر**».

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثًا، فقال: «**ما ها هنا رجل ممن أدرك أصحاب** رسول الله ﷺ **يحدثنا**؟ فقيل له: ها هنا رجل يقال: أبوحازم، فبعث إليه، فجاء. فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبوحازم: وأي جفاء رأيت مني؟ فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟! فقال: ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال: صدق الشيخ، يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الله تعالى؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا.

فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبوحازم: اعرض نفسك على كتاب الله، فإنك تعلم ما لك عند الله. قال: يا أبا حازم، وأني أصيب تلك المعرفة من كتاب الله؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار ١٣-١٤].

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]. قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟ قال: من تعلم الحكمةوعلمها الناس. قال: فمن أحمق الناس؟ قال: سن حط نفسه في هوى رجل وهوظالم، فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمع الدعاء؟ قال: دعاء المخبتين. قال: فما أزكى الصدقة؟ قال: جهد المقل.

قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ قال: اعفني من هذا. قال سليمان: نصحية تلقيها. قال أبوحازم: إن ناسًا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟ فقال بعض جلسائهم: بئس ما قلت يا شيخ، فقال أبوحازم: كذبت، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك. قال: أعوذ بالله من ذلك. قال: ولم؟ قال: أخاف أن أركن إليكم شيئًا قليلًا، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات. قال: فأشر علي. قال: اتق الله أن يراك حيث نهاك، أويفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير. فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلى الخير بناصيته. فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثم قال: خذ هذا يا أبا حازم. قال: لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط، فقال أبوحازم: إنك نسيت الله فنسيتني. قال الزهري: أتشتمني؟ قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أن للجار على الجار حقًا؟ قال أبوحازم: إن بني اسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا ذلك العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم على المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولوكان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم. قال الزهري: كأنك إياي تريد وبي تعرض؟ قال: هو ما تسمع».

وحكي أن أعرابيًا دخل على سليمان بن عبد الملك، فقال: «**يا أمير المؤمنين، إني مكلمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب قبلته. قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوك دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم،**

خافوك في الله ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة، سلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعًا والأمة خسفًا، وأنت مسؤول عما اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان: أما أنت فقد سلك لسانك، وهوأقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك؟ قال: أما خاصة دون عامة فلا، ثم قام فخرج. فقال سليمان: لله دره ما أشرف أصله، وأجمع قلبه، وأذرب لسانه، وأصدق نيته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل».

وقيل: وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ لأبي حازم: «عظني. فقال: اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن».

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: «يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتى أتاهم الموت فاستوعبوهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا منها جنة، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلى تلك الأعمال التي نغبطهم بها فتخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها، فاتق الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ﷻ: إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

ودخل عطاء بن أبي رباح على هشام، فرحب به وقال: «ما حاجتك يا أبا محمد؟ وكان عنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فذكره عطاء بأرزاق أهل الحرمين وعطياتهم. فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاء أرزاقهم، ثم

قال: يا أبا محمد هل من حجة غيرها؟ فقال: نعم: فذكره بأهل الحجاز، وأهل نجد، وأهل الثغور، ففعل مثل ذلك، حتى ذَكَّرَه بأهل الذمة أن لا يكلفوا ما لا يطيقون، فأجابه إلى ذلك، ثم قال له في آخر ذلك: هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله في نفسك، فإنك خلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد. قال: فأكب هشام يبكي، وقام عطاء، فلما كان عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه، أدراهم أم دنانير؟ وقال: إن أمير المؤمنين قد أمر لك بهذا، فقال: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم خرج ولا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها».

وعن محمد بن علي قال: «إني لحاضر مجلس المنصور، وفيه ابن أبي ذئب، وكان والي المدينة الحسن بن زيد، فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر المنصور شيئًا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذئب. قال: فسأله عنهم، فقال: أشهد أنهم أهل الحطم في أعراض الناس. فقال أبو جعفر: قد سمعتم؟ فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين، فسله عن الحسن بن زيد. فسأله، فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق. فقال: قد سمعت يا حسن. قال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك. فقال: ما تقول في؟ قال: أو يعفيني أمير المؤمنين؟ فقال والله لتخبرني. فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه، وجعلته في غير أهله. فوضع يده في قفا ابن أبي ذئب، وجعل يقول له: أما والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذئب: قد ولي أبوبكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية، وأخذا بأقفاء فارس والروم، فخلاه أبوجعفر، وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك، فقال: والله يا أمير المؤمنين إني أنصح لك من ابنك المهدي».

وعن الأوزاعي ﵀ قال: بعث إلى المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت

إليه وسلمت عليه استجلسني، ثم قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما وال مات غاشًا لرعيته حرم الله عليه الجنة**» [أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (١٤٢)].

وقد قال عمر بن الخطاب: «**لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثم قال: فهي نصيحة، والسلام عليك**».

ولما حج الرشيد قيل له: يا أمير المؤمنين، قد حج شيبان. قال: اطلبوه لي، فأتوه به، فقال: يا شيبان، عظني، قال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل ألكن، لا أفصح بالعربية، فجئني بمن يفهم كلامي حتى أكلمه. فأتى برجل يفهم كلامه، فقال له بالنبطية: قل له: يا أمير المؤمنين، إن الذي يخوفك قبل أن تبلغ المأمن، أنصح لك من الذي يؤمنك قبل أن تبلغ الخوف، قال له: أي شيء تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل في الرعية، واقسم بالسوية، وانفذ في السرية، واتق الله في نفسك، هذا الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن أمنت، هذا أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت، قال: فبكي هارون حتى رحمه من حوله، ثم قال: زدني، قال: حسبك».

وعن علقمة بن أبي مرثد، قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي، فأمر لهما ببيت، فكانا فيها نحوًا من شهر، ثم دخل عليهما وجلس

معظمًا لهما، فقال: «إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجًا؟ فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير. فتكلم الشعبي، فانحط في أمر ابن هبيرة، كأنه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أيها الأمير، فقد قال الشعبي ما قد سمعت. فقال: ما تقول أنت؟ قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد ابن عبد الملك من الله تعالى.

يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة، اني أخوفك مقامًا خَوَّفَكَهُ الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [ابراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة، إن تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وَكَّلَكَ الله إليه. فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه».

ودخل محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ على بلال بن أبي بردة في يوم حار وبلال في حبشة،

وعنده الثلج، فقال له: «يا أبا عبد الله، كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإن فيهم شغلًا عن القدر. قال: ادع الله لي. قال: وما نصنع بدعائي؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون: إنك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي».

وهذه كانت سير العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين إيثارًا لإقامة حق الله تعالى على تقاهم، إلا أن السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض على مواعظ هؤلاء. والذي أراه الآن، الهرب من السلاطين، فهو الأولى، فإن قدر لقاء، اقتنع بلطف الموعظة وحسب.

ولذلك سببان:

أحدهما: يتعلق بالواعظ، وهوسوء قصده وميله إلى الدنيا والرياء، فلا يخلص له وعظه.

والثاني: يتعلق بالموعوظ، فإن حب الدنيا قد شغل الأكثرين عن ذكر الآخرة، وتعظيمهم الدنيا أنساهم تعظيم العلماء، وليس لمؤمن أن يذل نفسه.

حكم السماع

س: ما المقصود بالسماع وما حكمه؟

ج: السماع الذي نعني به الغناء من أكبر ما تطرق به إبليس إلى فساد القلوب، وغر به خلقًا لا يحصون من العلماء والزهاد، فضلًا عن العوام، حتى ادعوا حضور القلب مع الله عند سماع الأغاني المطربة، وظنوا أن ما أوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها، وجده يتعلق بالآخرة.

وإذا أردت أن تعرف الحق، فانظر في القرن الأول، هل فعل رسول الله ﷺ شيئًا

من ذلك أوأصحابه، ثم انظر إلى أقوال التابعين وتابعيم، وفقهاء الأمة، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد رحمهم الله، فكل القوم ذموا الغناء، حتى قال مالك: «**إذا شترى جارية، فوجدها مغنية، كان له ردها، وسئل عن الغناء، قال: إنما يفعله الفساق**».

وسئل الإمام أحمد عن رجل مات وخلف ولدًا وجارية مغنية، فاحتاج الصبي إلى بيعها، فقال: «**تباع على أنها ساذجة لا مغنية، فقيل له: إنها تساوي ثلاثين ألفًا إذا كانت مغنية، وإذا بيعت ساذجة ربما ساوت عشرين دينارًا، فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة. وقد أطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء**».

ومن المتأخرين أبوالطيب الطبري من كبار أصحاب الشافعي، وصنف كتابًا، وبالغ في النهي عنه، وإنما تعلق بإباحته قوم مفتونون، قالوا: قد أجازه قوم من السلف. وقد سمع أحمد بن حنبل قول قَوَّالٍ، فقال: لا بأس بهذا، فينبغي أن يتأمل الذي أفتى بجوازه ما هو، وليس إلا الأشعار الزهدية وما يشبهها، من غير ضرب بقضيب، أوآلة تطرب، ولا ضم إلى ذلك تصفيق ولا رقص.

وعلى هذا يحمل حديث عائشة في الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الأنصار يوم بعاث فإن ذلك لا يطرب [أخرجه البخاري (٩٥٢٣)، ومسلم (٨٩٢)].

ومعلوم أنه لم يكن للأوائل ما أحدثه الأواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق، فإن هذه الأشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج، فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقًا بالآخرة، وهيهات.

وليتهم قالوا: إن هذا مباح من اللهو فنستريح إليه، وإنما يظنونه قربة، ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجدًا، وربما أوجد الطرب ما لا يحل، من تمزيق الثياب، والتخبط، وكل هذا بمعزل عن طريق السلف، وغير خاف أنه ضلال عن الجادة، فلا ينبغي للانسان أن يغالط نفسه، وإنما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ، فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد، وشوق من الوعد،

وندم على التفريط، وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر، لا الجمز والتصفيق، ولم يضق علينا القرآن والوعظ وأشعار الزهد، حتى نحتاج في إحضار القلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سلمى وسعدي.

ومثل من أراد أن يأخذ منها للآخرة، كمثل من قال: أنا أنظر إلى الأمرد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر، فإنه قد أخطأ الطريق، لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه، فلذلك نمنعه ونقول: انظر إلى ما لا مكدر فيه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [ق: ٦]. ومن قالك إنه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من انجذاب الطبع إلى الهوى، كان مدعيًا ما يخالف الجبلة، فلا يتلفت إلى دعواه.

من أخلاق النبوة

س: اذكر طرفًا من آدب النبي ﷺ وأخلاقه؟

ج: سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: »كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه» [أخرجه مسلم (٧٤٦)] ولما كمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٥]، فسبحان من أعطى ثم أثنى.

- كان رسول الله ﷺ أحلم الناس، وأسخى الناس، وأعطف الناس.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله.

وكان أشد حياء من العذراء في خدرها.

وكان يجيب دعوة المملوك، ويعود المرضى، ويمشي وحده، ويردف خلفه، ويقبل الهدية، ويأكلها، ويكافئ عليها، ولا يأكل الصدقة، ولا يجد من الدقل ما يملأ بطنه، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام تباعًا.

وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع. وكان يأكل ما حضر، وما عاب طعامًا

قط. وكان لا يأكل متكئًا، ويأكل مما يليه. وكان احب الطعام إليه اللحم، ومن الشاة الكتف، ومن البقول الدباء، ومن الصبغ الخل، ومن التمر العجوة. وكان يلبس ما وجد، مرة برد حبرة، ومرة جبة صوف. ويركب تارة بعيرًا، وتارة بغلة، وتارة حمارًا، ويمشي مرة راجلًا حافيًا. وكان يحب الطيب، ويكره الريح الخبيثة. ويكرم أهل الفضل، ويتألف أهل الشرف. ولا يجفو على أحد، ويقبل معذرة المعتذر إليه. يمزح ولا يقول إلا حقًا، يضحك في غير قهقهة، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى، أوفيما لا بد منه من صلاح نفسه. وما لعن امرأة ولا خادمًا قط. وما رفب أدًا بيده قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله. وما انتقم لنفسه إلا أن تنهك حرمات الله. وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون مأثمًا أوقطيعة رحم، فيكون أبعد الناس منه. وقال أنس رضي الله عنه: «**خدمته عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته، ولا لشيء لم أفعله: لا فعلت كذا؟** ومن **صفته في التوراة: محمد رسول الله، عبدي المختار، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح**» [أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٠٩)]. وكان من خلقه أنه يبدأ بالسلام من لقيه، ومن فارقه بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف. وما أخذ أحد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ.

وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطًا بأصحابه كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأله عنه.

وكان طويل السكوت، فإذا تكلم لم يسرد كلامه، بل يتثبت فيه ويكرره ليفهم. وكان يعفومع القدرة، ولا يواجه أحدًا بما يكره. وكان أصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، ومن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان أصحابه إذا تكلموا في أمر الدنيا تحدث معهم، وكانوا يتذاكرون أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم. وكان أشجع الناس. قال بعض أصحابه: كنا إذا احمرت الحدق، واشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ، ولم يكن بالطويل البائن ولا

بالقصير، كان ربعةً من القوم.

وكان أزهر اللون ولم يكن بالآدم. وكان رجل الشعر، ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان شعره إلى شحمة أذنه. وكان واسع الجبهة، أزج الحواجب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، أقنى العرنين، سهل الخدين، كث اللحية، كأن عنقه جيد دمية، عريض الصدر، سواء البطن والصدر، رحب الراحة، طويل الزندين، كفه ألين من الحرير ﷺ.

س: اذكر طرفًا من معجزات النبي ﷺ؟

ج: أما معجزاته ﷺ: فإن من شاهد أحواله وسمع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن اشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفصحاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق عنده ريب في أن ذلك لم يكن محتسبًا بحيلة، وأنه لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تاييد سماوي وقوة إلهية، وإن ذلك لا يصح لملبس ولا كذاب، بل كانت مائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقة.

ومن أعظم معجزاته، وأوضح دلالته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، ومعجز كل نبي انقضى بذهابه، وهذا المعجز باق أبدًا.

ومن معجزاته انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير، ورميه بحصيات يسيرة فوصلت إلى أعين الخلق الكثير، وحنين الجذع إليه كما يحن العشار، وإخباره بالغائبات فكانت كما قال، ورد عين قتادة بيده فكانت أحسن عينيه، وتفل في عين علي رضي الله عنه وهوأرمد فصح من وقته، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها، نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته، إنه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين.

أحوال القلوب

س: وضح أهمية صلاح القلب وأثره على الجوارح؟

ج: إن أشرف ما في الانسان قلبه، فإنه العالم بالله، العامل له، الساعي إليه، وإنما الجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد.

ومن عرف قلبه عرف ربه، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم ونفوسهم، والله يحول بين المرء وقلبه، وحيلولته أن يمنعه من معرفته ومراقبته، فمعرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين.

مداخل إبليس

س: ما هي مداخل إبليس إلى القلب؟

ج: القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وربما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيها بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيتمكن، ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاسًا، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذكر الله خنس، وإذا وقعت الغفلة انبسط، ولا يطرد جند الشياطين من القلب إلا ذكر الله تعالى، فإنه لا قرار له مع الذكر.

والقلب كمثل الحصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن، ويملكه ويستولي عليه، ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة أبوابه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرفها، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد، وهي كثيرة، إلا أنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب

التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصًا على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان. وكذلك إذا كان حسودًا، فيجد الشيطان حنئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكرًا أو فاحشًا.

ومن أبوابه العظيمة: الغضب، والشهوة، والحدة، فإن الغضب غول العقل، وإذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالإنسان. وقد روي أن إبليس يقول: إذا كان العبد حديدًا، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة.

ومن أبوابه: حب التزيين في المنزل والثياب والأثاث، فلا يزال يدعو إلى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها، والتزين بالثياب، والأثاث، فيخسر الإنسان طول عمره في ذلك.

ومن أبوابه: الشبع، فإنه يقوي الشهوة ويشغل عن الطاعة. ومنها: الطمع في الناس، فإن من طمع في شخص، بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه، وداهنه، ولم يأمره بالمعروف، ولم ينهه عن المنكر. ومن أبوابه: العجلة، وترك التثبيت، ومن أبوابه: حب المال، ومتى تمكن من القلب أفسده، وحمله على طلب المال من غير وجهه، وأخرجه إلى البخل، وخوفه الفقر، فمنع الحقوق اللازمة. ومن أبوابه: حمل العوام على التعصب في المذاهب، دون العمل بمقتضاها. ومن أبوابه أيضًا: حمل العوام على التفكير في ذات الله تعالى، وفي أمور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين. ومن أبوابه: سوء الظن بالمسلمين، فإن من حكم على مسلم بسوء، احتقره وأطلق فيه لسانه، ورأى نفسه خيرًا منه، وإنما يترشح سوء الظن بخبث الظان، لأن المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن، والمنافق يبحث عن عيوبه. وينبغي للإنسان أن يحترز عن مواقف التهم، لئلا يساء به الظن، فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان، وعلاج هذه الآفات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة، وسيأتي

الكلام على هذه الصفات إن شاء الله تعالى مفصلًا . إذا قلعت من القلب أصول هذه الصفات، بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار، فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى، وعمارة القلب بالتقوى. ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك، فإن لم يكن بين يديك لحم وخبز، فإنه ينزجر بأن تقول له: اخسأ، وإن كان بين يديك شيء من ذلك وهوجائع، لم يندفع عنك بمجرد الكلام، فكذا القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر. فأما القلب الذي غلب عليه الهوى، فإنه يرفع الذكر إلى حواشيه، فلا يتمكن الذكر من سويدائه، فيستقر الشيطان في السويداء. وإذا أردت مصداق ذلك، فتأمل هذا في صلاتك، وانظر إلى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن، بذكر السوق، وحساب المعاملين، وتدبير أمر الدنيا.

واعلم: أنه قد عفي عن حديث النفس، ويدخل في ذلك ما هممت به، ومن ترك ذلك خوفًا من الله تعالى كتبت له حسنة، وإن تركه لعائق، رجونا له المسامحة، إلا أن يكون عزمًا، فإن العزم على الخطيئة خطيئة، بدليل قوله ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: ما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**» [أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)]. وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم، والأعمال بالنية، وهل الكبر والرياء والعجب إلا أمور باطنة؟ ولو أن إنسانًا رأى على فراشه أجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها، ولو رأى زوجته وظنها أجنبية أثم بوطئها، وكل هذا متعلق بعقد القلب.

ثبات القلوب على الخير

س: وضح أحوال القلوب من حيث التقلب والثبات؟

ج: قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على

دينك» [أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وأحمد في مسنده (٢٦٠٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٨٠١)]. «**اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» [أخرجه مسلم (٢٦٥٤)]. وفي حديث آخر: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح**» [[صحيح]: أخرجه أحمد (٢٧٨٥٩)، والروياني في «مسنده» (٥٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٢٢٧)].

واعلم: أن القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قلب عُمِرَ بالتقوى، وزكي بالرياضة، وطهر عن خبائث الأخلاق، فتنفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب، فيمده الملك بالهدى.

القلب الثاني: قلب مخذول، مشحون بالهوى، مندس بالخبائث، ملوث بالأخلاق الذميمة، فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه، ويضعف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدخان الهوى، فيعدم النور، ويصير كالعين الممتلئة بالدخان، لا يمكنها النظر، ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ.

والقلب الثالث: قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعوه إلى الشر، فيلحقه خاطر الإيمان، فيدعوه إلى الخير.

مثاله، أن يحمل الشيطان حملة على العقل، ويقوي داعي الهوى ويقول: أما ترى فلانًا وفلانًا كيف يطلقون أنفسهم في هواها، حتى يعد جماعة من العلماء، فتميل النفس إلى الشيطان، فيحمل الملك حمله على الشيطان، ويقول: هل هلك إلا من نسي العاقبة، فلا تغتر بغفلة الناس، أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك ببيت بارد، أكنت توافقهم أم تطلب المصلحة؟ أفتخالفهم في حر الشمس، ولا تخالفهم فيما يؤول إلى النار؟ فتميل النفس إلى قول الملك، ويقع التردد بين الجندين، إلى أن يغلب على القلب ما هو أولى به، فمن خلق للخير يسر له، ومن خلق للشر يسر له: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الانعام: ١٢٥]. اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه.

حسن الخلق

س: تحدث عن أهمية حسن الخلق؟

ج: الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وأن الأخلاق السيئة سموم قاتلة، تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان، وأمراض تفوت جاه الأبد، فينبغي أن تعرف العلل ثم التشمير في معالجتها، ونحن نشير إلى جمل من الأمراض، وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل.

واعلم: أن الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته، ولم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه، وكشف الحقيقة في ذلك أن يقال: كثيرًا ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق، فيقال: فلان حسن بالخلق والخلق. أي حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخلق: الصورة الظاهرة، والمراد بالخلق: الصورة الباطنة، وذلك أن الانسان مركب من جسد ونفس.

فالجسد مدرك بالبصر، والنفس مدركة بالبصيرة، ولكل واحدة منها هيئة وصورة إما جميلة أوقبيحة، والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصرة، ولذلك عظم الله ﷻ أمره فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح منسوب إليه ﷻ، فالخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلقًا حسنًا، وإن كانت قبيحة سميت خلقًا سيئًا.

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهرة.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا

معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعمل ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولوانقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان. أوشهوة الوقاع لانقطع النسل، ولوانعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب، ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقل: الفاقدين الغيظ.

وكذلك المطلوب في الشهوة الاعتدال دون الشره والتقلل، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الاعراف: ٣١] إلا أن الشيخ المعلم إذا رأى لمن أمامه ميلًا إلى الغضب والشهوة، حسن أن يبالغ في ذمها على الإطلاق ليرده إلى التوسط، ومما يدل على أن المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعًا، وهو وسط بين طرفي التقتير والتبذير وقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

واعلم أن هذا الاعتدال. تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخلق، فكم من صبي يخلق صادقًا سخيًا حليمًا، وتارة يحصل بالاكتساب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب، فمن أراد تحصيل حلق الجود، فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعًا له.

وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين، وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثرًا في ذلك، كما أن من أراد أن يكون كاتبًا تعاطي فعل

الكتابة، أوفقيهًا تعاطي فعل الفقهاء من التكرار، حتى ينعطف على قلبه صفة الفقه، إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أوثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة. وللدوام تأثير عظيم.

وكما لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعات، فإن دوامها يؤثر، وكذلك لا يستهان بقليل الذنوب. وكما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها، فكذلك مساكنة الكسل أيضًا يصير عادة، فيحرم بسببه كل خير.

وقد تكتسب الأخلاق الحسنة بمصاحبة أهل الخير، فإن الطبع لص يسرق الخير والشر.

قلت: ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» [أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٨٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «رياض الصالحين» برقم (٣٧١)].

الطريق إلى تهذيب الأخلاق

س: وما السبيل إلى تهذيب الأخلاق؟

ج: قد عرفت أن الاعتدال في الأخلاق هو الصحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فاعلم أن مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه، فكما أن البدن لا يخلق كاملًا، وإنما يكمل بالتربية بالغذاء، كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق، والتغذية بالعلم.

وكما أن البدن إذا كان صحيحًا، فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة، وإن كان مريضًا، فشأنه جلب الصحة إليه، كذلك النفس إذا كانت زكية طاهرة مهذبة الأخلاق، فينبغي أن يسعي بحفظها وجلب مزيد القوة إليها، وإن كانت عديمة الكمال، فينبغي أن يسعي بجلب ذلك إليه.

وكما أن العلة الموجبة لمرض البدن إلا بضدها، إن كانت من حرارة فبالبرودة وإن كانت من البرودة فبالحرارة، فكذلك الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع، ومرض الشره بالكف عن المشتهي.

وكما أنه لابد من احتمال مرارة الدواء، وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لابد من احتمال المجاهدة، والصبر على مداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت، ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت أبدًا.

وينبغي للذي يطب النفوس أن لا يهجم عليهم بالرياضة في فن مخصوص، حتى يعرف أخلاقهم وأمراضهم، إذ ليس علاج كل مريض واحدًا، فإذا رأى جاهلًا بالشرع علمه، وإذا رأى متكبرًا حمله على ما يوجب التواضع، أو شديد الغضب ألزمه الحلم.

وأشد حاجة الرائض لنفسه، قوة العزم، فمتى كان مترددًا بعد فلاحه، ومتى أحس من نفسه ضعف العزم تصبر، فإن نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود، كما قال رجل لنفسه: تتكلمين فيما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة؟

علامات مرض القلب وصحته

س: ما هي علامات مرض القلب؟

ج: اعلم: أن كل عضو خلق لفعل خاص، فعلامة مرضه أن يتعذر منه ذلك الفعل، أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد تعذر البطش، ومرض العين تعذر الإبصار، ومرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله، وهو العلم والحكمة والمعرفة، وحب الله تعالى وعبادته، وإيثار ذلك على كل شهوة.

فلو أن الإنسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه، كان كأنه لم يعرف شيئًا.

وعلامة المعرفة: الحب، فمن عرف الله أحبه، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه شيئًا من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئًا من المحبوبات فقلبه مريض، كما أن المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز - وقد سقطت عنها شهوة الخبز - مريضة. ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى، وإن وجد الصبر لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، والمرض قد استولى عليهم، والطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالًا، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات فهذه علامة أصل المرض.

وأما عافيته وعوده إلى الصحة بعد المعالجة، فهوأن ينظر إلى العلة، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف،ويصير إلى حد التبذير، فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة، فيكون داء أيضًا، بل المطلوب الاعتدال.

وإذا أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك المال وجمعه ألذ عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار البذل للمستحق ألذَّ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الامساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تتقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أوبذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليما في هذا المقام.

ويجب أن يكون سليمًا عن سائر الأخلاق،حتى لا تكون له علاقة بشيء من

الدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها، غير ملتفتة إليها، ولا متشوقة إلى أسبابها، فحينئذ ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة.

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض، بل هوأدق من الشعر، وأحد من السيف، فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة، ولأجل عسر الاستقامة أمر العبد أن يقول في كل يوم مرات: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، ومن لم يقدر على الاستقامة، فليجتهد على القرب من الاستقامة فإن النجاة بالعمل الصالح.

ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه، وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد، وليصبر ذوالعزم على مضض هذا الأمر، فإنه سيحلوكما يحلوالفطام للطفل بعد كراهته له، فلورد إلى الثدي لكرهه، ومن عرف قصر العمر بالنسبة إلى مدة حياة الآخرة. حمل مشقة سفر أيام لتنعم الأبد، فعند الصباح يحمد القوم السرى.

واعلم: أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرًا بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت له بصيرة، لم تخف عليه عيوبه، وإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الناس جاهلون بعيوبهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه.

س: كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه؟

ج: من أراد الوقوف على عيب نفسه، فله في ذلك أربع طرق:

الطريقة الأولى: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، يعرفه عيوب نفسه وطرق علاجها، وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده، فمن وقع به، فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي أن يفارقه.

الطريقة الثانية: أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا، وينصبه رقيبًا على نفسه لينبهه على المكروه من أخلاقه وأفعاله.

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «**رحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا**».

وسأل سلمان ﷺ لما قدم عليه من عيوبه، فقال: «**سمعت أنك جمعت بين إدامين على مائدة، وأن لك حلتين: حلة بالليل، وحلة بالنهار، فقال: هل بلغك غير هذا؟ قال: لا، قال: أما هذا فقد كفيتهما**».

وكان عمر ﷺ يسأل حذيفة: «**هل أنا من المنافقين؟**» وهذا لأن كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه، إلاأنه عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة، لأنه قل في الأصدقاء من يترك المداهنة، فيخبر بالعيب، أويترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب.

وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم، ونحن الآن في الغالب أبغض الناس إلينا من يعرفنا عيوبنا.

وهذا دليل على ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة كالعقارب، ولوأن منبهًا نبهنا على أن تحت ثوب أحدنا عقربًا لتقلدنا له منة، واشتغلنا بقتلها، والأخلاق الرديئة أعظم ضررًا من العقرب على ما لا يخفى.

الطريقة الثالثة: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه، فإن عين السخط تبدي المساوئ، وانتفاع الانسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه.

الطريقة الرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذمومًا فيما بينهم، يجتنبه.

شهوات النفوس

س: ما الحكمة من وجود شهوات النفوس؟

ج: شهوات النفوس لم توضع إلا لفائدة، إذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وإنما المذموم فضول الشهوات وطغيانها، وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تشتهيه النفس،

وهذا ظلم لها باسقاط حقها، فإن لها حقًا بدليل قوله ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقًا**» [[صحيح]: أخرجه البخاري (١٩٦٨)، من حديث أبي حجيفة ﷺ]. حتى إن قائلًا منهم يقول: لي كذا وكذا سنة أشتهي كذا، فلا أتناوله، وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله ﷺ، فإنه «**كان يتناول المشتهي من الحلو والعسل وغيرهما**» [[صحيح]: أخرجه البخاري (٥٥٩٩)، من حديث عائشة ﵂]. فلا يلتفت إلى زاهد قل علمه، فحرم نفسه حظها من المشتهى على الاطلاق، فإن إلى الظلم أقرب منه إلى العدل، وإنما يترك الشتهى إذا صعبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلا بوجه مكروه، أويخاف من تناوله انحلال عزمه، فتطمع النفس في استدامته، أويحذر من ذلك زيادة شبع، فيشغله عن عبادته، فأما تناوله في بعض الأوقات لتقوية النفس، فذلك كالطب للمريض، يمدح ولا يذم، ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك.

علامات حسن الخلق

س: ما هي علامات حسن الخلق؟

ج: ربما جاهد الإنسان نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي، ثم ظن أنه قد هذب خلقه، واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخلق هومجموع صفات المؤمنين، وقد وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٣-٤]، وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة، فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق، ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده.

وقد وصف رسول الله عليه وآله وسلم المؤمن بصفات كثيرة، وأشار بها إلى محاسن الأخلاق.

ففي الصحيحين» من حديث ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» [[صحيح]: أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)]. وفيهما أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ، عنه ﷺ أنه قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كن يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» [[صحيح]: أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧)].

ومن حسن الخلق: احتمال الأذى، ففي «الصحيحين» «**أن أعرابيًا جذب رداء النبي ﷺ حتى أثرت حاشيته في عاتقه ﷺ، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت اليه رسول الله ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء**» [أخرجه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧)]. وكان إذا آذاه قومه قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» [أخرجه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)]. وكان أويس القرني إذا رماه الصبيان بالحجارة يقول: «**يا إخوتاه، إن كان ولا بد، فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة**».

وخرج ابراهيم بن أدهم إلى بعض البراري فاستقبله جندي فقال: «**أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجه، فلما أخبر أنه ابراهيم، جعل يقبل يده ورجله، فقال: أنه لما ضرب رأسي، سألت الله له الجنة، لأني أعلم أني أؤجر بضربه إياي فلم أحب أن يكون نصيبي منه الخير، ونصيبه مني الشر**».

واجتاز بعضهم في سكة، فَطُرِح عليه رماد من السطح، فجعل أصحابه يتكلمون. فقال: من استحق النار فصولح على الرماد، ينبغي له أن لا يغضب. فهذه نفوس ذللت بالرياضة، فاعتدلت أخلاقهم، ونقيت عن الغش بواطنها، فأثمرت الرضى بالقضاء، ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء، فينبغي أن يداوم الرياضة ليصل، فإنه بعد ما وصل.

تنشئة الأبناء

س: وما السبيل لتنشئة الأبناء على محاسن الأخلاق؟

ج: الصبي أمانة عند والديه، وقلبه جوهرة ساذجة، وهي قابلة لكل نقش، فإن عود الخير نشأ عليه، وشاركه أبواه ومؤدبه في ثوابه، وإن عود الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم، ولا يحبب إليه أسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر.

بل ينبغي أن يراقبه من أول عمره، فلا يستعمل في رضاعه وحضانته إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا بدت فيه مخايل التمييز وأولها الحياء، وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ، فهذا يستعان على تأديبه بحيائه.

وأول ما يغلب عليه من الصفات شَرَهُ الطعام، فينبغي أن يعلم آداب الأكل، ويعوده على أكل الخبز وحده في بعض الأوقات لئلا يألف الإدام فيراه كالحتم، ويقبح عنده كثرة الأكل، بأن يشبه الكثير الأكل بالبهائم، ويحبب إليه الثياب البيض دون الملونَة والأبريسم، ويقرر عنده أن ذلك من شأن النساء والمخنثين، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم، ثم يشغله في المكتب بتعليم القرآن والحديث

وأحاديث الأخيار، ليغرس في قلبه حب الصالحين، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق.

ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود، فينبغي أن يكرم عليه، ويجازي بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال تغوفل عنه ولا يكاشف، فإن عاد عوتب سرًا وخوف من اطلاع الناس عليه، ولا يكثر عليه العتاب، لأن ذلك يهون عليه سماع الملامة، وليكن حافظًا هيبة الكلام معه.

وينبغي للأم أن تخوفه بالأب، وينبغي أن يمنع النوم نهارًا، فإنه يورث الكسل، ولا يمنع النوم ليلًا، ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب أعضاؤه.

ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل.

ويمنع أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه أبواه، أو بمطعمه أو ملبسه.

ويعود التواضع والإكرام لمن يعاشره، ويمنع أن يأخذ شيئًا من صبي مثله، ويعلم أن الأخذ دناءة، وأن الرفعة في الإعطاء، ويقبح عنده حب الذهب والفضة، ويعود أن لا يبصق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلًا على رجل، ويمنع من كثرة الكلام.

ويعود أن لا يتكلم إلا جوابًا، وأن يحسن الاستماع إذا تكلم غيره ممن هوأكبر منه، وأن يقوم لمن هوفوقه ويجلس بين يديه.

ويمنع من فحش الكلام، ومن مخالطة من يفعل ذلك، فإن أصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء.

ويحسن أن يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل، ليستريح به من تعب التأديب، كما قيل: روح القلوب تع الذكر.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه وتعظيمهم، وإذا بلغ سبع سنين أمر بالصلاة، ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود، ويخوف من الكذب والخيانة، وإذا

قارب البلوغ، ألقيت إليه الأمور.

واعلم: أن الأطعمة أدوية، والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى، وأن الدنيا لا بقاء لها، وأن الموت يقطع نعيمها، وهومنتظر في كل ساعة، وأن العاقل من تزود لآخرته، فإن كان نشوؤه صالحًا ثبت هذا قلبه، كما يثبت النقش في الحجر.

شهوة البطن

س: وماذا عن شهوة البطن وخطرها؟

ج: شهوة البطن من أعظم المهلكات، وبها أُخْرِجَ آدم ﷺ من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع.

وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**» [أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم]. وفي حديث آخر: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال عقبة الراسبي: «**دخلت على الحسن وهويتغذى، فقال: هلم، فقلت: أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله أويأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟!**» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)]. وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع، وقد بينا عيب ما سلكوا في غير هذا الكتاب، ومقام العدل في الأكل رفع اليدين مع بقاء شيء من الشهوة، ونهاية المقام قوله ﷺ: «**ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**».

فالأكل في مقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل مطاعمهم حتى قصروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك، ومن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التي ذكرناها. وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن أن من تعود استدامة الشبع، فينبغي له أن يقلل من مطعمه يسيرًا مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذي أشرنا إليه، وخير الأمور أوساطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سببًا لبقاءه القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفوالفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضًا أخر.

وليحذر من ترك شيئًا من الشهوات أن تتطرق إليه آفة الرياء، وقد كان بعضهم يشتري الشهوة ويعلقها في بيته وهوزاهد فيها، يستر بها زهده، وهذا هوالزهد، في الزهد بإظهار ضده، وهوعمل الصديقين، لأنه يجرع نفسه كأس الصبر مرتين، والثانية أمر.

شهوة الفرج

س: وماذا عن شهوة الفرج، ما أهميتها وما خطارها؟

ج: شهوة الوقاع سلطت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: بقاء النسل، والثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الآخرة، فإن ما لم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم إليه الشوق، إلا أنه إذا لم ترد هذه الشهوة إلى الاعتدال، جلبت آفات كثيرة، ومحنًا، ولولا ذلك ما كان النساء حبائل الشيطان.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت في الناس بعدي فتنة أضر على الرجال**

من **النساء**» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد في مسنده (١٦٧٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٧٤)].

وقال بعض الصالحين: لو ائتمنني رجل على بيت مال، لظننت أن أؤدي إليه الأمانة، ولو ائتمنني على زنجية أخلو بها ساعة واحدة، ما ائتمنت نفسي عليها. وعن النبي ﷺ قال: «**لا يخلورجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان**» [صحيح]: أخرجه الترمذي (١١٧١) كتاب الرضاع - باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن تستحي منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه، واللعب بالنرد، والشطرنج، والطنبور، ونحو ذلك، فتستولى هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها.

ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الأمور، فإن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجح، ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله، فما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه، مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ بذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين!!

آفات اللسان

س: تحدث عن آفات اللسان وخطرها، وما السبيل إلى التوقي منها؟

ج: آفاته كثيرة متنوعة، ولها في القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت.

س: وما فضيلة الصمت وأهميته؟

ج: اعلم: أن الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر، وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة**».

وفي حديث معاذ في آخره: «**كف عليك هذا**» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤخذون بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أوقال: على مناخرهم، ألا حصائد ألسنتهم؟**» [أخرجه البخاري (٦٤٧٤)].

وقال ابن مسعود: «**ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني**». وقال أبوالدرداء: «**أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر مما تتكلم به**». وقال مخلد بن الحسين: «**ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها**».

الكلام فيما لا يعني

س: اذكر ما ورد في ذم الكلام فيما لا يعني؟

ج: واعلم: أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفقه إلا في فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر. وفي الحديث الصحيح، أن النبي ﷺ قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» [أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وأحمد في مسنده (١٧٣٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٢٨١١)]. وقيل للقمان الحكيم: «**ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني**». وقد روي: «**أنه دخل على دواد عليه السلام وهويسرد درعًا، فجعل يتعج مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود**

ﷺ، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله».

الخوض في الباطل

س: فصل القول في آفة الخوض في الباطل؟

ج: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق.

وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب**» [أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)]. وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة للشخص لبيان غلطه وإفحامه، والباعث على ذلك الترفع. فينبغي للانسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إذا كان الأمر معلقًا بالدين، فأما إذا كان الأمر معلقًا بالدين، فأما إذا كان في أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**» [أخرجه البخاري (٧١٨٨)، ومسلم (٢٦٦٨)]. وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل أوبغير علم، فأما من له حق فالأولى أن يصدف عن الخصومة مهما أمكن لأنها، توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

التقعر في الكلام

س: اذكر بعض ما ورد في ذم التقعر في الكلام؟

ج: التقعر في الكلام، وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

وعن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة مساويكم أخلاقًا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٨٩)، والترمذي (٢٠١٨)، وقال: حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٣٥)]. ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأن المقصود من ذلك تحريك القلوب، وتشويقها، ورشاقة اللفظ ونحو ذلك.

الفحش والسب

س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الفحش والسب؟

ج: الفحش والسب والبذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم.

وفي الحديث: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» [أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٢٩) والترمذي (١٩٧٧)، وقال: حديث حسن،، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٨١)]. واعلم: أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها.

ومن الآفات: الغناء وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع.

المزاح

س: فصل القول في أحكام المزاح ما يجوز منه وما يحرم؟

ج: المزاح، أما اليسير منه، فلا ينهى عنه إذا كان صدقًا.

فإن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، فإنه قال لرجل: «**يا ذا الأذنين**» [أخرجه أحمد في مسنده (١١٧٥٤) أخرجه أبو داود (٥٠٠٢)، والترمذي (١٩٩٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٠٩)]. وقال لآخر: «**إنا حاملوك على ولد الناقة**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٠٥) وأبوداود (٤٩٩٨)، والترمذي (١٩٩١)، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١٢٨)]. وقال للعجوز: «**إنه لا يدخل الجنة عجوز، ثم قرأ**: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٦]»، وقال لأخرى: «**زوجك الذي في عينيه بياض؟**». فقد اتفق في مزاحه ﷺ ثلاثة أشياء:

أحدها: كونه حقًا.

والثاني: كونه مع النساء والصبيان، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال.

والثالث: كونه نادرًا، فلا ينبغي أن يحتج به من يريد الدوام عليه، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم، ولوأن انسانًا دارًا مع الحبشة ليلًا ونهارًا ينظر إلى لعبهم واحتج بأن النبي ﷺ وقف لعائشة وأذن لها أن تنظر إلى الحبشة، لكان غالطًا، لندور ذلك، فالافراط في المزاحد والمداومة عليه منهي عنه، لأنه يسقط الوقار، ويوجب الضغائن والأحقاد، وأما اليسير كما تقدم، من نحونوع مزاح النبي ﷺ، فإن فيه انبساطًا وطيب نفس.

السخرية والاستهزاء

س: ما المقصود بالسخرية والاستهزاء، وما حكمها؟

ج: ومعنى السخرية: الاحتقار والاستهانة، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالاشارة والإيماء، وكله ممنوع منه في الشرع، ورد النهي عنه في الكتاب والسنة.

إفشاء السر والكذب

س: فصل القول في أحكام الكذب وما حكم المعاريض؟

ج: افشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهي عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، وفي الحرب، فإن ذلك يباح [[صحيح]: أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)].

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود مباحًا، وإن كان المقصود واجبًا، فهو واجب، فينبغي أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.

وتباح **المعاريض**، لقوله ﷺ: «**إن في المعاريض مندوحة عن الكذب**» [أخرجه هناد ابن السري في «الزهد» (١٣٧٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨٥٧)، (٨٨٥)، عن عمران بن الحصين رضي الله عنه موقوفًا، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٥٧)]. وإنما تصلح المعاريض عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعاريض ما روي بإسناد فيه ضعف عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه أصاب جارية له، فعلمت امرأته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت:

أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئًا، قالت، لتقرأن القرآن أولأبعجنك بها، فقال رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمي فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري.

وكان النخعي إذا طلب قال للجارية: قولي لهم: اطلبوه في المسجد.

الغيبة

س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الغيبة؟

ج: الغيبة، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها، وشبه صاحبها بآكل الميتة.

وفي الحديث: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**» [[صحيح]: أخرجه البخاري (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة والمحاربين - باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، من حديث أبي بكرة].

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراته، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**» [[صحيح]: أخرجه أحمد (١٩٢٢٧)، (١٩٣٠٢) وأبوداود (٤٨٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٩٨٤)].

وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: «**إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس**». والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة مشهورة.

س: ما معنى الغيبة؟

ج: **معنى الغيبة**: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصًا في بدنه، كالعمش، والعور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

أوفي نسبه، كقولك: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك.

أوفي خلقه كقولك، هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك.

أوفي ثوبه، كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك، أن النبي ﷺ سئل عن **الغيبة** قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**». قال: أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله؟ قال: «**إن كان في أخاك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٩)].

واعلم: أن كل ما يفهم منه مقصود الذم، **فهو داخل في الغيبة**، سواء كان بكلام أوبغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

س: وما هي أقبح أنواع الغيبة؟

ج: أقبح أنواع **الغيبة**، غيبة المتزهدين المرائين، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أونسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بلي بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يظهر الدعاء ويخفي قصده.

س: وما حكم سماع الغيبة؟

ج: أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف، فبقلبه وإن قدر على القيام، أوقطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.

ورآى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر، فقال: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، إنما نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها.

س: وضح الأسباب الباعثة على الغيبة؟

ج: أما الأسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة.

منها: تشفي الغيظ، بأن يجري من إنسان في حق آخر سبب يوجب غيظه، فكلما هاج غضبه تشفي بغيبة صاحبه.

السبب الثاني: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون في الأعراض، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أوقطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشر.

الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك.

الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا.

س: لو فصلت القول في علاج الغيبة؟

ج: ليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه، ويشتغل بإصلاحها،

ويستحي أن يعيب وهومعيب، كما قال بعضهم:

فإن عبت قومًا بالذي فيك مثله فكيف يعيب الناس من هوأعور

وإن عبت قومًا بالذي ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهوالغيبة، وكما لا يرضي لنفسه بغيبة غيره له، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه.

فمن نظر في السبب الباعث على الغيبة، فاليجتهد على قطعة، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وقد ذكرنا بعض أسبابها، فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب، ويعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضي المخلوقين بسخطه، بل ينبغي أن يغضب على رفقائه، وعلى نحو هذا معالجة البواقي.

س: وهل تكون الغيبة بالقلب؟

ج: قد تحصل الغيبة بالقلب، ومن ذلك سوء الظن بالمسلمين، والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شرًا، إلا إذا انكشف أمر لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذورًا، لأنك لوكذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئة بآخر، بل ينبغي أن تبحث، هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعوله بالخير، فإن ذلك يغبط الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقي إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة مسلم، فانصحه في السر.

واعلم: أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهي عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو

لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

س: ما هي الأعذار المرخصة في الغيبة؟

ج: من الأمور المرخصة في الغيبة:

أحدها: الظلم، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفي حقه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمفتي: ظلمني فلان، أوأخذ حقي، فكيف طريقي في الخلاص، فالتعيين مباح، والأولى التعريض، وهوأن يقول: ما تقول في رجل ظلمه أبوه أوأخوه ونحو ذلك؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت: **«إن أبا سفيان رجل شحيح»** [أخرجه البخاري (٧١٨٠)، ومسلم (١٧١٤)]. ولم ينكر عليها النبي ﷺ.

الأمر الرابع: تحذير المسلمين، مثل أن ترى متفقهًا يتردد إلى مبتدع أوفاسق، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك، فلك أن تكشف له الحال.

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أوالفسق، فتذكر ذلك للمشتري. وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة، له أن يذكرما يعرفه على قصد النصح للمستشير، لا على قصد الوقيعة، إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح.

الخامس: أن يكون معروفًا بلقب، كالأعرج، والأعمش، فلا إثم على من يذكره به، وإن وجد عن ذلك معدلًا كان أولى.

السادس: أن يكون مجاهرًا بالفسق، ولا يستنكف أن يذكر به.

وقيل للحسن: الفاجر المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة قال: **«لا، ولا كرامة»**.

س: وما كفارة الغيبة؟

ج: المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: على حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: على محارم المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.

وقد روي أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال أوعرض، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه**» [أخرجه البخاري (٢٤٤٩)].

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

وقال مجاهد: «**كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعوله بخير، وكذلك إن كان قد مات**».

النميمة

س: وما خطر النميمة؟

ج: في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قتات**» [أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)] وهوالنمام.

واعلم: أن النميمة تطلق في الغالب على نقل قول إنسان في إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أوالأعمال، حتى لورآه يدفن مالًا لنفسه فذكره، فهونميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢].

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه، فلا يحكي نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: «**بلغني أنك وقعت في، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: أن الذي أخبرني صادق، فقال الرجل: لا يكون النمام صادقًا، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام**».

وقال يحيى بن أبي كثير: «**يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر**».

وقد حكي أن رجلًا ساوم بعبد، فقال مولاه: «**إني أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت بريء منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه: إن امرأتك تبغي وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك، فلا يتزوج ولا يتسرى، فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه إذا نام، وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت. قال: فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه، فأخذ بيدها فقتلها، بجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه**».

ذي اللسانين

س: اذكر بعض ما ورد في ذم ذي اللسانين؟

ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم

كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

وفي الحديث: «**إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه**» [أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥)].

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز.

قال أبو الدرداء ﷺ: «**إنا لنكشر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم، ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجز له**».

س: ما آفات المدح؟

ج: للمدح آفات منها: ما يتعلق بالمادح، ومنها: ما يتعلق بالممدوح. فأما آفات المادح، فقد يقول مالا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح من ينبغي أن يذم.

وقال الحسن: «**من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله**».

وأما الممدوح، فإنه يحدث فيه كبرًا أوإعجابًا، وهما مهلكان، ولهذا قال النبي ﷺ لما سمع رجلًا يمدح رجلًا: «**ويلك، قطعت عنق صاحبك**» [أخرجه البخاري (٦١٦٢)]. الحديث وهومشهور.

وقد روينا عن الحسن قال: «**كان عمر ﷺ قاعدًا ومعه الدرة والناس حوله، إذ أقبل الجارود، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ﷺ ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: مالي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: مالي ولك، أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك، ولأن الانسان إذا أثني عليه بالخير رضي عنه نفسه، وظن أنه قد بلغ المقصود، فيفتر عن العمل، ولهذا قال: قطعت عنق صاحبك**».

فأما إذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس، فقد أثنى النبي ﷺ وآله وسلم علي أبي بكر وعمر ﷺ وغيرهما من الصحابة ﷺ.

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل، ولا ينجون هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لوعرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

وقد روي: «**أن رجلًا من الصالحين أثنى عليه، فقال: اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني**».

الآفة الثانية عشرة: الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين

لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أوفصاحة، لم يخل كلامه عن الزلل، لكن يعفوالله عنه لجهله.

مثال ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقل أحدكم: ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل، ما شاء الله ثم شئت**» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨٧٢)، أبو داود (٤٩٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»]. وذلك لأن في العطف المطلق تشريكًا وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: «**ومن يعصمها فقد غوى**» وقال «**قل: ومن يعص الله ورسوله**» [أخرجه مسلم (٨٧٠)].

وقال ﷺ: «**لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل، غلامي وجاريتي**».

وقال النخعي: «**إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرأيتني خلقته حمارًا، أو أرأيتني خلقته خنزيرًا**».

فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه في آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ: «**من صمت نجا**» [أخرجه أحمد في مسنده (٦٤٤٥)، والدارمي (٢٧١٣)، والترمذي (٢٥٠١)، وقال: حديث غريب، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٦٧)]. لأن هذه الآفات مهالك وهي على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

الغضب

س: وماذا عن الغضب وخطره؟

ج: الغضب شعلة من النار، والانسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فإن شأن الطين السكون والوقار، وشأن النار التلظي والاشتغال، والحركة والاضطراب. ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي ﷺ للرجل الذي قال له: أوصني قال: «**لا تغضب**»، فردد عليه مرارًا، قال: «**لا تغضب**» [أخرجه البخاري (٦١١٦)].

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**» [أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)].

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] قال: «**السيد الذي يملك نفسه عند الغضب ولا يغلبه غضبه**».

وروي: «**أن ذا القرنين لقي ملكًا من الملائكة فقال: علمني علمًا أزداد به إيمانًا ويقينًا، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فرد الغضب بالكظم، وسكنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلًا لينًا للقريب والبعيد، ولا تكن جبارًا عنيدًا**».

وروي: «**أن إبليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام، فقال يا موسى: إياك والحدة، فإني ألعب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة، وإياك والنساء، فإني لم أنصب فخًا قط أثبت في نفسي من فخ أنصبه بامرأة، وإياك والشح، فإني أفسد على الشحيح الدنيا والآخرة**». وكان يقال: اتقوا الغضب، فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر

ومن آثار الغضب في الظاهر، تغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطي فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

س: وما الأسباب المهيجة للغضب؟

ج: من الأسباب المهيجة للغضب: العجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهذه أخلاق رديئة مذمومة شرعًا، فينبغي أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

س: وما علاج الغضب؟

ج: من الأمور التي تعالج الغضب:

أحدها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال، كما جاء في البخاري من حديث ابن عباس ﷺ: «**أن رجلًا استأذن على عمر ﷺ، فأذن له، فقال له: يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر ﷺ، حتى هن أن يوقع به. فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ قال لنبيه ﷺ:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] **وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر ﷺ حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله ﷻ**» [أخرجه البخاري (٤٦٤٢)].

الثاني: أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى، وهوأن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان، فلوأمضيت فيه غضبي، لم آمن أن يمضي الله ﷻ غضبه علي يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو. وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا ابن آدم! اذكرني عند الغضب، أذكرك حين أغضب، ولا أمحقك فيمن أمحق.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه، والشماته بمصائبه، فإن الانسان لا يخلوعن المصائب، فيخوف نفسه ذلك في الدنيا إن لم يخف من الآخرة، وهذا هوتسليط شهوة على غضب، ولا ثواب عليه، لأنه تقديم لبعض الحظوظ على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتغير عليه أمر يعينه على الأخرة، فيثاب على ذلك.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم، وأنه يشبه حينئذ الكلب الضاري، والسبع العادي، وأنه يكون مجانبًا لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم، لتميل نفسه إلى الاقتداء بهم.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إن هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصبر حقيرًا في أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أنت تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين.

وينبغي أن يكظم غيظه، فذلك يعظمه عند الله تعالى، فماله وللناس؟ أفلا يحب أن يكون هو القائم يوم القيامة إذا نودي: ليقم من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا، فهذا وأمثاله ينبغي أن يقرره على قلبه.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وف مراد الله تعالى، لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى، هذا ما يتعلق بالقلب. وأما العمل، فينبغي له السكون، والتعوذ، وتغيير الحال، وإن كان قائمًا جلس، وإن كان جالسًا اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضًا عند الغضب، فهذه الأمور وردت في الأحاديث.

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض

التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل، ويمكن أن يكون ليتواضع بذله.

كظم الغيظ

س: اذكر فضيلة كظم الغيظ؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فذكر ذلك في معرض المدح. وعن رسول الله ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢١٠)، وأبوداود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١٨٦)،، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٥٢٢)].

الحلم

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل الحلم؟

ج: روى أبو هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم**» [أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم»، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٤٢)].

وقال ﷺ لأشج بن قيس: «**إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**» [أخرجه مسلم (١٨)].

وشتم رجل ابن عباس ﷺ، فلما قضى مقالته، فقال: «**يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيي**».

وأسمع رجل معاوية كلامًا شديدًا، فقيل له: لوعاقبته؟ فقال: «**إني لأستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي**».

وقسم معاوية: «**نطعًا، فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل**

عليه يمينًا أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره، فقال له معاوية: أوف بنذرك وارفق بالشيخ». وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: «من كسر رجل هذه؟ قال: قال: أنا فعلته عمدًا لأغيظك، فتضربني، فتأثم. فقال: لأغيظن من حرضك على غيظي، فأعتقه».

وشتم رجل عدي بن حاتم وهوساكت، فلما فرغ من مقالته قال: «إن كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا».

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟ فقال عمر: «لا، فهم به الحرس، فقال عمر: مه، إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا».

ولقي رجل علي بن الحسين ﷺ، فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: «مهلًا، ثم أقبل على الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحى الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد إنك من أولاد الرسول».

وقال رجل لوهب بن منبه: إن فلانًا شتمك، فقال: «ما وجد الشيطان بريدًا غيرك».

العفو

س: ما هو تعريف العفو؟

ج: معنى العفوأن تستحق حقًا فتسقطه، وتؤدي عنه من قصاص أوغرامة، وهو غير الحلم والكظم، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل العفو؟

ج: ورد في فضل العفو أحاديث منها: أن النبي ﷺ، قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٨)].

الرفق

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرفق؟

ج: عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف**» [أخرجه مسلم (٢٥٩٣)].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله ﷻ يحب الرفق في الأمر كله**» [أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥)].

وفي حديث آخر «**من يحرم الرفق يحرم الخير**» [أخرجه مسلم (٢٥٩٢)].

الحقد والحسد

س: وما هو الحقد؟

ج: الغيظ إذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقدًا.

وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

س: لوذكرت بعض الأحاديث والآثار في ذم الحسد؟

ج: عن الزبير بن العوام ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم**

قبلكم الحسد والبغضاء» [أخرجه أحمد (١٤١٥)، (١٤٣٣) والترمذي (٢٥١٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٦١)].

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، كونوا عباد الله إخوانًا**» [أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٦٤)].

وفي حديث آخر أنه قال: «**يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل، فسئل عن عمله، فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه**».

وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: «**الحاسد عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي بين عبادي**».

وقال ابن سيرين: «**ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار**».

س: وما الفرق بين الحسد والغبطة؟

ج: إذا أنعم الله تعالى على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هوالحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا حب زوالها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

اعلم: أن النفس قد جبلت على حب الرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي، وهذا أمر مركوز في الطباع.

س: ما هي أسباب الحسد؟

ج: **الحسد** له أسباب: أحدها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة،

وخبث النفس، وبخلها، وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءة ذلك، الحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنسانًا فيستوي عنده مسرته ومساءته، فهذا غير ممكن.

وأما الكبر، فهوأن يصيب بعض نظرائه مالًا أوولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته.

وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريبًا من ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الإنعام: ٥٣] وقال في آية أخرى: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] وقال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك واحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أوشجاعة، أوعبادة، أوصناعة، أوثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي ﷺ، ولا يؤمنون خوفًا من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد اله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص

عيشهم، فرح به، فهوأبدًا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عبادة، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: «**البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره**»، فهذا يبخل بنعمة الله على عبادة الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد.

س: وما أسباب كثرة الحسد؟

ج: يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها وهي: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس، وبخلها، ويقع ذلك غالبًا بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العم، لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف، ولا يحسد البزاز إلا أن يكون سبب آخر، لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين، إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من اشتد حرصه على الجاه، فإنه يسحد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملكوت أرضه وسماءه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرف ألف ألف عالم، ويفرح بمعرفته غيره، فلذلك لا

يكون بين علماء الدين محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهوبحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعه ولا مزاحمة. ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا.

والفرق بين العلم والمال، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، صار ذلك عند ألذ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعًا عنه ولا مزاحمًا فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لوعرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل.

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الابصار، فعليك إن كنت شفيقًا على نفسك أن تطلب نعيمًا لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضًا، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فلست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الوضق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي من المحرومين.

س: وما علاج الحسد؟

ج: علاج الحسد، تارة يكون بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلًا، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

فأما من يحسد نبيًا على نبوته، فيجب أن لا يكون نبيًا، أوعالمًا على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أويزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أوالشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لواستبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يستبق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله ﷻ القرآن، فهو يقوم به آناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار**» [أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)].

والحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوي أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هوأن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولولم تكن تمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلًا أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة.

وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا، لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به، لأنه مظلوم من جهتك. لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن من أهم أغراض الخلق غرض الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحمد.

فإذا تأملت ما ذكرنا، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجرًا عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته

اليمني فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الانسان فيها، أخمدت نار الحسد من قلبه. وأما العمل النافع فيه، فهوأن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام. وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصًا اغتابهم، أهدوا إليه هدية. فهذه أدوية نافعة للحسد جدًا، إلا أنها مرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هوالدواء الكلي، والله أعلم.

الدنيا

س: اذكر طرفًا من الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها؟

ج: الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا، والتزهيد فيها، وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ﴾ الآية [آل عمران: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من رواية المسور بن شداد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟**» [أخرجه مسلم (٢٨٥٨)].

وفي حديث آخر: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» [أخرجه مسلم (٢٩٥٦)] رواه مسلم.

وفي حديث آخر: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء**». رواه الترمذي وصححه.

وفي آخر: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها**» [أخرجه الدارمي (٣٢٢) والترمذي (٢٣٢٢)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٦٠٩)].

س: لو ذكرت بعض آثار السلف وأقوالهم في التزهيد في الدنيا وذمها وحالهم معها؟

ج: كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابًا طويلًا فيه: «**أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، كالسم يأكله من لا يعرفه وهوحتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة، وكن أسر ما تكون فيها، احذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلوكان الخالق لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلًا لكانت قد أيقظت النائم، ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله ﷻ عنها زاجر، وفيها واعظ، فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن، ما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا محمد ﷺ مفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه، أويرفع ما وضع مليكه، زواها الله عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترار، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه**

أقر بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قدمك به، إلا كان قد نقص عقله، وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه». وقال مالك بن دينار: «اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا».

س: اذكر بعض الأمثلة التي ضربها السلف للدنيا؟

ج: من أمثلة الدنيا: قال يونس بن عبيد: «شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينما هوكذلك انتبه». ومثل هذا قولهم: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. والمعنى أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به. قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة. فقال لها: «كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم. قال: فكلهم مات عنك أوكلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤسًا لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر». وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية، مشوه خلقها، فتشرف على الخلق، فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها، فتنادى: يا رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها». وعن أبي العلاء، قال: «رأيت في النوم عجوزًا كبيرة عليها من كل زينة، والناس عكوف عليها متعجبون، ينظرون إليها، فقلت: من أنت ويلك؟ قالت: أما تعرفني؟ قلت: لا، قالت: أنا الدنيا. فقلت: أعوذ بالله من شرك. قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فأبغض الدرهم. وقال بعضهم: رأيت الدنيا في النوم عجوزًا مشوهة الخلقة حدباء». مثال آخر: واعلم أن أحوالك ثلاث: حال لم تكن فيها شيئًا، وهي قبل أن توجد. وحال أخرى، وهي من ساعة موتك إلى ما لا

نهاية له في البقاء السرمدي، فإن لنفسك وجودًا بعد خروجها من بدنك، إما في الجنة أوالنار، وهوالخلود الدائم. وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة، وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار ذلك، وانسبه إلى الحالتين، تعلم أنه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا. ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه بها في ضرر وضيق، أوسعة ورفاهية، ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة. وقال: «**ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب، قال تحت شجرة، ثم راح وتركها**» [أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٤٩٠)]. قال عيسى عليه السلام: «**الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها**». هذا مثل واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هوالركن الأول على أول القنطرة، واللحد هوالركن الثاني على آخر القنطرة. ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومن الناس من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحد وهوغافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف يبنى على القنطرة ويزينها وهويستحث للعبور عليها، فهوفي غاية الجهل والحمق. وقيل: مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا، ازداد عطشًا حتى يقتله. وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «**انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم**».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش في مكانهم، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من حق**» [أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣)].

س: وهل كل الدنيا مذمومة؟

ج: قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقًا، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب. وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها، فكلما تاقت منعوها، ظنًا منهم أن هذا هوالزهد المراد، وجهلًا بحقوق النفس، وعلى هذا أكثر المتزهدين، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول:

اعلم: أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للانسان، فيها حظ، وهي الأرض وما عليها، فإن الأرض مسكن الآدمي، وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله ﷻ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى، ويشغل عن طلب الآخرة فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة، ويرد لها الماء، ويغير عليها ألوان الثياب، وينسى أن الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته.

ولا وجه أيضًا للتقصير في تناول الحاجة، لأن الناقة على السير إلا بتناول ما يصلحها، فالطريق السليم هي الوسطى، وهي أن يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج إليه من الزاد للسلوك، وإن كان مشتهى، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها.

وقد كان سفيان الثوري: «**يأكل في أوقات من طيب الطعام، ويحمل معه في السفر الفالوذج**». وكان ابراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض الأوقات، ويقول: «**إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال**». ولينظر في سيرة رسول الله ﷺ وصحابته، فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا، ولا تفريط

في حقوق النفس. وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها وينشطها للخير، فلا يمنعها منه، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم، والزهد فيه يكون.

المال

س: هل المال مذموم؟

ج: المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما شدة حرصه أوتناوله من غير حله، أو حبسه عن حقه، أوإخراجه في غير وجهه، أوالمفاخرة به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وفي «سنن الترمذي» عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣٥٧)، والترمذي (٢٣٧٦)، والدارمي (٢٧٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٢٠)]. وقد كان السلف يخافون من فتنة المال. وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: «**ما حبس الله هذا عن نبيه ﷺ وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له**».

وقال يحي بن معاذ: «**الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك سمه. قيل: ما رقيته؟ قال: أخذه من حله ووضعه في حقه. وقال: مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما، قيل: ما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويسأل عنه كله**».

س: ما الفوائد الدينية والدنيوية للمال الحلال؟

ج: قد بينا أن المال لا يذم لذاته بل ينبغي أن يمدح، لأنه سبب للتوصل إلى مصالح الدين والدنيا، وقد سماه الله تعالى خيرًا، وهو قوام الآدمي. قال الله تعالى في أول سورة النساء: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: «**لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه**». وقال أبو إسحاق السبيعي: «**كانوا يرون السعة عونًا على الدين**». وقال سفيان: «**المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين**». وحاصل الأمر؛ أن المال مثل حية فيها سم وترياق، فترياقه فوائده، وغوائله سمه، فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره، ويستدر من خيره. أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية: أما الدنيوية، فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها. وأما الدينية، فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها: أن ينفقه على نفسه؛ إما في عبادة، كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرهما من ضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر، لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، وما لا يتوصل إلى العبادةإلى به، فهوعبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية، ولا يدخل في هذا التنعم والزياد على الحاجة، فإن ذلك من حظوظ الدنيا.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس، وهوأربعة أقسام:

أحدها: الصدقة، وفضائلها كثيرة مشهورة.

القسم الثاني: المروءة، ونعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافته وهدية وإعانة ونحو ذلك، وهذا من الفوائد الدينية، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء.

القسم الثالث: وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجوالشعراء، وثلب السفهاء، وقطع ألسنتهم، وكف شرهم، فهومن الفوائد الدينية، . وهذا لأنه يمنع المغتاب من معصية الغيبة، ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة.

القسم الرابع: ما يعطيه أجرًا على الاستخدام، فإن الأعمال التي يحتاج إليها الانسان لمهنة أسبابها كثيرة، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته، وتعذر عليه سلوك

الآخرة بالفكر والذكر اللذين هما أعلى مقامات السالك، ومن لا مال له يفتقر إلى أن يتولى خدمة نفسه بنفسه، فكل ما يتصور أن يقوم به غيرك، ويحصل بذلك غرضك، فإن تشاغلك به غبن؛ لأن احتياجك إلى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم، والعمل والذكر والفكر أشد.

النوع الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيرًا عامًا، كبناء المساجد، والقناطر، والوقوف المؤبدة، فهذه جملة فوائد المال في الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة، من الإخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقير، والعز بين الخلق، والكرامة في القلوب، والوقار.

وأما غوائل المال وآفاته، فتنقسم أيضًا إلى دينية ودنيوية:

أما الدينية فثلاث فئات:

الأولى: أنه يجر إلى المعاصي غالبًا، لأن من استشعر القدرة على المعصية، انبعثت داعيته إليها.

والمال نوع من القدرة يحرك داعيته إلى المعاصي، ومتى يئس الإنسان من المعصية، لم تتحرك داعيته إليها. ومن العصمة أن لا تجد، فصاحب القدرة إن اقتحم ما يشتهي هلك، وإن صبر لقي شدة في معاناة الصبر مع القدرة، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء.

الثانية: أنه يحرك إلى التنعم في المباحات، حتى تصير له عادة وإلفًا، فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسب فيه شبهة، فيقتحم الشبهات، ويترق إلى آفات من المداهنة والنفاق، لأن من كثر ماله خالط الناس، وإذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة، وكل ذلك من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهوأن يلهيه ماله عن ذكر الله تعالى، وهذا هوالداء العضال، فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكير في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلبًا فارغًا. وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرًا في

خصومة الفلاحين ومحاسبتهم خيانتهم، ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والإجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكرًا في خيانته شريكه، وتقصيره في العمل، وتضيعه المال. وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه. ومن له قوت يوم بيوم فهوفي سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذًا ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

الحرص والطمع

س: تحدث عن ذم الحرص والطمع ومدح القناعة؟

ج: في «صحيح مسلم» عن عمروبن العاص ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**» [أخرجه مسلم (١٠٥٤)].

وقال سليمان بن داود ﷺ: «**قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه**».

وقال أبوحازم: «**ثلاث من كن فيه كمل عقله، من عرف نفسه، وحفظ لسانه، وقنع بما رزقه الله ﷻ**». وقرأ بعض الحكماء: «**أنت أخو العز ما التحفت بالقناعة**».

أما الحرص، فقد نهى عنه رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس، أجملوا في الطلب، فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له**» [أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٣٢٣)].

وقال بعضهم: «**لو قيل للطمع**: من أبوك؟ **قال**: **الشك في المقدور**، **ولو قيل له**: **ما حرفتك**؟ **قال**: **اكتساب الذل**، **ولو قيل له**: **ما غايتك**؟ **قال**: **الحرمان**». وقيل: الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير.

س: وما علاج الحرص والطمع؟

ج: اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور: **الأول**: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق، فمن أراد القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى ما لابد منه، فيقنع بأي طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك، وإن كان له عيال، فيرد كل واحد إلى هذا القدر. وفي الحديث: «**ثلاث منجيات**: **خشية الله تعالى في السر والعلانية**، **والقصد في الغنى والفقر**، **والعدل في الرضى والغضب**» [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥١٢٢)].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر. وعن ابن مسعود ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن روح القدس نفث في روعي**، **أنه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها**، **فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**، **ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله** ﷻ، **فإنه لا يدرك عند الله إلا بطاعته**» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٩٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٠٨٥)].

وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وليس في القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول، مع ما يحصل له من ثواب الآخرة، ومن لم يؤثر عز نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل، ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم، ويخير عقله بين متشابهة أرذال العالمين، أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وأنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلًا منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سفادًا منه.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، كما ذكرنا في آفات المال، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبدًا إلى من دونه في الدنيا، والى من فوقه في الدين، كما جاء في الحديث من رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**انظروا إلى من هوأسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**» [أخرجه مسلم].

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجومن الشفاء.

س: ومتى يستعمل العبد القناعة ومتى يستعمل الإيثار؟

ج: ينبغي لمن فقد المال أن يستعمل القناعة كما ذكرنا، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء، وهوأصل من أصول النجاة.

وقال ابن السماك: «**عجبت ممن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟!**»

س: لوذكرت بعض حكايات الأسخياء وأخبارهم؟

ج: قد صح عن النبي ﷺ أنه: «**كان أجود بالخير من الريح المرسلة**» [أخرجه البخاري (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)]. وأنه: «**ما سئل شيئًا قط فقال: لا**» [أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (١٠١٦)]. «**وأن رجلًا سأله، فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى الرجل**

قومه، فقال: يا قوم: أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر» [أخرجه مسلم (٢٣١٢)]. وقيل: «كان لعثمان على طلحة ﵄ خمسون ألف درهم، فخرج إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هولك يا أبا محمد معونة على مروءتك».

وجاء أعرابي إلى طلحة، فسأله، وتعرف إليه برحم، فقال: «إن هذه الرحم، ما سألني بها أحد قبلك، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم».

وقال عروة: «رأيت عائشة ﵂ تقسم سبعين ألفًا، وهي ترقع درعها». وروي: «أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمست قال: يا جارية علي فطوري، فجاءتها بخبز وزيت: فقالت لها أم درة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحمًا نفطر عليه !؟ فقالت: لو ذكرتني لفعلت». واشترى عبد الله ابن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل، سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: «ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون على دارهم، قال: يا غلام: ائتهم، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا». وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر، فابعث لي بقرة أشرب من لبنها. فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها، وقال: «القرية التي كانت ترعى فيها لك».

ودخل علي بن الحسن على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه، فجعل يبكي: فقال: «ما شأنك؟ قال: علي دين، قال: كم؟ قال: خمسة عشر ألف دينار، أوبضعة عشر ألف دينار. قال: فهي علي».

وبلغنا عن معن أن شاعرًا أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه، فقال لبعض خدمه: «إذا دخل الأمير البستان فعرفني، قال: فلما دخل عرفه، فكتب الشاعر بيتًا على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، فلما بصر معن بالخشبة، أخذها، فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معنًا بحاجتي ... فما لي إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه؟ فدعا الرجل، فقال له: كيف قلت؟ فقاله، فأمر له بعشر بدر، فأخذها ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، وقرأ ما فيها، ودعا الرجل، فدفع إليه مائة ألف درهم أخرى، فلما أخذها الرجل، خاف أن يعود فيستعيدها منه، فخرج، فلما كان اليوم الثالث، قرأ ما فيها، فدعا الرجل فطلبه فلم يوجد. فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار».

ومرض قيس بن سعد بن عبادة: فاستبطأ إخوانه، فقيل له، إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين. فقال: «**أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر مناديًا، ينادي: من كان عليه لقيس حق، فهومنه في حل، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده**».

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله: **فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال: سعيد: «ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى**».

البخل

س: اذكر بعض الأحاديث في ذم البخل؟

ج: قال ﷺ: «**لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا**» [أخرجه النسائي (٣١١٠)، (٣١١١)، (٣١١٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٦١٦)]. وفي أفراد مسلم، عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل**» [أخرجه البخاري (٢٨٢٣)، ومسلم (٢٧٠٦)]. وروى جابر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لبني سلمة: «**إن سيدكم؟ قالوا: جد بن قيس على أننا نبخله، قال: وأي داء أدوأ من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن**

معرور» [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٣)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٤٩٦٥)، (٧٢٩٣)]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)]. قال الخطابي: الشح في المنع أبلغ من البخل.

س: لو ذكرت بعض الأقوال في ذم البخل؟

ج: قال بعض الحكماء: «**من كان بخيلًا ورث ماله عدوه**»، ووصف أعرابي رجلًا فقال: «**لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه**». وذم أعرابي قومًا فقال: «**يصومون عن المعروف ويفطرون على الفواحش**».

س: اذكر بعض حكايات البخلاء؟

ج: روي عن ابن عباس ﷺ قال: «**كان الحاجب رجلًا من أجل العرب، وكان بخيلًا، وكان لا يوقد نارًا بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم إذا بصر بمستضيء بها أطفأها**»، وقيل: كان مروان بن أبي حفصه من أبخل الناس، فخرج يريد المهدي، فقالت له امرأته: «**ما لي عليك إن رجعت بالجائزة؟**

قال: إن أعطيت مائة ألف درهم، أعطيتك درهمًا، فأعطى ستين ألف درهم فأعطاها أربعة دوانق».

وقيل: كان بعض البخلاء موسرًا كثيرًا الأموال، وكان ينظر في دقائق الأشياء فاشترى شيئًا من الحوائج، ودعا حمالًا وقال: «**بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشتري بالحبة جزرًا، فنجلس جميعًا فنأكله**».

س: وما هي أرفع درجات السخاء؟

ج: أرفع درجات السخاء الإيثار، وهوأن تجود بالمال مع الحاجة إليه. وأشد

درجات البخل، أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل. فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين من يؤثر على نفسه مع الحاجة، فالأخلاق عطايا يضعها الله ﷻ حيث يشاء. وليس بعد الإيثار درجة في السخاء. وقد أثنى الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر: ٨] وكان سبب نزول هذه الآية قصة أبي طلحة، لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه، وحكايته مشهورة. واستشهد باليرموك عكرمة ابن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتي عكرمة بالماء فنظر إلى سهيل ابن عمرو ينظر إليه، فقال: «**ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: بنفسي أنتم**». وأهدي إلى الرجل من الصحابة ﭫ رأس شاة، فقال: «**إن أخي أحوج إليه مني، فبعث به إلى رجل، فبعث به ذلك إلى آخر، حتى تداولته سبع أبيات، فرجع إلى الأول**». خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له، فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيها، إذ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلب، فدنا من الغلام فرمى إليه قرصًا فأكله، ثم رمى إليه قرصًا آخر فأكله، ثم رمى إليه ثالث فأكله، وعبد الله ينظر فقال: «**يا غلام! كم قوتك كل يوم؟ قال:** ما **رأيت، قال:** فلم **آثرت به هذا الكلب؟ قال:** ما **هي بأرض كلاب، جاء من مسافة بعيد جائعًا فكرهت رده، قال: فما أنت صانع؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: أُلَامُ على السخاء وهذا أسخي مني، فاشترى الحائط وما فيه من الآلات، واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له**».

واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين أيديهم أرغفة معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للأكل، فلما رفع الطعام، إذا

هوبحالة، لم يأكل أحد منهم شيئًا إيثارًا لأصحابه.

س: وما هو الحد الفاصل بين البخل والسخاء؟

ج: تكلم الناس في حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن من أدى ما يجب عليه، فليس ببخيل، وهذا غير كاف، فإن من لم يسلم إلى عياله إلا القدر الذي يفرضه الحاكم، ثم يضايقهم في زيادة لقمة أوتمرة فإنه معدود من البخلاء، فالصحيح أن البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل. فأما الواجب بالشرع، فهوالزكاة، ونفقة العيال. وأما اللازم بطريق المروءة، فهو ترك المضايقة، والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص، فقد يستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير، ويستقبح من الرجل المضايقة لأهله وأقاربه وجيرانه ما لا يستقبح من الأجانب، فالبخيل الذي يمنع ما لا ينبغي أن يمنع، إما بحكم الشرع أولازم المروءة. ومن قام بواجب الشرع، ولازم المروءة، فقد تبرأ من البخل، لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك.

قال بعضهم: الجواد: هو الذي يعطي بلا من. وقيل: هو الذي يفرح بالإعطاء. فأما علاج البخل، فاعلم أن سبب البخل حب المال. ولحب المال سببان: أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لواقتصر على ماجرت عادته به، ويفضل معه آلاف، ويكون شيخًا لا ولد له، ثم لا تسمح نفسه بإخراج الواجب عليه، ولا بصدقة تنفعه، ويعلم أنه إذا مات أخذه أعداؤه، أوضاع إن كان مدفونًا، وهذا مرض لا يرجى علاجه. ومثال ذلك مثال رجل أحب شخصًا، فلما جاء رسوله، أحب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول، فإن الدنيا رسول مبلغ إلى الحاجات، فيحب الدنانير لذاتها، وينسى الحاجات، وهذا غاية الضلال.

واعلم: أن علاج كل علة بمضادة سببها؛ فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول الأمل بكثرة ذكر الموت. ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئًا أحسن حالًا ممن ورث. فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحًا فالله يتولاه، وإن فاسقًا فلا يترك ما يستعين به على المعاصي، وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء.

واعلم: انه إذ كثرت المحبوبات في الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل، والله أعلم.

الرياء

س: وضح خطر الرياء؟

ج: هذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلًا عن عامة العباد، وإنما يبتلي بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر على أسباب العبادات، لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل، ووجدت مخلصًا من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله ﷻ، وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون. ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة، وإذا كان ذلك هوالداء الدفين، الذي هوأعظم شبكة للشياطين.

س: وما الأسباب الباعثة على الرياء؟

ج: اعلم: أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول. وأهل الخير لم يقصدوا الشهوة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فروا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود ﷺ أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «**علام تتبعوني؟ فوالله لوعلمتم ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان**». وفي لفظ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع. وكان أبوالعالية ﷺ: «**إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام**» [أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٣١٦)، وأحمد بن حنبل في «العلل ومعرفة الرجال» (٢٩٨٤)، وأبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢/ ٢١٨)].

وكان خالد ابن معدان ﷺ: «**إذا عظمت حلقته، قام وانصرف كراهة الشهوة**». وقال الزهري ﷺ: «**ما رأينا الزهد في شيء أقل من في الرياسة، نرى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال، فإذا نوزع الرياسة، حامي عليها وعادي**». قال رجل لبشر الحافي ﷺ: أوصني، فقال: «**أخمل ذكرك، وطيب مطعمك. وقال: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس**». وقد روي في «صحيح مسلم» أن عمر بن سعد انطلق إلى أبيه سعد وهوفي غنم له خارجًا عن المدينة، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الركب، فلما أتاه قال: يا ابت أنزلت في إبلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم؟ فضرب سعد في صدره وقال: اسكت، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**» [أخرجه مسلم (٢٩٦٥)].

وكان ابن مسعود ﷺ يوصي أصحابه، فيقول: «**كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض**». فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأي شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء.

قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير

طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن في وجودها فتنة على الضعفاء، فإن مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة، إذا تعلق به أحد غرق وغرقه، فأما السابح النحرير، فإن تعلق الغرق به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

س: لو وضحت العلاقة بين حب الجاه والمال؟

ج: الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها، وطاعتها، والتصرف فيها. فالجاه هوقيام المنزلة في قلوب الناس، وهواعتقاد القلوب نعتًا من نعوت الكمال في هذا الشخص إما علم أوعبادة، أونسب أوقوة، أوحسن صورة، أوغير ذلك مما يعتقده الناس كمالًا فبقدر ما يعتقدون له من ذلك، تذعن قلوبهم لطاعته، ومدحه وخدمته، وتوقيره.

فهذا يبين أن الجاه محبوب بالطبع، وأنه أبلغ من حب المال، لأن المال لا يتعلق الغرض بعينه، بل لكونه وسيلة إلى المحبوبات، فاشتراك الجاه والمال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة، والجاه في ذلك أرجح من المال. واعلم: أن من الجاه ما يحمد وما يذم، لأن من المعلوم أنه لابد للإنسان من مال لضرورة المطعم والملبس ونحوهما، فكذلك لابد له من جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة إلى سلطان يحرسه، ورفيق يعينه، وخادم يخدمه، فحبه ذلك ليس بمذموم، لأن الجاه وسيلة إلى الأغراض، كالمال.

والتحقيق في هذا أن لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانها، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هومتصف بها لغرض صحيح، كقول يوسف ﵇: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته، كان ذلك مباحًا، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه، كالعلم، والورع، والنسب، فذلك محظور. وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع، فإنه يكون مرائيًا بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير، ولا تملك المال بتلبيس.

س: وما علاج حب الجاه؟

ج: من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفًا بالتردد إليهم، والمرآة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هوخال عنه، ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبادات واقتحام المحظورات، والتوصل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبه الرسول ﷺ حب المال والشرف وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا في غنم.

فحب الجاه إذًا من المهلكات، يجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل، أما الأول، فهوأن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه، هوكمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون في آخره الموت، فينبغي أن يتفكر في نفسه في الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه في الدنيا، من تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم، محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب. والقلوب أشد تغيرًا من القدرة في غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدرة لحفظ الجاه، فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها، فضلًا عما يفوت في الأخرة، فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل، فهوإسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك، كما روي أن بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد، فلما قرب منه، استدعى طعامًا وبقلًا ولبنًا، وجعل يأكل بشره، ويعظم اللقمة فلما نظر إليه الملك سقط من عينه. ولما أريد إبراهيم النخعي على القضاء لبس قميصًا أحمر وقعد في السوق.

واعلم: أن انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاهًا له عندهم، فإذا خاف من تلك الفتنة، فليخالطهم على وجه السلامة، وليمش في الأسواق، وليشتر حاجته ويحملها، وليقطع طمعه من دنياهم، وقد تم مراده. وكان بشر الحافي يجلس إلى عطار، وكانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم.

س: وضح خطورة الاهتمام بمدح الناس وذمهم؟

ج: أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفًا من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته. وطريق ذلك أن تنظر إلى الصفة التي مدحت بها، إن كانت موجودة فيك فلا يخلو: إما أن يكون مما يفرح به كالعلم والورع، أومما لا يصلح أن يفرح به، كالجاه والمال.

أما الأول، فينبغي أن يحذر من الخاتمة، فإن الخوف منها شغل عن الفرح بالمدح، ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس. وأما القسم الثاني، وهوالمدح بسبب الجاه والمال، فالفرح بذلك، كالفرح بنبات الأرض الذي يصير عن قريب هشيمًا، ولا يفرح بذلك إلا من قل عقله، وإن كنت خاليًا عن الصفة التي مدحت بها، ففرحك بالمدح غاية الجنون.

وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان، فلا ينبغي أن تفرح به، بل تكرهه، كما كان السلف يكرهونه، ويغضبون على فاعله. وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقًا فيما قال، قاصدًا للنصح لك، فينبغي أن تتقلد منته، ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هوعلى دينه، وانتفعت بقوله، لأنه عرفك ما لم تكن تعرف، وذكرك من خطاياك ما نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء، فينبغي أن تتفكر في ثلاثة أشياء:

أحدهما: أنك إن خلوت من ذلك العيب لم تخل من أمثاله، فما ستر الله ﷻ عليك من عيوبك أكثر، فاشكره إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك فذكر ما أنت عنه بريء.

الثاني: أن ذلك كفارات لذنوبك.

الثالث: أنه جنى على دينه، وتعرض لغضب الله عليه، فينبغي أن يسأل الله

العفوعنه، كما روي أن رجلًا شج إبراهيم بن أدهم، فدعا له بالمغفرة وقال: صرت مأجورًا بسببه، فلا أجعله معاقبًا بسببي، وقد تقدمت هذه الحكاية في فضل الحلم.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الرياء؟

ج: قد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٤-٦] وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وأما الأحاديث، فقد روي عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» [أخرجه مسلم (٢٩٨٥)]. وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا**: يا رسول الله: وما **الشرك الأصغر؟ قال**: الرياء، **يقول** الله ﷻ **لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيرًا**» [أخرجه أحمد (٢٣١١٩)، (٢٧٧٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٥٥)]. وقال بشر الحافي: «**لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلي من أن أطلبها بالدين**». واعلم: أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، فالمرائي يرى الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك أقسام.

س: اذكر أقسام الرياء، مع تفصيل القول في كل نوع، وبيان خطره؟

ج: الأول: الرياء في الدين، وهوأنواع:

أحدها: أن يكون من جهة البدن، بإظهار النحول والصفار، ليريهم بذلك شدة الاجتهاد، وغلبة خوف الآخرة، وكذلك يرائي بتشعث الشعر، ليظهر أنه مستغرق فيهم الدين، لا يتفرغ لتسريح شعره.

ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين، ليدل بذلك

على أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجل شعره. وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء، فهذا الرياء من جهة البدن لأهل الدين.

وأما أهل الدنيا، فيراؤون بإظهار السمن، وصفاء اللون، واعتدال القامة، وحسن الوجه، ونظافة البدن.

النوع الثاني: الرياء من جهة الزي، كالإطراق حالة المشي، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف، وتشمير الثياب كثيرًا، وتقصير الأكمام، وترك الثوب محرقًا غير نظيف. ومنه التقنع فوق العمامة، لتنصرف إليه الأعين بالتميز بتلك العادة. وهؤلاء طبقات، منهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح، بإظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة، ليرائي بذلك، ولوكلف هذا أن يلبس ثوبًا وسطًا نظيفًا مما كان السلف يلبسونه، لكان عنده بمنزلة الذبح، لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له من الزهد، وقد رجع عن تلك الطريقة.

وطبقة أخرى: يطلبون القبول عند أهل الصلاح، وعند أهل الدنيا من الملوك والأمراء والتجار، فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء أهل الصلاح، ولولبسوا المخرقة الدنية لازدرتهم الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فيطلبون الأثواب الرقيقة، والأكسية الرفيعة والفوط الرفيعة فيلبسونها، وأقل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب الغني، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كلفوا لبس خشن أو وسخ، لكان عندهم كالذبح، خوفًا من السقوط في أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الأبيض ونحو ذلك، لعظم ذلك عليهم، خوفًا من أن تنحط منزلتهم عند أهل الصلاح، وكل مراء بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو فوقه خوفًا من المذمة. وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالثياب النفيسة، والمراكب الحسنة، وأنواع التجمل في الملبس والمسكن

وأثاث البيت، وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة، ويشتد عليهم أن يروا بتلك المنزلة.

النوع الثالث: الرياء بالقول، ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار، لأجل المحاورة، وإظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية بأحوال السلف، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس، وإظهار الغضب للمنكرات بين الناس، وخفض الصوت وترقيقه بقراءة القرآن، ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في الكلام ونحو ذلك.

النوع الرابع: الرياء، كمرآة المصلي بطول القيام، وتطويل الركوع والسجود، وإظهار الخشوع، ونحو ذلك.

وكذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم، بالتبختر، والاختيال، وتحريك اليدين، وتقريب الخطي، والأخذ بأطراف الذيل، وإمالة العطفين، ليدلوا بذلك على الحشمة.

النوع الخامس: المراءاة بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا أوعابدًا، ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، وإن أهل الدين يترددون إليه، ويتبركون به، وكذلك من يرائي بكثرة الشيوخ، ليقال: لقي شيوخًا كثيرة، واستفاد منهم، فيباهي بذلك، فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد.

ومنهم من يطلب مجرد الجاه، وكم من عابد اعتزل في جبل، وراهب انزوى إلى دير، مع قطع طمعهم من مال الناس، لكنه يحب مجرد الجاه.

ومنهم من يكون قصده المال، ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت. فإن قيل: هل الرياء حرام، أم مكروه، أم مباح؟

فالجواب: أن فيه تفصيلًا، وهوإما أن يكون بالعبادات، أوبغيرها، فإن كان الرياء بالعبادات، فهوحرام، فإن المرائي بصلاته وصدقته وحجته، ونحو ذلك، عاص آثم، لأنه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده، فالمرائي بذلك في سخط الله.

وأما إن كان بغير العبادات، فهوكطلب المال على ما تقدم، لا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال وهوما يحتاج إليها الانسان محمود، فكذلك الجاه، وهوالذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] ولا نقول بتحريم الجاه وإن كثر، إلا إذا حمل صاحبه على ما لا يجوز على نحوما ذكرنا في المال. وأما سعة الجاه من غير حرص على طلبه، ومن غير اغتمام بزواله وإن زال، فلا ضرر فيه، إذ لا جاه أوسع من جاه رسول الله ﷺ وعلماء الدين بعده، ولكن انصراف الهمم إلى طلب الجاه نقصان في الدين، ولا يوصف بالتحريم. وتحسين الثوب الذي يلبسه الانسان عند الخروج إلى الناس، إنما هو ليراه الناس، وكذلك كل تجمل لأجلهم لا يقال: إنه منهي عنه.

وقد تختلف المقاصد بذلك، فإن أكثر الناس يحبون أن لا يروا بعين نقص في حال. وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة** من كبر»، فقال رجل: غن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنة، ونعله حسنة، فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**» [أخرجه مسلم (٩١)]. ومن الناس من يؤثر إظهار نعمة الله عليه، وقد أمر رسول الله ﷺ بذلك.

س: وما هي أبواب الرياء، وما هي **درجاته؟**

واعلم: أن بعض أبواب الرياء أشد من بعض، لأنه درجات.

أشدها وأغلظها: أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلًا، كالذي يصلي بين

الناس، ولو انفرد لم يصل.

الدرجة الثانية: أن يقصد الثواب مع الرياء قصدًا ضعيفًا بحيث لو كان خاليًا لم يفعله، فهوقريب من القسم الأول في كونهما ممقوتين عند الله تعالى.

الثالثة: أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لوانفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الإثم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس عليه مقويًا لنشاطه، ولولم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة، فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد، وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلي وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضًا من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

س: ما هو الرياء الخفي وما خطورته؟

ج: اعلم أن الرياء جلي وخفي. فالجلي: هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه.

وأخفى منه قليلًا رياء لا يبعث على العمل بمجرد، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه. وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، ومتى لم يؤثر الدعاء في العمل لم يكن أن يعرف إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسر بإطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن هذا أطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له، وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة، فهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح، ولولا الالتفات إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فيعلم أن الرياء كان مستكنًا في القلب استكنان النار في الحجر، فأظه منه اطلاع الناس أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك

بكراهة، بل قد يتحرك حركة خفيفة، ويتكلف أن يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح.

وقد يخفى، فلا يدعوا إلى الإظهار بالنطق تعريضًا ولا تصريحًا، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والصفار، وخفض الصوت، ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدؤوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه، ويسامحوه في المعاملة، ويوسعوا له المكان، فإن قصر في ذلك مقصر، ثقل ذلك على قلبه، كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها.

ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خاليًا عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون.

وقد روينا عن وهب بن منبه، أن رجلًا من العباد قال لأصحابه: إنا قد فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، وأنا نخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا من هذا الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه، وإن كان له حاجة أحب أن تقضي لمكان دينه: وإن اشترى شيئًا أحب أن يرخص له لكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم، فركب في موكبه، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس، فقال العابد: ما هذا؟ قيل: هذا الملك، فقال لصاحبه: ائتني بطعام. فأتاه ببقل وزبيب وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلًا عنيفًا، فقال الملك: أين صاحبكم؟ فقالوا: هذا، فقال: كيف أنت؟ قال: كالناس، فقال الملك: ما عند هذا خير، وانصرف عنه، فقال: الحمد لله الذي صرفه عني وهولي لائم.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن

أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم ما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أولا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، ولكن ليس كل شوب محبطًا للأجر ومفسدًا للعمل، بل فيه تفصيل.

فإن قيل: فما ترى أحدًا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعته، فهل جميع ذلك مذموم؟

فالجواب: أن السرور ينقسم إلى محمود ومذموم:

فالمحمود: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله تعالى أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله، فيسر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به، حيث كان يستر الطاعة والمعصية، فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة، وستر عليه المعصية، ولا لطف أعظم من ستر القبيح، وإظهار الجميل، فيكون فرحة بذلك، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، أويستدل بإظهار الله الجميل، وستر القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعل به في الآخرة، فإنه قد جاء معنى ذلك في الحديث [أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨)].

فأما إن كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم، حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه، فهذا مكروه ومذموم.

فإن قيل: فما وجه حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه، أعجبه، فقال: «**له أجران: أجر السر، وأجر العلانية**» [أخرجه الترمذي (٢٣٨٤)، وابن ماجه (٤٢٢٦)، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» برقم (٤٧٨٧)، وقال «ضعيف»].

فالجواب: أن هذا الحديث ضعيف، وقد رواه الترمذي، وفسره بعض أهل العلم بأن معناه: أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير، لقوله ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**» [أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩)]. وقد روي في أفراد مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ فقال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» [أخرجه مسلم (٢٦٤٢)].

فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه، فهذا رياء.

س: لو أمكن بيان ما يحبطه الرياء من العمل؟

ج: إذا ورد على العبد وارد الرياء، فلا يخلو: إما أن يكون ورد بعد فراغه من العبادة أوقبله، فإن ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير إظهار منه، فهذا لا يحبط العمل، لأنه قد تم على نعت الاخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده، لا سيما إذا لم يتكلف هوإظهار والتحدث به، فأما إن تحدث به بعد تمامه وأظهره، فهذا مخوف، والغالب عليه أنه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء، فإن سلم من الرياء نقص أجره، فإن بين عمل السر والعلانية سبعين درجة.

وأما إذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة، كالصلاة التي عقدها على إخلاص فإن كان مجرد سرور، لم يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثًا على العمل، مثل أن يطيل الصلاة ليرى مكانه، فهذا يحبط الأجر.

وأما ما يقارن العبادة، مثل أن يبتدئ الصلاة على قصد الرياء، فإن أتمها على ذلك لم يعتد بها، وإن ندم فيها على فعله، فالذي ينبغي له أن يبتدئها، والله أعلم.

س: وما هو دواء الرياء، وكيف السبيل إلى علاجه والتخلص منه؟

ج: قد عرفت أن الرياء محبط للأعمال، وسبب لمقت الله تعالى، وأنه من المهلكات، ومن هذا حاله، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: في دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل، رجع غلى ثلاثة أصول.

وهي حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.

ويشهد لذلك ما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهوفي سبيل الله**» [أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)].

فمعنى قوله: «**يقاتل شجاعة**» أي: ليذكر ويحمد، ومعنى قوله: «**يقاتل حمية**» أي: يأنف أن يقهر أويذم، ومعنى: «**يقاتل رياء**» أي: ليرى مكانه، وهذا هولذة الجاه والمنزلة في القلوب.

وقد لا يشتهي الإنسان الحمد، ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه يثبت ولا يفر لئلا يذم. وقد يفتي الإنسان بغير علم حذرًا من الذم بالجهل، فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك إلى الرياء.

وعلاجه أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما في الحال أوالمآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ضار في المآل، سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بأن أن فيه سمًا، أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة أن تعلم ما فيها من المضرة، فإن الإنسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، ومن المنزلة في الآخرة، وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة

قلوب الخلق، فإن رضي الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم عليه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله له لأجل مدحهم؟ ولا يزيد مدحهم رزقًا ولا أجلًا، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته. وكذلك ذمهم لم يحذرمنه؟ ولا يضره ذمهم شيئًا ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، فإن العباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإذا قرر هذا في نفسه، فترت رغبته في الرياء، وأقبل على الله تعالى بقلبه، فإن العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه.

وأما الطمع فيما في أيدي الناس، فيزيله بأن يعلم أن الله تعالى هوالمسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنه لا رازق سواه، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد، لم يخل من المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد.

ومن الدواء النافع أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونهما، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، فإنه لا دواء في الرياء مثل إخفاء الأعمال، وذلك يشق في بداية المجاهدة، فإذا صبر عليه مدة بالتكلف، سقط عنه ثقله، وأمده الله بالعون، فعلى العبد المجاهدة، ومن الله التوفيق.

المقام الثاني: في دفع العارض من الرياء أثناء العبادة، وذلك لابد من تعلمه أيضًا، فإن من جاهد نفسه، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وإسقاط نفسه من أعين الناس، واحتقار مدحهم وذمهم، فإن الشيطان لا يتركه في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها، دفع ذلك بأن يقول: مالك وللخلق علموا أولم يعلمو، والله عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى آفة الحمد، ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت، فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت، فإن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة

الرياء تثير كراهة.

س: ما هو تقسيم الأعمال من حيث الجهر بها والإسرار؟

ج: فاعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير.

ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد.

والمظهر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه، حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، فلا بأس بالإظهار له، لأن الترغيب في الخير خير.

وقد روي ذلك عن جماعة من السلف أنهم كانوا يظهرون شيئًا من أحوالهم الشريفة ليقتدي بهم، كما قال بعضهم لأهله حين احتضر: لا تبكوا علي، فإني ما لفظت بخطيئة منذ أسلمت.

وقال أبوبكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ لابنه: «**إياك أن تعصي الله تعالى في هذه الغرفة، فإني ختمت فيها اثنتي عشرة ألف ختمة**».

ونحو ذلك كثير من كلامهم، والله أعلم.

وأما الرخصة في كتمان الذنوب، [فربما ظن ظان أن كتمان الخطايا رياء، وليس كذلك فإن الصادق] الذي لا يرائي إذا وقعت منه معصية، كان له سترها، لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**من ارتكب شيئًا من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله ﷻ**» [أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٧٦١٥)، (٨١٥٨)، والبيهقي في «السنن

الكبرى» (٨/ ٣٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٤٩)].

فهذا وإن عصي بالذنب، لم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله ﷻ، وهذا ينشأ عن قوة الإيمان.

وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضًا، فهذا أثر الصدق فيه.

ومن ذلك أن يكره ذم الناس له، من حيث أن ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبع يتأذى بالذم، وبهذه العلة أيضًا ينبغي أن يركه المدح إذا كان يشغله عن الله تعالى، ويستغرق قلبه، ويصرفه عن الذكر، فإن هذه أيضًا من قوة الإيمان.

س: ما حكم ترك الطاعات خوفًا من الرياء؟

ج: ترك الطاعات خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك، لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصًا، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفًا سن أن يقال: إنه مراء، فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي: «**إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة فقال: إنك مراء، فزدها طولًا**». واما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة خوفًا من الرياء. كما روي عن إبراهيم النخعي أن إنسانًا دخل عليه وهويقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا.

س: وماذا لو نشط الإنسان في العمل والعبادة إذا كان بصحبة الناس هل هذا من الرياء؟

ج: قد يبيت الرجل مع المتهجدين، فيصلون أكثر الليل، وعادته قيام ساعة،

فيوافقهم، أويصومون فيصوم، ولولاهم ما انبعث هذا النشاط. فربما ظن ظان أن هذا رياء، وليس كذلك على الإطلاق، بل فيه تفصيل، وهوأن كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى، ولكن تعوقه العوائق، وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير سببًا لزوال الغفلة واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء ومع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب، اندفعت هذه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين.

وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم، بخلاف غيره، ففي مثل هذه الأ-حوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة، ويقول: إذا عملت غير عادتك كنت مرائيًا، فلا ينبغي أن يلتفت إليه، وإنما ينبغي أن ينظر إلى قصده الباطن، ولا يلتفت إلى وسواس الشيطان.

ويختبر أمره بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه، فإن رأى نفسه تسخو بالتعبد فهولله، وإن لم تسخ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا. فهذه جملة آفات الرياء، فكن بحاثًا عنها، وتفقد نيتك، فإن الرياء أخفى من دبيب النملة.

وينبغي لطالب الآخرة أن يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته، وإنما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه، ولا ينبغي أن يؤيس نفسه من الإخلاص بأن يقول: إنما يقدر على الإخلاص الأقوياء، وأنا مع المخلطين، فيترك المجاهدة في تحصيل الإخلاص، لأن المخلط إلى ذلك أحوج.

قال إبراهيم بن أدهم: «**تعلمت المعرفة من راهب يقال له: سمعان، دخلت على صومعته فقلت له: منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ قال: منذ سبعين سنة، قلت: ما طعامك؟ قال: كل ليلة حمصة، قلت: فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة؟ قال: ترى الذين بحذائك؟ قلت: نعم، قال: إنهم يأتوني في كل سنة يومًا واحدًا فيزينون صومعتي ويطوفون حولها يعظموني بذلك، فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة، فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبي المعرفة، فقال: أزيدك؟ قلت: نعم،**

قال: انزل عن الصومعة، فنزلت فأدلى إلي ركوة فيها عشرين حمصة، ثم قال لي: أدخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك، فلما دخلت الدير، اجتمعت النصارى فقالوا: يا حنيفي، ما الذي أدلى الشيخ؟ قلت: شيئًا من قوته. قالوا: وما تصنع به؟ نحن أحق به، ساوم به. قلت: عشرون دينارًا، فأعطوني عشرين دينارًا، فرجعت إلى الراهب، فقال: أخطأت، لوساومتهم عشرين ألفًا لأعطوك، هذا عز من لا يعبده، فانظر كيف يكون عز من يعبده، يا حنيفي أقبل على عبادة ربك».

فقد بان بهذا أن استشعار النفوس عز العظمة في القلوب يكون باعثًا إلى الخلوة، فهذه آفة عظيمة، وعلامة سلامته منها أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة، ويكون عمله عمل من ليس على الأرض غيره، فإذا خطرت خطرات ضعيفة ردها الله، والله تعالى أعلم.

الكبر

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الكبر؟

ج: قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح من أفراد مسلم، ان رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[أخرجه مسلم (٩١)].

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ قال: «**قالت النار: أوثرت بالمتكبرين**» [أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)]. وعنه ﷺ أنه قال: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله ﷻ**». وقال سفيان بن عيينة رحمة الله: «**من كانت معصيته في شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهيًا فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبرًا فلعن**».

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبوبكر**: يا رسول الله إن أحد شقي إزاري ليسترخي، **إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله ﷺ**: «**لست ممن يصنعه خيلاء**» [أخرجه البخاري (٥٧٨٤)، ومسلم (٢٠٨٥)].

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عن أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لوقدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا، إلا أن يكون مع غيره وهويرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا واستحقارًا.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء. وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبي ﷺ: أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. وإنما صار حجابًا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه. ومن شرع أنواع الكبر مايمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [ابراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعوإلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم ﷺ أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال: «**الكبر: بطر الحق وغمط الناس**». ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: غمص الناس، بمعنى غمط الناس.

س: ما هي درجات وأقسام الناس في الكبر؟

ج: اعلم: أن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم، فهويرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه، فترى العالم يصعر خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلًا ما أدب الله به نبيه ﷺ، حين قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوي والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا.

قال ابن عباس: «**يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى**». قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجري بين النساء، ويدعوهن إلى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفي الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالًا، فإن لم يكن في نفسه كمالًا، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور، لظنه أن ذلك كمال.

س: وما أمارات الكبر وعلاماته؟

ج: التكبر يظهر في شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظره شزرًا، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعًا ومتكئًا، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهر ذلك أيضًا في مشيه وتبختره، وقيامه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

س: لو ذكرت بعض خصال المتكبرين؟

ج: من خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهي عنه، قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**» [أخرجه الترمذي (٢٧٥٥)، وأبوداود (٥٢٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٩٥٧)]. وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

الثاني: قيام عند مجيء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك.

قال أنس: «**لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك**».

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس، وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حق من يصلح أن يفعل في حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته، والتقصير في حقه، فيوجب ذلك حقدًا.

واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك. ومن خصال المتكبر: أن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه.

ومنها أن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس.

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أومشيه معه.

وقال ابن وهب: «**جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد، وإن فخذي لتمس فخذه فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلًا شرًا مني؟!**»

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ. ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، : «**وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئًا وحمله**»، وكان أبوبكر ﷺ: «**يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها**». «**واشترى عمر ﷺ لحمًا فعلقه بيده وحمله إلى بيته**». واشترى علي ﷺ تمرًا فحمله في ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: «**لا، أبوالعيال أحق أن يحمل**».

وأقبل أبو هريرة ﷺ يومًا من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: «**أوسع الطريق للأمير**».

ومن أراد أن ينفي الكبر، ويستعمل التواضع، فعليه بسيرة رسول الله ﷺ، وقد سبقت الإشارة إليها في كتاب «**آداب المعيشة**».

س: وما السبيل إلى علاج الكبر ومداواته؟

ج: اعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك في معالجته مقامان:

الأول: في استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الانسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان جمادًا لا يسمع ولا يبصر، ولا

يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الدهر: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقواه. فمن هذا بدايته، فأي وجه لكبره وفخره؟

على أنه لودام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنياته قد تم، إذ هو قد وَهِيَ وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضرًا ولا نفعًا، بينما هويذكر الشيء فينساه، ويستلذ الشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن يسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذي يعده جمادًا كما كان، ثم يلقي في التراب فيصير جيفة منتنة، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاؤه، ويعود ترابًا يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاه المتفرقة، ويحضر عرضه القيامة، فيرى أرضًا مبدلة، وجبالًا مسيرة، وسماء منشقه، ونجومًا منكدرة، وشمسًا مكورة، وأحوالًا مظلمة، وجحيمًا تزفر، وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]. فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه، وأعد جوابًا له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أحسن حالًا منه، لأنها تعود إلى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفوعن أخطائه، كيف يتكبر؟! ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس في السجن ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يدعي به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل

السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصي إلا موجبة للعقاب؟

وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هوالعلاج القالع لأصل الكبر.

ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين، وقد تقدمت الإشارة إلى طريقة رسول الله ﷺ، وما كان عليه من التواضع والأخلاق الجميلة.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أنه لوآلمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز، وإن حمي يوم تحلحل من قوته ما لا يعود في مدة، وأن شوكة لودخلت في رجله لأعجزته، وبقة لودخلت في أذنه لأقلقته.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقًا من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأف لشرف تسبق به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلًا. ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هوبصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره. وليعلم أيضًا أن الكبر لا يليق بالله سبحانه، وأنه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله تعالى بغيضًا عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط:

فطرفه الذي يميل إلى الزيادة تكبرًا، وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمي تخاسسًا ومذلة.

والوسط يمسي تواضعًا، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير

الأمور أوساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم، فهومتواضع، لأنه قد وضع شيئًا من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أونحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهوأن يعطي كل ذي حق حقه، لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال واللين في الكلام، وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

العجب

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في ذم العجب؟

ج: روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**بينما رجل يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**» [أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨)].

وقال ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**» [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٤٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٤٥)].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**الهلاك في شيئين: العجب، والقنوط، وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالطلب والتشمير، والقانط لا يطلب، والمعجب يظن أنه قد ظفر بمراده فلا يسعى**».

قال مطرف رحمه الله: «**لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا، أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا**».

واعلم: أن العجب يدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، وهذا مع الخلق فأما مع الخالق، فإن العجب بالطاعات

نتيجة استعظامها، فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها، وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ويعمى عن آفاتها المفسدة لها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها وأعجب بها.

والعجب إنما يكون بوصف كمال من علم أوعمل، فإن إنصاف إلى ذلك أن يرى حقًا له عند الله إدلالا، فالعجب يحصل باستعظام ما عجب به، والإدلال يوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده.

واعلم: أن الله سبحانه هوالمنعم عليك بإيجادك وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعمله، ولا جميل بجماله، ولا غني بغناه إذ كل ذلك من فضل الله تعالى، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه، وكونه محلا له نعمة أخرى.

فإن قلت: إن العمل حصل بقدرتك، ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك، فمن أين قدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله تعالى، وما لم تعط المفتاح لا يمكنك العمل، كما لوقعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها غلا أن تعطى مفتاحها.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا انا يتغمدني الله برحمته وفضل» [أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦)].

س: وما أسباب العجب وما علاجه؟

ج: اعلم: أن العجب يكون بالأسباب التي بها يقع الكبر، وقد سبق ذكرها وعلاجها. ومن ذلك العجب بالنسب، كما يتخيل الشريف أنه ينجوبشرف آبائه، وعلاجه أن يعلم أنه متى خالف آباءه، وظن أنه ملحق بهم، فقد جهل. وإن اقتدى بهم، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخوف والإزراء على النفس.

وإنما شرفوا بالطالعة المحمودة، لا بنفس النسب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «**يا فاطمة، لا أغني عنك من الله شيئًا**».

فإن قلت: إنما يرجوالشريف أن يشفع فيه ذو قرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشفاعة، وقد يشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوي الذنب فلا تنجي الشفاعة.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يا رسول الله، أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك**» [أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١)]. ومثل المنهمك في الذنوب اعتمادًا على رجاء الشفاعة، كمثل المريض المنهمك في الشهوات، اعتمادًا على طبيبه الحاذق المشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد الطبيب ينفع بعض الأمراض لا كلها. ويوضح هذا أن سادات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يخافون من الآخرة، فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم؟!

ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨]. وعلاج هذا أشد من علاج غيره، فإن هذا متى كان معجبًا برأيه لم يصغ إلى نصح ناصح، وكيف يترك ما يعتقده نجاة؟! وإنما علاجه في الجملة أن يكون متهمًا لرأيه ابدًا، لا يغتر به، إلا أن يشهد له قاطع من كتاب، أو سنة أو دليل عقلي جامع لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة.

والأولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم أن لا يخوض في المذاهب، ولكن يقف عند اعتقاد الجمل، وأن الله سبحانه واحد لا شريك له،﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وأن رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير، ويصرف زمنه في التقوى، وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب ورام مالا يصل إلى معرفته، هلك.

الغرور

س: وماذا عن الغرور وخطره؟

ج: من الناس من غرته الدنيا، فقال: النقد خير من النسيئة، والدنيا نقد، والآخرة نسيئة، وهذا محل التلبيس، فإن النقد لا يكون خيرًا من النسيئة، إلا إذا كان مثل النسيئة. ومعلوم أن عمر الإنسان بالإضافة إلى مدة الآخر ليس بجزء من ألف جزء إلى أن ينقطع النفس، وإنما أراد من قال: النقد خير من النسيئة، إذا كانت النسيئة مثل النقد، وهذا غرور الكفار.

فأما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم. وقد قال العلماء: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهومغرور.

وليعلم أن الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلط الأمراض والمحن على خلق من عبادة في الدنيا، وهوسبحانه قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا تخاف؟! فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن أصحاب القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون. ولوكان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! وهل ذم أهل

الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، إلا لمثل هذا الحال؟!

وأما من اغتر بصلاح آبائه، فهلا يذكر قصة نوح ﷺ مع ابنه، وإبراهيم ﷺ مع أبيه، ومحمد مع أمه ﷺ وعلى سائر النبيين.

ويقرب من هذا الغرور، غرور أقوام لهم طاعات ومعاصي، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يظنون أن حسناتهم ترجح، فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم ويكون قد تناول من الغضب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدق به من المغصوب، ويتكل على تلك الصدقة، وما هوإلا كمن وضع درهمًا في كفه وألفًا في أخرى، ثم رجا أن يرجح الدرهم بألف.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب ذلك أنه يحفظ عدد حسناته، ولا يحاسب نفسه على سيئاته، ولا يتفقد ذنوبه، كالذي يستغفر الله ويسبحه مائة مرة في اليوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين، ويتكلم بما لا يرضي، فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار، ولا ينظر في عقوبة الغيبة والكلام المنهي عنه.

س: لوذكرت أكثر أصناف الناس التي يقع فيها الغرور؟

ج: يقع الاغترار في الأغلب في حق أربعة أصناف:

العلماء، والعباد، والمتصوفة، والأغنياء.

الصنف الأول: العلماء:

فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق:

منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم من الله بمكان، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة، علموا أن علم المعاملة لا يراد به إلا العمل، ولولا العمل لم يكن له قدر. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] ولم يقل: قد أفلح من تعلم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في

العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، و: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ومنهم فرقة أخرى أحكموا العلم والعمل الظاهر، ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها، كالكبر والحسد والرياء، وطلب العلو، وطلب الشهرة، فهؤلاء زينوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» [أخرجه مسلم (٢٥٦٤)].

فتعاهدوا الأعمال، ولم يتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل، هذا لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعًا، فنبت ونبت معه حشيش يفسده، فأمر بقلعه، فأخذ يجز رؤوسه وأطرافه ويترك أصوله، فلم تزل أصوله تقوى.

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة، إلا أنهم بعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلي بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة. قال أحدهم: ما هذا بكبر، وإنما هوطلب عز الدين، وإظهار شرف العلم، وإرغام المبتدعين، فإني لولبست الدون من الثيابين وجلست في الدون من المجالس، شمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلي، وفي ذلي ذل الإسلام، وينسى الغرور، وأن إبليس هوالذي سول له هذا بدليل أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يتواضعون ويؤثرون الفقر والمسكنة.

وقد روينا عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفيه وأمسكهما، وخاض الماء، ومعه بعيره، فقال له أبوعبيدة: لقد صنعًا عظيمًا عند أهل الأرض، فصك في صدره وقال: «**أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة. إنكم كنتم أذل وأحقر الناس، فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله. وفي رواية عنه: لما قدم الشام، استقبله الناس وهوعلى بعيره. فقيل**

له: لوركبت برذونًا تلقى به عظماء الناس ووجوهم؟ فقال عمر ﷺ: لا أراكم ها هنا، إنما الأمر من ها هنا -وأشار بيده إلى السماء- خلوا سبيل جملي».

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة، والخيول الفارهة ونحو ذلك، وإذا خطر له خاطر الرياء قال: إنما غرضي بهذا إظهار العلم والعمل، لاقتداء الناس بي ليهتدوا إلى الدين، ولوكان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، لأن من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان، وكذلك من يدخل منهم على سلطان، ويتودد إليه، ويثني عليه، ويتواضع له ويقول: إنما غرضي بهذا أن أشفع في مسلم أوأدفع عنه الضرر، والله يعلم أنه لوظهر لبعض أقرانه قبول عند السلطان لثقل عليه ذلك.

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى أنه يأخذ من مالهم الحرام ويقول: هذا مال لا مالك له. وهولمصالح المسلمين، وأنت إمام من أئمتهم، فيغير بهذا التلبيس من جهة نظره إلى نفسه، وربما كان دجالًا من الدجالين من جهة قوله: هذا مال لا مالك له. وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، وذلك لا يمنع كونها حرامًا، وقد يكون عالمًا بمن أخذ منه المال. وفرقة أخرى أحكموا العلم، وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات، وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك، ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها وأهملوها، فترى أحدهم يسهر ليلة وينصب نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها.

ويرى أن باعثه على ذلك الحرص على إظهار دين الله تعالى، وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت، ولعله لا يخلوفي تصنيفه من الثناء على نفسه، إما صريحًا بالدعاوي الطويلة العريضة، وإما ضمنًا بالطعن في غيره ليبين في طعنه في غيره أنه أفضل من ذلك الغير، وأعظم منه علمًا. فهذا وأمثاله من خفايا العيوب التي لا يفطن لها إلا الأكياس الأقوياء، ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء، إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه، ويحرص على صلاحها. ومن سرته حسنته

وساءته سيئته، فهومرجوأمره، بخلاف من يزكي نفسه ويظن أنه من خيار الخلق. فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة، فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم. فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات. وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش، وربما ضيعوا الأعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر إلى ما لا يحل، والمشي إلى ما لا يجوز، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجميع المهلكات، فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخرين من حيث العلم.

ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه، لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك، فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة، وجعل يكرر ذلك، وذلك غاية الغرور. وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه، ولم يدر أن الفقه هو الفقه عن الله تعالى، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ الآية [التوبة: ١٣٢]. والذي يحصل له الانذار غير هذا العلم، فإن مقصد هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القتل والجراحات. والمال في طريق الله تعالى آله، والبدن مركب. وإنما العلم المهم معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التي هي من الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومثال من اقتصر على ذلك، كمثل من اقتصر في سلوك الحج على علم خرز الراوية والخف، ولا شك أنه لابد من ذلك: ولكن ليس من الحج في شيء. ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف، ولم يهمه إلا طريق المجادلة، والإلزام، والإفحام، ودفع الحق لأجل الغلبة، فهو أسوأ حالًا ممن ذكر قبلهم، وجميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف. وأما أدلة الأحكام، فيشتمل عليها علم المذهب، وهي

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وأما حيل الجدل، من الكسر، والقلب، وفساد الوضع والتركيب، والتعدية فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام. وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين. ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة، فالضالة التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة التي تدعو إلى السنة، والغرور شامل لجميعهم. أما الضالة، فاغترارها ظاهر، وأما المحقة فاغترارها من حيث أنها ظننت أن الجدال أهم الأمور، وأفضل القربات في دين الله تعالى، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه ما لم يبحث، وأن من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل، فليس بكامل الإيمان، فهذا الظن الفاسد قطعوا أعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات، وعميت بصائرهم، لم يلتفتوا إلى القرن الأول، وأن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيرًا من البدع والهوى، فلم يجعلوا أعمارهم ودينهم عرضًا للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورة رد الضلال، فإن رأوه مصرًا على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل.

وقد روي في الحديث: «**ما ضل قوم بعد هدي إلا أوتوا الجدل**» [أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٦٣٣)]. وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص، وهم يظنون أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها أنهم من أهلها، فهؤلاء يدعون إلى الله وهم هاربون منه، فهم أعظم الناس غرة. ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ إلى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلبًا للأغراب. ومنهم من يستشهد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن يكثر الصياح بمجالسهم والتواجد، ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الانس. ومنهم فرقة استغرقوا أوقاتهم في سماع الحديث، وجمع رواياته، وأسانيده الغريبة والعالية، فهم أحدهم أن يدور البلاد، ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان، ولقيت فلانًا،

ولي من الإسناد ما ليس لغيري. ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر، وزعموا أنهم علماء الأمة، وأذهبوا أعمارهم في دقائق النحو واللغة، ولوعقلوا لعلموا أن مضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك، وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغريبين: غريب القرآن، والحديث، ومن النحو ما يقوم به اللسان. فأما التعمق إلى درجات لا تتناهي، فذلك يشغل عما هو أجود منه وألزم. ومثال التعمق في ذلك، مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن، مقتصرًا على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السكنجبين لإزالة الصفراء، فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه، فهومغرور، والسعيد من أخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لا غير، وتجاوز إلى العمل، واجتهد فيها وفي تصفيته من الشوائب، فهذا هوالمقصود. وفرقة أخرى عظم غرورهم، فوضعوا الحيل فيدفع الحقوق، وظنوا أن ذلك ينفعهم، بل ذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجته إلى أن تبرأه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى. وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول لزوجته، واتهابه مالها لإسقاط الزكاة، ونحو ذلك من أنواع الحيل.

الصنف الثاني: أرباب التعبد والعمل وهم فرق:

فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل، وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى خرجوا إلى الوسوسة في الوضوء، فترى أحدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعًا، بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في التنجس، ولا يقدر ذلك في مطعمه، فلوانقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم، لكان أشبه بسر السلف، فإن عمر ﷺ توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أنواعًا من الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام. وقد صح أن النبي ﷺ: «**توضأ من مزادة مشركة**» [أخرجه البخاري (٣٤٤)] ثم منهم من يخرج إلى الإسراف في الماء، ويطول به الأمر، حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها. ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في

تكبيرة الإحرام في الصلاة، حتى ربما فاتته ركعة مع الإمام.

ومنهم من يتوسوس في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة، ونحو ذلك، بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه، ويذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به، وهذا من أقبح أنواع الغرور فإن الخلق لم يتكلفوا من تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن إلا ما جرت به العادة في الكلام. ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى سلطان، فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكراره،وهوغافل عن مقصود الرسالة مراعاة حرمة المجلس، فما أحراه بالطرد والتأديب.

وفرقة أخرى اغتروا بقراءة القرآن، فهم يهذونه هذا،وربما ختموا في اليوم مرتين، فلسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني، ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه، ولا يقف عند أوامره ونواهيه، فهذا مغرور يظن أن المقصود من القرآن التلاوة فقط. ومثال ذلك، مثال عبد كتب إليه مولاه كتابًا يأمره فيه وينهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، بل اقتصر على حفظه وتكراره، ظانًا أن ذلك هو المراد منه، مع مخالفته أمر مولاه ونهيه.

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن، معرضًا عن معانيه، فنبغي أن يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم، أو بالصوت، أو بالمعاني. وفرقة أخرى اغتروا بالصوم وأكثروا منه، وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول، ولا بطونهم من الحرام عند الافطار، ولا خواطرهم عن الرياء. ومنهم من اغتر بالحج، فيخرج إليه من غير خروج عن المظالم، وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج، ويضيعون في الطريق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ولا يحترزون من الرفث والخصام، وهم مع ذلك يظنون أنهم على خير وهم مغرورون.

وفرقة أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونسوا أنفسهم.

ومنهم من يؤم في مسجد، ولو تقدم عليه أورع منه وأعلم، ثقل عليه ومنهم من يؤذن ويظن أن ذلك لله، ولو أذن غيره في غيبته، أشتد عليه ذلك وقال: قد زاحمني في مرتبتي. ومنهم من يجاور بمكة أو بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده، وقول الناس: فلان مجاور بمكة أوبالمدينة، ثم إنه يجاور ويطمع في أوساخ الناس، وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات. وما من عمل إلا وفيه آفات، فمن لم يعرفها وقع فيها، ومن أراد أن يعرفها، فلينظر في كتابنا هذا، فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الأبواب المرتبة في هذا الكتاب، وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق.

وفرقة أخرى زهدت في المال، وقنعت بالدون من اللباس والطعام، وقنعت من المسكن بالمساجد، فظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهم مع هذا شديد والرغبة في الرياسة والجاه، فقد تركوا أهون الأمرين وباؤوا بأعظم المهلكين. وفرقة أخرى حرصت على النوافل، ولم تعتن بالفرائض، فترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل، ولا يجد للفريضة لذة. ولا يحرص على المبادرة إليها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)].

الصنف الثالث: المتصوفة. والمغرورون منهم فرق:

فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة، فتشبهوا بالصادقين من الصوفية بالظاهر، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة، ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويمزق بعضهم أعراض بعض إذا اختلفوا في غرض، وهؤلاء غرورهم ظاهر. ومثالهم مثال عجوز سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان، ويقطع كل واحد منهم قطرًا من أقطار الأرض، فاشتاقت نفسها إلى ذلك، فلبست درعًا ووضعت على رأسها مغفرًا، وتعلمت من رجز الابطال أبياتًا، وتعلمت زيهم وجمع شمائلهم، ثم توجهت إلى العسكر، فكتب

اسمها في ديوان الشجعان، فلما حضرت في ديوان العرض، أمرت بتجريد المغفر والدرع لنظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة، فلما جردت إذا هي عجوز ضعيفة زمنة، فقيل لها: جئت تستهزئين بالملك وأهل حضرته، خذوها وألقوها بين أيدي الفيل، فألقيت إليه. فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة إذا كشف عنهم الغطاء، وعرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى المرقعات والزي.

وفرقة أخرى ادعت المعرفة، ومشاهدة الحق، ومجاورة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلى الأسماء، فترى أحدهم يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهوينظر إلى الفقهاء والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلا عن العوام، حتى إن بعض العامة يلازمهم الأيام الكثيرة، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، ويرددها كأنه يتكلم عن الوحي، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد، ويقول، إنهم محجوبون عن الله، وإنه هو الواصل إلى الحق، وإنه من المقربين، وهوعند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يحكم علمًا ولم يهذب خلقًا، ولم يراقب قلبًا سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان.

وفرقة منهم طووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، وبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي؟

وبعضهم يقول. لا قدر للأعمال بالجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله تعالى، وواصلة إلى معرفته، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها، ويرفعون أنفسهم عن درجة الأنبياء، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين. وأصناف غرور أهل الإباحة لا تحصى، وكل ذلك أغاليط ووساوس، خدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به.

ومنهم فرقة أخرى جاوزوا هذه الطريق، واشتغلوا بالمجاهدة، وابتدؤوا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة، فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة، تعجبوا منها، وفرحوا بها وأعجبهم غريبها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ﷻ ليس لها نهاية. ولووقف مع كل أعجوبة وتقيد بها، قصرت خطاه وجره الوصل إلى القصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكًا، فرأى على بابه روضة فيها أزهار لم يكن رأى مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

الصنف الرابع: أرباب الأموال.

وهم فرق: ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر ما يظهر للناس ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، ولو كلف أحدهم أن ينفق دينارًا ولا يكتب اسمه في الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه، ولولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله، لما شق عليه ذلك، فإن الله يطلع عليه، سواء كتب اسمه أولم يكتبه. وبعضهم يصرف المال في زخرفة المسجد، وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغله للمصلين، فإن المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين.

فأما إن كان المال الذي صرفه في ذلك حرامًا، كان أشد في الغرور. قال مالك بن دينار ؒ: أتى رجل مسجدًا، فوقف على الباب وقال: «**مثلي لا يدخل بيت الله، فكتب في مكانه صديقًا**». فبهذا ينبغي أن تعظم المساجد، وهوأن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام، أوبزخرف الدنيا منه على الله تعالى، فغرور هذا من حيث أنه يرى المنكر معروفًا.

وفرقة أخرى يحفظن الأموال ويمسكونها بخلًا، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج إلى نفقة المال، كالصيام والصلاة وختم القرآن، وهم مغرور لأن البخل مهلك، وقد استولى على قلوبهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب عليهم. ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حية، فاشتغل عنها

بطبخ السكنجبين لتسكن به الصفراء. ومنهم من لا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط، فيخرج الرديء من المال، أو يعطي من الفقراء من يخدمه، ويتردد في حاجاته، أو من يحتاج إليه في المستقبل أومن له فيه غرض.

ومنهم من يسلم من ذلك إلى بعض الأكابر ليفرقه، لينال بذلك عنده منزلة ويقوم بحوائجه، وكل ذلك مفسد للنية وصاحبه مغرور، لأنه يطلب بعبادة الله تعالى عوضًا عن غيره.

وفرقة أخرى من أرباب الأموال وغيرهم، اغتروا بحضور مجالس الذكر، وظنوا أن نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ، وليس كذلك، لأن مجلس الذكر إنما فضل لكونه مرغبًا في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يوصل إلى ذلك الغير فلا وقع له، وربما سمع أحدهم التخويف، فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، أو أعوذ بالله، ويظن أنه قد أتى المقصود.

ومثال هذا كمثل مريض يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع يحضر عند من يصف له الأطعمة اللذيذة، ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه. فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها، فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها أفعالك، فهو حجة عليك. فإن قيل: فما ذكرته من مداخل الغرور لا يكاد يخلص منه.

فالجواب: أن مدار أمر الآخرة على معنى واحد، وهو تقويم القلب، ولا يعجز عن ذلك إلا من لم تصدق نيته، فإن الإنسان لواهتم بأمر الآخرة كما يهتم بأمر الدنيا لنالها. وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان. ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة أشياء.

العقل: وهوالنور الأصلي الذي يدرك به الإنسان حقائق الأشياء.

والمعرفة: التي يعرف بها الانسان نفسه وربه ودنياه وآخرته. وفي كتاب المحبة، وشرح عجائب القلب، والتفكر، وكتاب الشكر إشارت إلى وصف النفس، ووصف جلال الله سبحانه. ويستعين على معرفة الدنيا والآخرة بما ذكر في كتاب «الدنيا» وكتاب «الموت»، فإذا حصلت هذه المعارف، ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب

الله، وبمعرفة الآخرة حب شدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله تعالى، وينفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلب، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عنه كل غرور. فإذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به وبنفسه، واحتاج إلى الأمر الثالث وهو العلم: ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله تعالى وآفاتها، والعلم بما يقربه منه ويهديه.

فيعرف من العبادات والعادات ما هومحتاج إليه، وما هومستغن عنه، ويتأدب بأدب الشرع. ويعرف من المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى، وهي الصفات المذمومة في الخلق. ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لابد أن توضع خلفًا من المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، والله أعلم. وإذا فعل جميع ذلك ينبغي أن يكون خائفًا أن يخدعه الشيطان، ويدعوه إلى الرياسة ويخاف عليه أيضًا من الأمن من مكر الله تعالى.

وقال الإمام أحمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: «**فتني. فقل لا بعد. فلا ينبغي أن يفارق الخوف قلوب الأولياء أبدًا**». نسأل الله تعالى السلامة من الغرور، وحسن الخاتمة، إنه قريب مجيب.

التوبة

س: تحدث عن التوبة ومنزلتها وأهميتها؟

ج: اعلم: أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب. وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع. وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

ﭐﻟۡﻤُﺆۡﻣِﻨُﻮﻥَ ﻟَﻌَﻠَّﻜُﻢۡ ﺗُﻔۡﻠِﺤُﻮﻥَ﴾ [النور: ٣١] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ الآية [التحريم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقال النبي ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**» [أخرجه مسلم (٢٧٠٢)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَلَّهُ أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله اشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته**» [أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٦٧٥)].

والأحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور. والتوبة واجبة على الدوام، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلابد منه. ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة**» [أخرجه مسلم (٢٧٠٢)]. ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» [أخرجه أحمد في مسنده (٦١٢٥)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم

(١٩٠٣)]. والأحاديث في ذلك كثيرة.

س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار ما يثيرها؟

ج: اعلم: أن للانسان أخلاقًا وأوصافًا كثيرة، لكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات:

أحدها: صفات ربوبية، ومنها يحدث الكبر والفخر، وحب المدح والثناء، والعز وطلب الاستعلاء، ونحو ذلك، وهذه ذنوب مهلكات، وبعض الناس يغفل عنها، فلا يعدها ذنوبًا.

الثانية: صفات شيطانية، ومنها يتشعب الحسد، والبغي والحيل والخداع والمكر، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك.

الثالثة: الصفات البهيمية: ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة، وأخذ الحطام لأجل الشهوات.

الرابعة: الصفات السبعية، ومنها يتشعب الغضب والحقد، والتهجم على الناس بالقتل والضرب، وأخذ الأموال، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة.

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولًا، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيًا، فإذا اجتمعت هاتان، استعملتا العقل في الصفات الشيطانية، من المكر والخداع والحيل، ثم تغلب الصفات الربوبية.

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب، كالفكر، والبدعة، والنفاق، وإضمار السوء، وبعضها في العين، وبعضها في السمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها على جميع البدن، ولا حاجة إلى تفاصيل ذلك، فإنه واضح. ثم الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الآدميين، والى ما بين العبد وبين ربه.

فما يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفوفيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شركًا والعياذ بالله، فذلك الذي لا يغفر.

س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار الصغائر والكبائر؟

ج: اعلم: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر.

والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة.

الأول: حديث أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قالو: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**» [أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩)].

الثاني: حديث ابن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ، سئل أي الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهوخلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك**» [أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦)].

الثالث: حديث عبد الله بن عمر ﷺ، أن النبي صلى الله عليه وعلى وآله وسلم قال: «**الكبائر: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين**» [أخرجه البخاري (٦٦٧٥)].

الرابع: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قول الزور - أو قال - شهادة الزور**» [أخرجه البخاري (٥٩٧٧)].

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ ذكرت عنده الكبائر قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الإيهام ليكون الناس على وجل من الذنوب، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر، ويعرف أيضًا أكبر الكبائر.

فأما أصغر الصغائر، فلا سبيل إلى معرفته، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر، فروي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: هي أربع:

وروي عن ابن عمر ﷺ أنه قال: هي سبع.

وكان ابن عباس ﷺ إذا بلغه قول ابن عمر: إنها سبع، قال: هي إلى سبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: «**هي ما أوجب الحد في الدنيا**».

وعن ابن مسعود: «**أن الكبائر من فاتحة النساء إلى قوله:** ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ » [النساء: ٣١].

وقال سعيد بن جبير وغيره: «**هي كل ذنب أوعد الله عليه النار**».

وقال أبو طالب المكي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار. أربعة في القلب: الشرك، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله تعالى. وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر.

وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا.

واثنتان في الفرج: الزنى واللواطة.

واثنتان في اليدين: القتل والسرقة.

وواحدة في الرجلين: الفرار من الزحف.

واحدة في جميع البدن: وهي عقوق الوالدين.

وهذا يمكن أن يزاد عليه، وينقص منه، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله، والله أعلم.

س: كيف توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا؟

ج: الناس يتفاوتون في الآخرة، كما يتفاوتون في الدنيا،وينقسمون إلى أربعة أقسام: هالكين، ومعذبين، وناجين، وفائزين.

ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم، فيقتل بعض أهله، ويعذب

بعضهم ولا يقتلهم، يخلي بعضهم، فهم الناجون، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون.

وإذا كان الملك عادلًا، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحاق، ولا يقتل إلا جاحدًا لاستحقاق الملك، معاندًا له في أصل الولاية، ولا يعذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف له بالملك، ولا يخلي إلا معترفًا له بالملك، ولم يقصر، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة، وبين اللحظة والسبعة آلاف سنة تفاوت كثير.

وأما اختلاف العذاب بالشدة، فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يعفو، وقد يضرب بالسياط أويعذب بغيرها من أنواع العذاب. وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل نور المعرفة.

فأما من جهة التفصيل، فنقول: كل من أحكم أصل الإيمان، واجتنب جميع الكبائر، وأحسن جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها، فيشبه أن يعفي عنه، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر. وهذا إما أن يلتحق بالمقربين، أوبأصحاب اليمين، وذلك بحسب إيمانه ويقينه، فإن قَلَّ أو ضَعُفَ، دنت منزلته، وإن كثر وقوي، علت منزلته.

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر، لأن بحر المعرفة لا ساحل له، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين، أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض.

فأما من ارتكب كبيرة، أو أهمل أركان الإسلام، فإنه إن تاب توبة نصوحًا قبل قرب الأجل، التحق بمن لم يرتكب، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له،

والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلًا.

فأما إن مات قبل التوبة، فأمره خطر، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببًا لتزلزل إيمانه، فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إذا كان إيمانه تقليدًا فإنه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة، ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار، ثم ينزل البلة المقلدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهر الأسباب، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة، ولا يقبل إصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بأن عراضه خفيف، وعلاجه هين، فإن ذلك ظن يصيب غالبًا، وقد تثوب إلى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها.

وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، وكذلك يجوز العفوعن العاصي وغن كثت سيئاته، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة، فإن الاعتماد على التقوى، والتقوى في القلب، وأحوال القلب قد تخفي على صاحبه، فكيف على غيره؟

وأما الناجون، ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصروا فيعذبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين، وأولاد الكفار، والذين لم تبلغهم الدعوة، فلم يكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، ويصلح أن يكونوا على الأعراف.

وأما الفائزون، فهم العارفون، وهم المقربون والسابقون، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، وليس حرصهم على الجنة، بل على لقاء اله ﷻ والنظر إليه.

ومثالهم مثال المحب، فإنه في تلك الحال غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه في

بدنه، ولا هم له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين، ولا تخطر على قلب بشر، فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات.

س: ما هي الأمور التي تعظم بها الصغائر؟

ج: الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

وفي الحديث من رواية ابن عباس ﷺ، قال: «**لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**» [قال العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٤٩٠): «أخرجه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس رفعه وكذا العسكري عنه في الأمثال بسند ضعيف وأخرجه ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس من قوله والبيهقي عن ابن عباس موقوفًا»، وصحح الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف في «تبيض الصحيفة» (١/ ١٤١ - ١٤٥)، وقفه على ابن عباس].

واعلم: أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجي من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال ﷺ: «**أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل**».

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب، فإن الذنب كلما استعظمه العبد، صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود ﷺ: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا**» [أخرجه مسلم (٧٨٢)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري من حديث أنس ﷺ: «**إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات**» [أخرجه البخاري (٦٤٩٢)].

وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت**».

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى خجلته، أويقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنده وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتًا ليزداد بالإمهال إثمًا. ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضره من غير، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله عليه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**» [أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠)].

ومنها أن يكون المذنب عالمًا يقتدي به، فإذا علم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيرًا في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه. وفي الحديث: «**ومن سن في الإسلام سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» [أخرجه مسلم (١٠١٧)].

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب.

والثانية: إخفاؤه إذا أتاه. وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا على الذنوب، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير. وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه. وينبغي له الاحتراز مما يقتدي به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام، فاقتدى به

غيره، كان الاثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكًا كان يكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جديًا فكل منه، فلما دخل قرب إليها فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي، فقال: «**ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي**».

س: ما هي شروط التوبة؟

ج: التوبة عبارة عند ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه.

والندم هو توجع القلب عنده شعور بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء، فكن ممن استشعر عقوبة نازلة بولده أومن يعز عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة، أو بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها كلها. وكذلك إن كان عليه صوم، أوزكاة، أوحج، أوغير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش على ذلك ويتداركه. وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أو بلوغه عن معصية صدرت منه، وينظر فيها، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه والاستغفار. ثم ينظر إلى مقادير ذنوه، فيطلب لك معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال النبي ﷺ: «**أتبع السيئة الحسنة تمحها**» [أخرجه الترمذي (١٩٨٧)].

والدارمي (٢٧٩١)، وأحمد في مسنده (٢٠٨٤٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٧)].

مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفًا ويقفه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية الله تعالى، لأنه نهي عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى، فإذا فعل ذلك، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب. أما **الأول**: فإنه إذا قتل خطأ أو أوصل الدية إلى مستحقها، إما منه أومن عاقلته، وإن قتل عمدًا، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتلته، وإن شاء عفا عنه ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنى، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رفع أمره إلى الولي حتى اقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية. وكذلك حد القذف، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحوالغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات، فيجب عليه رد ذلك إلى أ سحابه والخروج منه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم، وليؤد إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا

الاستكثار من الحسنات، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيآته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لوعرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، كمن زنى بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبهمًا، ولابد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضًا يوم القيامة، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات.

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على ألا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكدًا.

مثال ذلك: المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه، فيعزم عزمًا جزمًا أن لا يتناول شيئًا من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائبًا ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة، والصمت وقلة الأكل والنوم، وإحراز قوت حلال، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات. قال بعضهم: من صدق في ترك الشهوة، وجاهد نفسه فيها سبع مرات، لم يبتل بها، وقال: من تاب من ذنب واستقام سبع سنين، لم يعد إليه أبدًا.

س: ما هي أقسام العباد من حيث الدوام على التوبة؟

ج: الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى: تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فرط من أمره، ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة. وصاحبها هوالسابق بالخيرات. وتمسى هذه التوبة: النصوح، وتسمى هذه النفس: المطمئنة! وهؤلاء يختلفون، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها، ومنهم من تنازعه نفسه وهومليء بمجاهدتها.

الطبقة الثانية: تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد، ولكنه يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزمًا على الإقدام عليها، وكلما أتى شيئًا منها لام نفسه. وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة، فهذه رتبة عالية أيضًا، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين، لأن الشر معجون بطينة الآدمي، فقلما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره، حتى يثقل ميزانه، فترجح حسناته، فأما أن تخلو كفة السيئات، فبعيد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه، إذ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها، وإنما قهرته شهوة واحدة أوشهوتان، وهويود لوأقدره الله على قمعها، وكفاه شرها، فإذا انتهت ندم، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفس تسمى المسؤولة، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيها: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾

فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه، فربما يختطف قبل التوبة، فغن الأعمال بالخواتيم، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت، فتكون الخاتمة، فليراقب الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكًا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف على فعله، فهذا من المصرين، وهذه النفس هي الأمارة بالسوء، ويخاف على هذا سوء الخاتمة.

فإن مات هذا على التوحيد، فإنه يرجى له الخلاص من النار، ولوبعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفوبسبب خفي لا يطلع عليه، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله تعالى كريم، وخزانته واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار، فلوقيل له: فإذا كان الحق كريمًا، فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيقال له: هكذا النجاة بالتقوى.

س: ما هي الأمور التي ينبغي على التائب فعلها؟

ج: قد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل سن السيئات، لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، الاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسي فاغفر لي. روي في الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله ﷻ، إلا غفر له**» [حسن: أخرجه أبو داود (١٥٢١)، وابن ماجه (١٣٩٥) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»].

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات.

س: ما هو دواء الإصرار على المعصية؟

ج: اعلم: أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة. والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذًا للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار، لأن الداء المهلك هوحب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافًا من أن يقال لهم: فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء.

س: ما الذي ينبغي للوعاظ أن يسلكوه مع الخلق؟

ج: الجواب: أن ذلك يطول، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد في

الأخبار والآثار من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

النوع الثاني: حكايات الأنبياء ﷺ، والسلف الصالح، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم ﷺ، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود وسليمان ﷺ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثمًا، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهوسبب جناياته، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها.

وقال الفضيل بن عياض: «**إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي**».

وقال أبو سليمان الداراني: «**الاحتلام عقوبة، ولا يفوت أحدًا صلاة إلا بذنب يذنبه**».

وقال الحسن رحمه الله: «**الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظلمة في القلب، ووهن في البدن**».

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب، كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيبًا يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء.

وهذا الذي ذكرنا هوعلاج الغفلة، فيبقى علاج الشهوة، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب «رياضة النفس» ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلًا إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة، فينبغي أن

يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة.

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهي، والنظر إليها، وعلاجه: الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذكر، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل، ثم التفكر فيما قيل، فينبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فعن ذلك أجوبة. منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر. ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب. ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هوآت قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، والمسوف يبني الأمر على ماليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غدًا؟ بل يتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهولا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهوكلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت.

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفوا الله سبحانه ممكن، ألا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك غلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله

فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الصبر

س: ما فضل الصبر وما حقيقته؟

ج: قد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحومن تسعين موضعًا، وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعال: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» [أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).]. وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث، ففي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**» [أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)]. وقال الحسن: «**الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عنده. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها، وفيها:** ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

واعلم: أن **الصبر** من خاصيه الإنسان، ولا يتصور في البهائم لنقصانها، وغلبة

الشهوات عليها من غير شيء يقابلها، ولا يتصور الصبر أيضًا في الملائكة لكمالها، فإن الملائكة جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال. وأما الإنسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هومحتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة، ثم شهوة النكاح، وليس له قوة الصبر، فإذا تحرك العقل وقوي، ظهرت مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التميز، وينموعلى التدرج إلى سن البلوغ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها إلى مصالح الآخرة، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطبع يقتضي ما يحب، وباعث الشرع والعقل يمنع، والحرب بينهما قائمة، ومعركة هذا القتال قلب العبد، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحقق بالصابرين، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين.

س: ما هي أقسام الصبر؟

ج: اعلم أن الصبر على ضربين. أحدهما: بدني، كتحمل المشاق بالبدن، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أومن غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفساني عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج، سمي عفة، وإن كان الصبر في قتال، سمي شجاعة، وإن كان كظم غيظ، سمي حلمًا، وإن كان في نائبة مضجرة، سمي سعة صدر، وإن كان في إخفاء أمر، سمي كتمان سر، وإن كان في فضول عيش، سمي زهدًا، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ، سمي قناعة.

وأما المصيبة، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق

الإيمان داخلة في الصبر، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات. ثم اعلم أن العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال، وذلك أن جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين:

النوع الأول: ما يوافق هواه من الصحة، والسلامة والمال، والجاه، وكثرة العشيرة، والأتباع، وجميع ملاذ الدنيا، فالعبد محتاج إلى الصبر في جميع هذه الأمور، فلا يركن إليها، ولا ينهمك في التلذذ بها، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي بدنه بالمعونة للحق.

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، حتى قال بعض العارفين: المؤمن يصبر على البلاء، ولا يصبر على العافية إلا صديق. وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، وهذا الصبر متصل بالشكر، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر، وإنما كان الصبر على السراء شديدًا، لأنه مقرون بالقدرة، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ.

النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: الطاعات، فيحتاج العبد إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية.

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل، كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعًا، كالحج والجهاد. ويحتاج المسلم إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

حال قبل العبادة، وهي تصحيح النية، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء.

وحال في نفس العبادة، وهي أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة، ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ من العمل.

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل: وهي الصبر عن إفشائه، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها.

القسم الثاني: الصبر عن المعاصي، وما أحوج العبد إلى ذلك.

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة، والكذب والمراء ونحوه، كان الصبر عليه أثقل. فترى الإنسان إذا لبس حريرًا، استنكر ذلك ويغتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات، ولم يقدر على الصبر، لم ينجه إلا العزلة.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت الاختبار، كالمصائب، مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمي العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات، لأن سنده اليقين.

وقد قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يصب به**» [أخرجه البخاري (٥٦٤٥)]. وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالذي يؤذي بقول أوفعل أوجناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت. والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] وقال: ﴿بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة، منها: ما أخرجاه في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله ﷻ بها عنه، حتى الشوكة يشاكها**» [أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢)].

وفي حديث آخر: «**ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا**

أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه» [أخرجه البخاري (٥٦٤١)، (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)].

وفي حديث آخر: «**لا يزال البلاء بالمؤمن أوالمؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» [أخرجه أحمد في مسنده (٧٧٩٩)، والترمذي (٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح،، من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (١٥٦٧)].

وفي حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**» [أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٩٩٢)].

س: ما هي آداب الصبر؟

ج: من آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**» [أخرجه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)].

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة، لحديث أم سلمة ﵄ [أخرجه مسلم (٩١٨)]، ومن الآداب سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور في «صحيح مسلم» [أخرجه مسلم (٢١٤٤)].

وقال ثابت البناني: «**مات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن، فغضبوا، وقالوا: يموت عبد الله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهنًا؟! قال: أفأستكين لها، وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا وما فيها**».

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وقال مطرف: ما من شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا.

وكان صلة بن أشيم في مغزى له ومعه ابنه، فقال: «**أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحبًا إن كنتن جئتن تهنئنني، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن**». وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله ﷻ الخفية.

وقال علي رضي الله عنه: «**من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك**».

وقال الأحنف: «**لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد**».

وقال رجل للإمام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ قال: «**بخير في عافية. فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره**». وقال شقيق البلخي: «**من شكا مصيبة به إلى غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا**».

وقال بعض الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظرًا إلى ثوابها، وحكاياتهم مشهورة في ذلك.

منها: ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر، وسوى عليه ثم أستوى قائمًا، فأحاط به الناس، فقال: «**رحمك الله يا بني! قد كنت برًا بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسرورًا بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سرورًا، ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيرك الله إليه**».

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على

ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كما حكيتم، فهو أبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أوعلى مكروه، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب، وهوانزعاج الباطن، وإنما ينهي عن المكتسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي لا طبعي، إذ الطبع لابد له من كراهة المصائب.

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالًا، فلما تمت، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلًا. ولو أن ملكًا قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجومن عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف تلمحوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

س: ما هي الأمور المعينة على الصبر؟

ج: اعلم: أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء، فالصبر وإن كان شاقًا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذا معنى العلاج: مضادة العلة.

ونضرب لك مثالا، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذا العزلة، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أوالهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهي، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهيه

الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هوالعلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا.

وينبغي للإنسان أن يعود نفسه المجاهدة، فإن من عود نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم: أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة، كف الباطن سن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم همًا واحدًا، وصرف الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى، وجميع أبواب معرفة الله تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة، فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد.

فأما مقادير ما ينكشف، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد، وهوبحسب الرزق، فقد يقل الجهد، ويكثر الصيد، وقد يطول الجهد ويقل الصيد، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ﷺ، فإنها توازي أعمال الثقلين، وليس ذلك إلى اختيار العبد، بل اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا، فإن المجذوب إلى أسفل سافلين، لا يجذب إلى أعلى عليين، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها، فقطع العلائق الجاذبة.

فالذي علينا تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة، كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلي سنة عن مطر، وكذلك قلما تخلوسنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات.

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص، وعرضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم، وكذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب، كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي رمضان. والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره.

الشكر

س: وضح فضل الشكر ومنزلته في الشرع؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١] وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥]. ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تفطرت قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شاكرًا**» [أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠)].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**» [أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣) من الدعاء، وأحمد في مسنده (٢١٦١٤)، وهو صحيح].

س: هل الشكر يكون باللسان فقط، فصل القول في ذلك؟

ج: الشكر يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

أما بالقلب، فهو أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة.

وأما باللسان، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح، فهواستعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته، فمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء.

والشكر باللسان: إظهار الرضى عن الله تعالى، وهومأمور به. قال رسول الله ﷺ: «**التحدث بالنعم شكر، وتركها كفر**» [أخرجه أحمد (١٧٩٨١)، (١٧٩٨٢)، (١٨٨٦٣)، (٢٧٦٨٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠١٤)].

وروي أن رجلين من الأنصار التقيا، فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟ فقال: الحمد لله. فقال النبي ﷺ: «**قولوا هكذا**».

وروي أن رجلًا سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرد عليه، ثم قال له عمر: «**كيف أصبحت؟ قال: أحمد الله، فقال عمر: ذلك الذي أردت**».

وقد كان السلف يتساءلون، ومرادهم استخراج الشكر لله، فيكون الشاكر مطيعًا، والمستنطق مطيعًا.

وقال أبوعبد الرحمن الحبلي: «**إن الرجل إذا سلم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمد الله إليك، قال: يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟ قال: أكتبه من الحامدين. فكان أبوعبد الرحمن إذا سئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليك وإلى جميع خلقه**».

س: بماذا يتم الشكر؟

ج: اعلم: أن فعل الشكر وترك الكفران، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى،

إذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه، ومعنى الكفران نقيض ذلك، إما بترك الاستعمال، أواستعماله فيما يكرهه.

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان:

أحدهما: السمع، ومستنده الآيات.

والثاني: بصيرة القلب، وهوالنظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عسير عزيز، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل، وسهل بهم الطرق على الخلق، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلًا.

وأما الثاني: وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه: إذ ما خلق الله تعالى شيئًا في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هوالمحبوب. وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية.

أما الجلية، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار، فيكون النهار معاشًا، والليل سباتًا، فتتيسر الحركة عند الإبصار، والسكون عند الاستتار، فهذا من جملة حكم الشمس، لا كل الحكمة فيها، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار.

وأما الحكمة في خلق الكواكب، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم، نحوكونها زينة للسماء، وجميع أجزاء العالم لا تخلومنه ذرة عن كمة، وكذلك أعضاء الحيوان، منها ما تبين حكمته بيانًا ظاهرًا، كالعلم بأن العين للأبصار، واليد للبطش، والرجل للمشي. فأما الأعضاء الباطنة، كالمرارة، والكلية والكبد، وآحاد العروق، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة، فلا يعرف الحكة فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدرًا يسيرًا بالنسبة إلى علم الله تعالى، فكل من استعمل شيئًا في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه، فمن

ضرب غيره بيده بغير حق، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد؛ لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم، فقد كفر نعمتها، ونعمة الشمس أيضًا، إذ الإبصار يتم بها؛ فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويبقى بهما ما يضره فيهما.

واعلم: أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها، أن يستعين بها الخلق على الوصول إلى الله تعالى، ولا وصول إليه إلا بمحبته، والأنس به في الدنيا، والتجافي عن غرور الدنيا، ولا أنس إلا بدوام الذكر، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة، وكل ذلك لأجل البدن، والبدن مطية النفس، والراجع إلى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فكل من استعمل شيئًا في غير طاعة الله، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لابد منها، لأقدامه على تلك المعصية.

ولنذكر مثالًا واحدًا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء، حتى يعتبر بها، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم، فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا، وهما حجران لا منفعة في أعينهما، ولكن يضطر الخلق إليهما، من حيث كل إنسان يحتاج إلى أعيان كثيرة، في مطعمه، ومشربه، وملبسه، مركبه، وسائر حاجاته.

وقد يعجز عما يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدرًا من الزعفران مثلًا وهو يحتاج إليه، ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك قدرًا من الزعفران مثلًا وهو يحتاج إلى جمل يركبه، وآخر يملك الجمل، وربما استغنى عنه، ويحتاج إلى الزعفران، فلابد بينهما من معاوضة، ولابد في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل، حتى يعطي

مثله في الوزن والصورة. وكذا من يشتري دارًا بثياب، أوعبدًا بخف، اودقيقًا بحمار، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال، حتى تقدر بهما، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة، فحصل التساوي بينهما حينئذ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين، هذا لغرض في أعيانهما، فإنه لو كان في أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر، فلخلقهما الله لتتداولهما الأيدي، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، وجعلهما عزيزين في أنفسهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما، فكأنه ملك كل شيء.

إذا عرفت حكمتهما، فكل من عمل فيهما عملاص يخالف المقصود منهما، ولا يليق بحكمتهما، فقد كفر نعمة الله فيهما، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه، لأنه ضيعهما ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الألهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر، بل بعين البصيرة، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية، فقد كفر نعمة الله فيهما، لأنه أسوأ حالًا من كنزهما.

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات، ولا تكفي تلك الأعيان عنهما، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له: «**من شرب في إناء ذهب أوفضة، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم**» [أخرجه مسلم

(٢٠٦٥)]. وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير، فقد أخرجها عن مقصودهما، فهذا مثال لحكمة خفية من حكم النقدين.

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك، في حركتك، سكونك، ونطقك، وسكوتك في كل فصل صادر منك، إما شكرًا أوعكسه، وهو الكفر، وبعض ذلك تصفه بالكراهة، وبعضه بالحظر، ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى، فاستحقت بمزيد القوة رجحانًا وشرفًا على الأخرى، وقد أحوجك من أعطال اليدين إلى أعمال، بعضها شريفة، كأخذ المصحف، وبعضها خسيسة، كإزالة النجاسة، فإذا أخذت المصحف باليسار، وأزلت النجاسة باليمين، فقد عكست المقصود، وخصصت الشريف بما هو خسيس، فظلمته.

وكذلك في الرجلين، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف، فقد ظلمت اليمنى، لأن الخف وقاية الرجل، وقس على ذلك.

وكذلك نقول: من كسر غصنًا من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار، لأنها خلقت للمنفعة بها، فإن كان كسره لغرض صحيح، فلا بأس، وإن فعل ذلك في ملك غيره، فهو ظالم، وإن كان محتاجًا، إلا أن يأذن صاحبه.

س: وضح تعريف النعمة وأقسامها؟

ج: اعلم: أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوز، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدها: ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعًا، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقة.

الثاني: ما هو ضار فيهما جميعًا، وهوالبلاء حقيقة.

القسم الثالث: ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهوبلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

ومثاله: الجائع إذا وجد عسلًا فيه سم، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلًا، فإذا علم ذلك عده بلاء.

القسم الرابع: الضار في الحال، النافع في المآل، وهو نعمة عند ذوي الألباب، بلاء عند الجهال.

ومثاله: الدواء الشنيع مذاقه في الحال، الشافي في المآل من الأسقام، فالصبي الجاهل، إذا كلف شربه ظنه بلاء، والعاقل يعده نعمة، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يتقلد منة أمه بجهله، ويأنس إليها دون أبيه، ويقدر أباه عدوًا، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض أشد من ألم الحجامة، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل، وكل إنسان صديق نفسه، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو.

س: ما هي أقسام النعم من حيث كونها مطلوبة لذاتها أولغيرها؟

ج: اعلم: أن النعم تنقسم إلى ما هو غاية مطلوبة لذاتها، وإلى ما هو مطلوب لأجل الغاية.

أما الغاية فهي سعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بقاء لا فناء له، وسرور لاغم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر بعده، وهي السعادة الحقيقية.

وأما القسم الثاني: فهو الوسائل إلى السعادة المذكورة، وهي أربعة أقسام:

أعلاها: فضائل البدن، من القوة والصحة ونحوهما.

الثالث: النعم المطيفة بالبدن، من المال والجاه ونحوهما.

الرابع: الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل، من الهداية والإرشاد،

والتسديد، والتأييد، وكل هذه نعم عظمية.

فإن قيل: ما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما؟

قلنا: هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح، والآلة المستعملة للمقصود.

أما المال، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية، كان كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت، فيشغله عن تحصيل العلم، وعن الذكر، والفكر، ونحو ذلك.

وأما الجاه فيه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم، ولا ينفك عن عدو يؤذيه، وظالم يهوش عليه، فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله. وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه.

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها، فهي نعم، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك.

وقد قال النبي ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» [أخرجه البخاري (٦٤١٢)].

ولما سئل: من خير الناس؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٤٥) والترمذي (٢٣٢٩)، والدارمي (٢٧٤٢)، ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٢٩٦)].

وأما المال والجاه، وإن كانا نعمتين، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق.

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد، فلا خفاء في كونها من أعظم النعم، فلا يستغني أحد عن الحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون الله للفتى ... فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

س: اذكر بعض الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل؟

ج: اعلم: أنا قد ذكرنا جملة من النعم، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من

النعم الواقعة في الرتبة الثانية، فلوأردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة، لم نقدر عليها، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة، فلنذكر شيئًا من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح، لا على سبل الاستقصاء، فنقول: من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذا، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حسن تدرك به ما بَعُدَ عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد، وأنت لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج أن تطوف كثيرًا حتى تعثر على الذي شممت رائحته، وربما لم تعثر، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصًا، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لولم يكن لك حسن الذوق، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك، بخلاف الشجرة، فإنه يصيب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى، هي أشرف من الكل، وهو العقل، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك، وهو أدنى فوائد العقل، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات. ولا تظن أننا استوفينا شيئًا من ذلك، فإن البصر واحد من الحواس، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة، لك واحدة من الطبقات العشر، صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وتدبير، وتركيب، لو اختلت

طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفي ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟!

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة، وآلات الحركة من أصناف النعم، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة، كان البصر معطلًا، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك، كالمتقاضي الذي يضطرك إلى تناوله الغذاء.

ثم هذه الشهوة لولم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل.

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره، منها اليدان، وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني، ولا تكون كخشبة منصوبة.

ثم جعل رأس اليد عريضًا، وهوالكف، وقسمه خمسة أقسام، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر، ووضعها في صفين، بحيث يكون الإبهام في جانب، ويدور على الأصابع البواقي، ولوكانت مجتمعة متراكمة، لم يحصل تمام الغرض، ثم خلق لها أظافر، وأسند إليها رؤوس الأصابع، لتقوى بها، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد، فلا يكفيك حتى يصل إلى باطنك، فجعل لك الفم واللحيين، خلقهما من عظمين، وركب فيهما الأسنان، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام، فبعضها قواطع كالرباعيات، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب، وبعضها طواحن كالأضرس. وجعل اللحي الأسفل متحركًا حركة دورية، واللحي الأعلى ثابتًا لا يتحرك، فانظر

إلى عجيب صنع الله تعالى. وإن كل رحي صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى، إلا هذه الرحي التي هي صنع الله ﷻ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى، إذ لودار الأعلى بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها.

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان، فإنه يطوف في جوانب الفم، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة، كالمجرفة التي ترد الطعام إلى الرحى، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق.

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة.

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينًا يفيض منها اللعاب، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام.

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله إلى المعدة وهوفي الفم، فإنه لا يمكن إيصاله باليد، فهيأ الله تعالى المريء والحنجرة، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام، فيهوي في دهليز المريء إلى المعدة، فإذا ورد الطعام إلى المعدة وهوخبز وفاكهة مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحمًا وعظمًا ودمًا على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخًا تامًا، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة، وهي الكبد من جانبها الأيمن، والطحال من جانبها الأيسر، والثرب من أمامها، ولحم الصلب من خلفها، فينضج الطعام ويصير مائعًا متشابهًا يصلح للنفوذ في تجاويف العروق، ثم ينصب الطعام من العروق إلى الكبد، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر. ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع.

وفي الآدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة، وكل ذلك من الله سبحانه، ولوسكن من جملتها عرق متحرك، أوتحرك عرق ساكن، لهلكت يا مسكين. فانظر إلى نعم الله

تعالى عليك، لتقوى على الشكر، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل، وهي أخسها، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل، والبهيمة أيضًا تعرف أنها تجوع وتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتجامع، وإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار، فكيف تقوم بشكر الله تعالى؟! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى، فقس على ذلك.

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة إلى ما لم يعرفوه، أقل من قطرة في بحر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [ابراهيم: ٣٤، والنحل: ١٧].

س: اذكر بعض نعم الله في الأطعمة والأغذية وعجائب ذلك؟

ج: اعلم: أن الأطعمة كثيرة مختلفة، ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى. وهي تنقسم إلى أغذية وأدوية وفواكه وغيره:

فنتكلم عن بعض الأغذية، فنقول: غذا كان عندك شيء من الحنطة، فلوأكلتها لفنيت وبقيت جائعًا، فما أحوجك إلى عمل ينمى به حب الحنطة ويتضاعف، حتى يفي بتمام حاجتك، وهو زرعها، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينًا، ثم لا يكفي الماء والتراب، إذ لوتركت في الأرض ندية صلبة، لم تنبت لفقد الهواء، فيحتاج إلى تركها في أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيهان ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء، وتصرفه بقهر على الأرض، حتى ينفذ ثم كل ذلك لا يغني، فيحتاج إلى حرارة الربيع والصيف، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت.

ثم انظر إلى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى؟ فجر العيون وأجرى منها الأنهار، ولما كان بعض الأرض مرتفعًا لا يناله الماء، أرسل إليها الغيوم، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم، وهي سحب ثقال، ثم يرسله على الأرض مدرارًا في وقت الحاجة.

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء، تنفجر منها العيون تدريجًا، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره.

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها، مع بُعدها عن الأرض، مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل البرد عند الحاجة إليه، والحر عند الحاجة إليه.

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهوينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير، وكل كوكب خلق في السماء، فهو مسخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس والقمر. ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها، وكذلك الشمس والقمر. فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى.

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان، سخر الله تعالى التجار، وسلط عليهم الحرص على جمع المال، مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء، بل يجمعون الأموال، فإما أن تغرق بها السفن أوتنتهبها قطاع الطرق، أو يموتون في بعض البلاد، فتأخذها السلاطين. وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم، وهم أشد أعدائهم لوعرفوا. فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار، وركوب الأخطار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك.

س: ما السبب في تقصير الخلق في شكر النعمة؟

ج: اعلم: أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

س: ما هي أسباب الغفلة عن نعم الله ﷻ؟

ج: أما الغفلة عن النعم فلها أسباب: أحدها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكروا على جملة مما ذكرناه، من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصًا به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء، ولوأخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حمام أوبئر ماتوا غمًا، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفًا على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصير إلا أن يعمي، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة، وهومثل عبد السوء يضرب دائمًا، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منة، وإن ترك ضربه أصلًا، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

كما روي أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا، قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا، قال: أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفًا.

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعًا، فرأى في المنام كأن قائلًا يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: فسورة هود؟ قال: لا، قال: فسورة يوسف؟ قال: لا، قال: فمعك قيمة مائة ألف

دينار وأنت تشكو؟ فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة، فبكى ثم دعا بماء في قدح فقال: «**يا أمير المؤمنين! لو منعت هذه الشربة إلا بنصف الدنيا وما فيها، اكنت تفديها بها؟ قال: نعم. قال: فاشرب ريًا، بارك الله فيك. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لومنعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك؟ قال: نعم. قال: فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه!**»

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيز إلى النعم الخاصة.

اعلم: أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعمًا كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم، من ذلك العقل، فما من عبد إلا وهوراضٍ عن الله سبحانه في عقله، يعتقد أنه أعقل الناس، وقلما يسأل الله العقل، وإذا كان ذلك اعتقاده، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك.

ومن ذلك الخلق، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبًا يكرهها، وأخلاقًا يذمها، ويرى نفسه بريئًا منها، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره.

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هومنفرد به، ولوكشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح، فكيف لواطلع الناس كافة؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه، حيث أظهر الجميل وستر القبيح، ولننزل إلى طبقة أعم من هذا القبيل، فنقول: ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته، أوأخلاقه أو صفاته، أو أهله، أو ولده، أو مسكنه أو بلده، أو رفيقه، أو أقاربه، أو جاهه، أو سائر محابه، أمورًا، لو سلب ذلك وأعطي ما خصص به من ذلك غيره، لكان لا يرضى به، وذلك مثل أن جعله مؤمنًا لا كافرًا،

وحيًا لا جمادًا، وإنسانًا لا بهيمة، وذكرًا لا أنثى، وصحيحًا لا مريضًا، وسليمًا لا معيبًا، فإن كل هذه خصائص.

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره، مثل أن لا يعرف شخصًا يرتضي لنفسه حاله بدلًا عن حال نفسهن إما على الجملة، أو في أمر خاص، فإن لله عليه نعمًا ليست له على أحد من عباده سواه، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده، فإنه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه، فما باله ينظر إلى من فوقه ولا ينظر إلى من دونه؟!

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر من هوأسفل منه ممن فضل عليه**» [صحيح]: أخرجه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)]. وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «**انظروا إلى من هوأسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**» [أخرجه الترمذي (٢٥١٣)، وأصله عند ومسلم (٢٩٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح جامع الترمذي»].

فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد لله تعالى عليه نعمًا كثيرة، لا سيما من خص الإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن وغير ذلك.

وفي حديث آخر: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافي في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**» [أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤١٤١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٤٢)].

وقال بعضهم:

إذا ما القوت يأتي لـ ـك في الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

س: ما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟

ج: الجواب: أما القلوب المبصرة، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله ﷻ، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء، فسبيل صاحبها أن ينظر أبدًا إلى من دونه، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم، ثم يتأمل صحته وسلامته، ويشاهد الجناة الذين يقتلون، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات، ويحضر المقابر، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا، ليتدارك من عصا عصيانه، وليزيد في الطاعة من أطاع، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فإذا شاهد المقابر، وعلم أحب الأشياء إليهم، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال، بأن يصرف العمر إلى ما خلق لأجله، وهوالتزود للآخرة.

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت.

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

س: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلًا، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجودًا، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟ ! فإن الصبر يستدعي ألمًا، والشكر يستدعي فرحًا، وهما متضادان؟

ج: اعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه، مثل الكفر، فإنه بلاء، ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصي يعرف عصيانه، فعليه ترك المعصية، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا

يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه، لم يؤمر بالصبر على ذلك، بل يؤمر بإزالة الألم، وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر، فإن الغنى مثلًا يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان، حتى يقصد قتله بسبب ماله، والصحة أيضًا كذلك، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء، وقد يكون على العبد في بعض الأمور بلاء وفيه نعمة.

مثال ذلك، جهل الإنسان بأجله، فإنه نعمة عليه، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش، وطال بذلك غمه، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له، إذ لو اطلع عليه، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره، إذ لو عرف منه ذلك، أبغضه وآذاه، فكان ذلك وبالًا عليه.

ومن ذلك إبهام القيامة، وليلة القدر، وساعة الجمعة، وكل ذلك نعمة، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل، فكيف في العلم؟!

وقد قلنا: إن لله سبحانه في كل موجود نعمة، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم، وقد تكون نعمة في حق غيره، كألم الكفار في النار في الآخرة، فإنه نعمة في حق أهل الجنة، إذ لولم يعذب قوم، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السماء، وهي أحسن من كل نبت، لأنها عامة، فلذلك لم يشعروا بها، ولم يفرحوا بسببها، فإذا صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا وفيه حكمة ونعمة، إما على جميع العباد، أو على بعضهم، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضًا، إما على المبتلى، أو على غيره، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف

بأنها بلاء مطلق، ولا نعمة مطلقة، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه، ويغتم به من وجه، فيكون الصبر من حيث الاغتمام، والشكر من حيث الفرح.

س: ما هي الأمور الموجودة في البلاء التي ينبغي للعاقل أن يفرح بها ويشكر عليها؟

ج: اعلم: أن في كل فقر، ومرض، وخوف، وبلاء في الدنيا، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى، فلوأضعفها الله ﷻ على العبد، فما كان يمنعه؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم.

الثاني: أن المصيبة لم تكن في الدين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضى به، وإذ أرجو الثواب عليه**».

قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي، فقال: «**أشكر الله تعالى، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط، فاقتصر على عشرة، فهو مستحق للشكر**».

الثالث: أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف، ومصيبة الآخرة دائمة، وإن لم تدم، فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانيًا، كذلك ورد في الحديث عن النبي ﷺ.

وفي «صحيح مسلم»: «**إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها**» [أخرجه مسلم (٢٥٧٤)].

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، ولم يكن بد من وصولها

إليها، فقد وصلت واستراح منها، فهي نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها، فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي، فإنه لوخلي واللعب، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب، فكان يخسر طول عمره، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء، قد تكون سببًا لهلاكه، فالملحدون غدًا يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبيانًا، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية، فعليه أن يحسن الظن بالله ﷻ، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فإن حكمة الله تعالى واسعة، وهو أعلم بمصالح العباد منهم، وغدًا يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب.

والبلاء تأديب من الله تعالى، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد. وفي الحديث: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له**» [أخرجه أحمد (١١٧٥٠)، (١٢٤٩٥)، (١٩٧٧٢)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله»، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٩٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٨٥)].

وأيضًا، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا والأنس بها، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها، فصارت سجنًا له، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن. وأما التألم فهوضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعًا بلا أجر فإنك تتألم وتفرح، فتصبر على الألم، وتشكر على سبب الفرح، فمن عرف هذا، تصور منه أن يشكر على البلاء، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة.

وقد روي أن أعرابيًا عزى ابن عباس ﷺ بأبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «**ما عزاني أحد أحسن من تعزيته**». وقد سبق ذكر أنواع البلاء، وثواب الصبر عليها.

س: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله ﷻ البلاء؟

ج: الجواب؛ أنه لا وجه لذلك، فإن في الحديث من رواية أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله**»؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» [أخرجه مسلم (٢٦٨٨)].

وفي «الصحيحين» أنه ﷺ قال: «**تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**» [أخرجه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧)].

وقال مطرف: «**لأن أعافى فأشكر، أحب إلي من أن ابتلى فأصبر**».

س: أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

ج: اختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر، أو بالعكس؟ وفي ذلك كلام طويل، تلخيص القول فيه: أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات.

فأقل درجات الصبر، ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى، وهومقام وراء الصبر، ووراء ذلك الشكر على البلاء، وهووراء الرضى.

ودرجات الشكر كثيرة، فإن حياء العبد من تابع نعم الله عليه شكر، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بأن

النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر، وشكر الوسائط شكر، لقوله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» [أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٠١)]. وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر؟

لكن نقول: إذا أضيف إلى الشكر الذي هو صرف المال إلى الطاعة، فالشكر أفضل، لأنه تضمن الصبر أيضًا، وفيه فرح بنعمة الله ﷻ، وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار.

أما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية، بل يصرفه إلى التنعم المباح، فالصبر هنا أفضل من الشكر، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء على الشكر، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص، لأن السابق إلى افهام الناس، من نعمة الأموال، والغنى بها، والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان: الحمد لله.

فإذن الصبر الذي يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه. ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهًا في بعض الأحوال، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما ذكر، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة، ويصرف الباقي في الخيرات، أو يمسكه على اعتقاده أن خازن للمحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة، فهذا أفضل من الفقير الصابر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الرجاء

س: تحدث عن فضل الرجاء وأهميته؟

ج: الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لابد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تمنيًا، لأنه انتظار من غير سبب. ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذور فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقي الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة، وألقى فيها بذرًا جيدًا غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمع انتظاره رجاء.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلًا، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقًا وغرورًا، لا رجاء.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاء محمودًا باعثًا على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقًا وغرورًا. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وذم القائل: ﴿قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال معروف الكرخي رحمه الله: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضًا قد يرجوذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سياتي بيانه إن شاء الله تعالى. وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله ﷻ، والتنعم بمناجاته،

والتاطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لابد أن تظهر على كل من يرجوملكًا من الملوك، أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله ﷻ؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مرادًا بالخير من غير هذه العلامات، فهومغرور.

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الرجاء؟

ج: روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ انه قال: «قال الله ﷻ: **أنا عند ظن عبدي بي**» وفي رواية أخرى «**فليظن بي ما شاء**».

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي ﷺ قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**» [أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)].

وأوحى الله تعالى إلى داود ﷺ: «**أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب: كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني**».

وعن مجاهد ﷺ قال: «**يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك: أن تغفر لي، فيقول: خلوا سبيله**».

س: من من الناس تشتد حاجته لدواء الرجاء؟

ج: دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سمومًا، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرود، مضر لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس ملتطفًا، ناظرًا إلى مواضع العلل، معالجًا كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء،

بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال علي رضي الله عنه: «**إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله**».

س: تحدث عن أسباب الرجاء وطرقها؟

ج: اعلم أن من اسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار، أم الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الانسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤].

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أولياءه، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لولم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم**» [أخرجه مسلم (٢٧٤٩)] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حيث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا**

وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدًا الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا ان يتغمدني الله منه برحمته» [أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود،** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، قالو: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد**» فقال الناش: الله أكبر. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لأرجوأن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إني لأرجوا أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجوأن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبر الناس، فقال: «**ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض**» [أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢)].

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغي أن تزعج فإذا اشتد قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود ﷺ: «**ليغفرن الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر**».

وروي أن مجوسيًا استضاف إبراهيم الخليل ﷺ فلم يضفه وقال: «**إن أسلمت، أضفتك، فاوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسع إبراهيم ﷺ خلفه، فرده وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى. فأسلم**».

فهذه الأسباب التي تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغي أن يسمعوا شيئًا من ذلك من، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

الخوف

س: ما تعريف الخوف وما حقيقته؟

ج: اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهويخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتل، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، ويحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لوأهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية**» [أخرجه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهوره أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافيًا لما فرط، واستعدادًا للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

س: اذكر بعض ثمرات الخوف؟

ج: من ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي

المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمًا، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في خالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعًا، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

س: ما هي أحوال الناس مع الخوف؟

ج: الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور. والمحمود من ذلك الاعتدال، وهوبمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضًا محمود، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب دابة قوية فلا يؤلمها ألمًا مبرحًا، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغلب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم

العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهوالخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضًا مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج المرض والوله والموت، وليس ذلك محمودًا، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهومذموم، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذمومًا.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟ فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لومات من غير خوف، إلا أنه لوعاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

س: ما هي أقسام الخوف؟

ج: مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة. وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يسأل عما يفعل.

وقد قال: «**هؤلاء في الجنة ولاأبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**» [أخرجه أحمد (١٧٢٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٥٨)].

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله ﷻ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهوخوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

س: ما العلاقة بين الرجاء والخوف؟

ج: الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولابد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك

س: أيهما ينبغي للإنسان أن يغلبه الخوف أم الرجاء؟

ج: فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهوفضيلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**عينان لا تمسهما النار أبدًا: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» [أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وقال: حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٣٣٢٢)].

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من

مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل، ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثره، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهوأفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يستقى من بحر الرحمة، والخوف يستقى من بحر الغضب.

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلًا واحدًا، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولونودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلًا واحدًا، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصًا بالمؤمن المتقي.

س: كيف يحصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى؟

ج: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله من بذر بذرًا ولم يجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه: «**هل أنا من المنافقين؟**» وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هوالذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه،

والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محبًا لله تعالى، محبًا للقائه، حسن الظن به.

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: «**حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله وأن أحسن الظن به**».

س: كيف يستجلب الخوف؟

ج: حصول الخوف يحصل بطريقين: أحدهما أعلى من الآخر: مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذوالنون: «**خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر**»، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية، تقليدًا لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات،

واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة. ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة ﵂، قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: «**أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله ﷻ خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**» [أخرجه مسلم (٢٦٦٢)].

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفًا لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حق في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلوبهم بالرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

وقال أبوالدرداء ﵁: «**ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه**».

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض وقال: «**والله لذنوبي أهون عندي من**

هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: «**المسلم يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر**».

ويروى: «**أن نبيًا من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله ﷻ إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر**».

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

س: ما هي أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؟

ج: لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، غنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» [أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)].

س: ما هي مراتب سوء الخاتمة؟

ج: سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهي أن يخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصرًا على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روي عن النبي ﷺ، أنه كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠٩٨) وأبوداود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٣)، ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٢٨٢)].

قال الخطابي: وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله ﷻ.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك. أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بأن له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقادًا مجملًا على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفًا، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، وهوحب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قبه حب الله تعالى، أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلًا عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها لإنكار على الله سبحانه في فعله، أو كان مصرًا على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهرًا، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار**» [أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢)].

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ماعاش عليه، ويحشر على ما مات عليه:

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجوأن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف ملائكة الرحمن؟

ج: قال الله تعالى في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وعن يزيد الرقاشي قال: «**إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب** ﷻ: **يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لوأن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر**».

وقال محمد بن المنكدر: «**لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت**». ورروري أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل، وميكائيل

يبكيان، فأوحي الله تعالى إليهما: «ما هذا البكاء؟ قالا: يارب ! ما نأمن من مكرك. فقال: هكذا فكونا».

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف الأنبياء؟

ج: قال وهيب بن الورد: «لما عاتب الله تعالى نوحًا عليه السلام في ابنه فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. بكي ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء».

وقال ابوالدرداء رضي الله عنه: «كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفًا من الله عز وجل».

وقال مجاهد: «لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى يا رب: قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحيبًا هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له».

وقيل: كان داود عليه السلام: «يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل».

وكان عيسى عليه السلام: «إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا».

وبكى يحي بن زكريا عليهما السلام: «حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه».

س: اذكر بعض أخبار خوف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟

ج: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى لهواته إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيمًا وريحًا عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد

عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا» [أخرجه مسلم (٨٩٩)].

وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

س: اذكر بعض صور خوف أصحاب النبي ﷺ و رضي الله عنهم؟

ج: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول: «**هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يل ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل**». وكذلك قال طلحة وأبوالدرداء وأبوذر رضي الله عنهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أيامًا. وأخذ يومًا تبنة من الأرض فقال: «**يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئًا مذكورًا، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء**».

وقال عثمان رضي الله عنه: «**وددت أني إذا مت لا أبعث**».

وقال أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «**وددت أني كنت كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي**».

وقال عمران بن حصين: «**يا ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح**».

وقال حذيفة رضي الله عنه: «**وددت أن لي إنسانًا يكون في مالي، ثم أغلق علي بابي، فلا يدخل علي أحد حتى ألحق بالله عز وجل**». «**وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس رضي الله عنه كالشراك البالي**».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**يا ليتني كنت نسيًا منسيًا**».

وقال علي رضي الله عنه: «**والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا لله عز وجل، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى**

تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين».

س: اذكر بعض أخبار خوف التابعين؟

ج: قال هرم بن حيان: «وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعرًا، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى».

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال: مالك؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟» «وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لايكاد يفتر».

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: «ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه».

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: «أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهومن رخام، فإذا انا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هوساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب».

وقد روينا عن: «عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي أنهما بكيا الدم».

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: «دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئًا من أمر الاخرة، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه».

وقال مسمع: «شهدت عبد الواحد بن زيد وهويعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس».

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيرًا ويقول: «والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته؟!»

وقال السري السقطي: «**إني لأنظر كل يوم إلى أنفي مخافة أن يكون قد اسود وجهي**».

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه، أو يسهو فينهشنه، فهومذعور فافعل. قلت: زدني. فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره. وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهوحقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحونًا بالسباع والهوام، كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطا ووضع في القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب عن يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلًا عن ظاهر بشرته والسلام.

الفقر

س: اذكر فضل بغض الدنيا؟

ج: حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أسباب كل طاعة، وقد سبق ذكر ذم الدنيا، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرًا، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهدًا، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في

الإعانة على الفوز والنجاة، ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما.

س: من هو الفقير؟

ج: الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى.

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال.

س: ما هي أحوال العبد عند فقره؟

ج: يتصور أن يكون للعبد خمسة أحوال عند فقره:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذ بغضًا له، واحترازًا من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهدًا.

الحالة الثانية: ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيًا.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفوًا أوصفوًا أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعًا.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلًا إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون مضطرًا إلى ما قصد من المال، كالجائع، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًا، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية. وأعلى هذه الخامسة: الحالة الأولى، وهي: الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجه لم يفرح

به، ولم يتأذ إن فقده، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين، ففرقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحمًا بدرهم نفطر عليه؟ فقالت: «**لو ذكرتيني لفعلت**».

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: «**اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها**، فقال أبو سليمان: هذا من ضعف الزهد، **هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها**». فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوي النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك، والله أعلم.

س: اذكر بعض الآيات والأخبار في فضيلة الفقر على الغنى؟

ج: أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ ... الآية [الحشر: ٨].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله ﷺ: «**قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون**» [أخرجه البخاري (٦٥٤٧)، ومسلم (٢٧٣٦)]. وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين». وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**» [أخرجه البخاري (٦٤٦٠)،

ومسلم (١٠٥٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض**» [أخرجه البخاري (٥٤١٦)]. وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: «**لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلًا يملأ بطنه**» [أخرجه مسلم (٢٩٧٨)].

وروى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام**» [أخرجه الترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣) كتاب الزهد - باب منزلة الفقراء، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٨٠٧٦)]. وقال الترمذي: حديث صحيح. وقيل لموسى عليه السلام: «**إذا رأيت الفقر مقبلًا، فقل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلًا فقل: ذنب عجلت عقوبته**». وقال أبو الدرداء: «**حساب ذي الدرهمين أشد حسابًا من ذي الدرهم**». وكان الفقراء يتقدمون في مجلس سفيان الثوري على الأغنياء. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: «**تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء؟! لا أفعل**».

وقال النبي ﷺ: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع بما آتاه الله** عز وجل» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤٢٦)، والترمذي (٢٣٤٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٣١)].

س: أيهما أفضل الغني أم الفقير؟

ج: أما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لابد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان متمتعًا بالمال في المباحثات، فالفقير القنوع أفضل منه. وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها

عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوبًا لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يشغله ماله عن الله تعالى، كسليمان عليه السلام، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر. والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء اشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع يذم الغني وفضل الفقر. وقد تقدم ما يدل على فضله.

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوبًا كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

س: اذكر بعض آداب الفقير في فقره؟

ج: ينبغي له أن لا يكون كارهًا لما ابتلاه الله به من الفقر، وأرفع من هذا أن يكون راضيًا فرحًا، ويكون متوكلًا على الله سبحانه، واثقًا به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته، وينبغي

له أيضًا أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل.

س: ما هي آداب الفقير في قبول العطاء؟

ج: إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

الأول: أما في نفس المال، فينبغي أن يكون خاليًا عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه. وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب. وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلبًا للمحبة، وهوالهدية، فلا أس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهوالزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هومستحق أم لا؟ فإن اشتبه عليه فهومحل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارنًا لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لوعلم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لوأعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معينًا له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهومحتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن مستغنيًا لم يأخذه، وإن كان محتاجًا إليه،وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك**» [أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «**من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هورزق ساقه الله إليه**».

س: ما حكم السؤال لغير ضرورة؟

ج: اعلم: أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه. أما الترخيص: فكقوله ﷺ: «**ردوا السائل ولو بظلف محرق**» [أخرجه أحمد (١٧٤٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٠٥)]. ولو كان السؤال حرامًا، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة. وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ﷻ وليس في وجهه مزعة لحم**» [أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضًا: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» [أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣)]. واليد العليا المعطية، والسفلى السائلة.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «**من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا أو كدوحًا في وجهه**» [أخرجه أحمد (٣٦٦٦)، (٤٤١٩٥)، (٤٤٢٦)، وأبوداود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩٩)]. إلى آخره، وفي المعنى أحاديث كثيرة.
وكشف الغطاء في هذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.

والثاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

والثالث: إيذاء المسؤول غالبًا.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة. أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه. وأما المحتاج حاجة مهمة فهوكمن له جبة ولا قميص تحتها في

الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذيًا لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجره يكتري بها للركوب، وتركه أولى. ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة. وينبغي في مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما النفس تطالبني، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل. وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياء، لم يجز له الأخذ، ويجب رده إلى صاحبه. ولا يجوز للفقير أن يسأل غلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه. ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذلك.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغني بخمسين درهمًا، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة، فأما ذو العائلة فلا.

س: اذكر أحوال السائلين للعطاء؟

ج: كان بشر الحافي يقول: «**الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا من الروحانيين. وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.**

وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صدقة في السؤال».

قال الشيخ جمال الدين رَحِمَهُ اللهُ: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يجز له أن يسأل، فإن كان يندفع على مضض، نظرت، فإن

كان مثله لا يحتمل، ولا يخاف منه التلف، فالسؤال مباح وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «**من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار**».

الزهد

س: وضح مقام الزهد وفضله؟

ج: الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبًا فيه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوبًا فيه ولا مطلوبًا في نفسه، لم يسم زاهدًا، ما ترك التراب لا يسمى زاهدًا.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضًا زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في فضل الزهد؟

ج: من فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي ﷺ: «**من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه**

ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة» [أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٩٢٥)، من حديث زيد بن ثابت ﷺ، والترمذي (٢٤٦٥)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٥١٠)].

وقال الحسن: «**يحشر أناس عراة ما خلا أهل الزهد، وقال: إن أقوامًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها**».

وقال الفضيل: «**جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا**».

وكان بعض السلف يقول: «**الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن**».

س: ما هي درجات الزهد؟

ج: من الناس من يزهد في الدنيا وهولها مشته،لكنه يجاهد نفسه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعًا لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئًا له قدر لما هوأعظم قدرًا منه، كما يترك درهمًا لأخذ درهمين، وهذا أيضًا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعًا، ويزد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئًا، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هوالكمال في الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يدًا

عند الملك بلقمة ألقاها على كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله ﷻ، ويمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسيتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولوعمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

س: ما هي أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه؟

ج: أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، على ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يدي الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيمًا لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. وهو أن لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبة في نيل الذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله ﷻ بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

س: ما حكم الزهد في ضروريات الحياة وكيف يكون ذلك؟

ج: الضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول - وهوالمطع - فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: «**إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**» [أخرجه أحمد (٢١٦٠٠)، (٢١٦١٣)، وفي

«الزهد» (ص٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٦٦٨)]. وقالت عائشة ﵂ لعروة: «**كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر**»، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن المطعم، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج.

وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يتقوته، فلا يخرجه ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته.

وورث داود الطائي عشرين دينارًا، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرود، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خشنًا، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روي عن أبي بردة قال: «**أخرجت إلينا عائشة ﵂ كساء ملبدًا، وإزارًا غليظًا، وقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين**» [أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠)].

وعن الحسن قال: «**خطب عمر ﷺ وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة**».

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: أن لا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، مثل كوخ من سعف، أو خص وما اشبه ذلك.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب السعة وعلوالسقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: «**كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نلت السقف**». وفي الحديث: «**إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب**» [أخرجه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١)، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه]. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «**إذا كان البنيان كفافًا، فلا أجر ولا وزر**». وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ. ففي «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع**» [أخرجه مسلم (١٤٧٩)]. وفي رواية البخاري: «**فوالله ما رأيت شيئًا يرد البصر**» [أخرجه البخاري (٥١٩١)]. والحديث مشهور في«صحيح مسلم».

وقال علي رضي الله عنه: «**تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش إلا جلد، كنا نام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها**».

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعًا، ولا أثاثًا. فقال: «**إن لنا بيتًا نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه**».

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته. قال سهل بن عبد الله: «**حبب إلي رسول الله ﷺ النساء**».

وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية.

وكان أبوسليمان الداراني يقول: «**كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم**».

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعين عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء. مختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همه، ويكف بصره، ويرد فكره، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله ﷺ، وحال علي رضي الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمنًا وتبعًا للمقصود. وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن. وقد قال مالك بن دينار: «**يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مرطًا فتمرط دينه**».

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف. «**وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام**».

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمائة دينار، وقال: «**إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني**».

السابع: الجاه، ولابد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

س: ما هي علامات الزهد؟

ج: قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقواه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولابد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعًا، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: «**أفضل الزهد إخفاء الزهد**»، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات.

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحهن وهذه علامة الزهد في الجاه. الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة. فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فمهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟: إلى الأنس بالله.

قال يحيى بن معاذ: «**الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها**». فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه. وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

التوكل

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة التوكل؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقال تعالى﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفًا لا حساب عليهم، ثم قال: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**» [أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)].

وعن عمر بن الخطاب ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

س: ما هي طبقات التوحيد التي ينبني عليها التوكل؟

ج: التوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات: منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهوعلى كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهواعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هوالفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد

على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك. فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقع له الملك بالعفوعنه، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاتب والقلم لا من محرك القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مسبب الفعال لما يريد.

س: ما هو حد التوكل وتعريفه؟

ج: التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية. فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال، وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلًا، فشبه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله. ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقنًا كونه ميتًا جمادًا في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلوا الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضًا، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعًا، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلًا، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان تألهه إلى الله، ونظره إليه، واعتمادًا عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلًا حقًا.

والفرق ين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانيًا عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهي أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتًا، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

س: كيف تكون أعمال المتوكلين؟

ج: قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك بالتدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود

كالادخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تعدوهذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات.

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطًا مطردًا لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تمد يدك إليه وتقول: أن متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعًا دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكًا ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذلك لولم تزرع، وطعمت أن يخلق الله تعالى نباتًا من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهوأن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافرًا إلى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرًا، ولا يستصحب معه شيئًا من الزاد، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلًا إلى المدينة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحًا وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هومن فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر رضي الله عنه: «**المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله**». **الفن الثاني**: في التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوتًا حلالًا يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصًا إذا كان له عائلة. وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: «**كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم**» [أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧)]. فإن قيل: فقد نهى رسول الله ﷺ بلالًا يدخر، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفة كن مقتضاها عدم الادخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة، أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه.

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**» [أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٦٨)].

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضيًا بكل ما يقضي الله عليه. ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو حترز لم يسرق، أو أخذ يشكوما جرى عليه، فقد بان بعده عن التوكل.

وليعلم أن القدر له كالطبيب، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه، وإن منعه فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعني.

واعلم: أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضي بالقضاء، وأحل الآخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق، وأخذ ماله، فقال: إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر، كمداواة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنونًا، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوي وأمر بالتداوي [أخرجه أحمد (١٧٩٨٥)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٣٠)].

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلًا، كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: «**رآني الطبيب. قيل: فما قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد**».

والذي ننصره أن التداوي أفضل، وتحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم

أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات.

واعلم: أن الأدوية أسباب مُسخرة بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يكون السبب موهومًا، كالكي، فيخرج عن التوكل، لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون.

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «**لا يكتوون**» على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافي لئلا يمرضوا، فإن النبي ﷺ كان يرقي الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة ﷺ.

وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضًا بلا عواد. وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: «**بخير. قال حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره**».

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله في، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكرًا لها، ولا يكون ذلك شكوى. وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «**إني أو عك كما يوعك رجلان منكم**» [أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١)].

المحبة

س: اذكر منزلة المحبة لله ﷻ؟

ج: اعلم: أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا هو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: **«ما أعددت لها؟»** قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: **«المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت»** [أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩)]. فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروي أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: **«هل رأيت خليلًا يميت خليلة؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيبًا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض»**.

وقال الحسن البصري رحمه الله: **«من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول ﷺ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه»**.

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقاءه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ، فإن الإنسان إذا عرف ربه، قطعًا أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدمًا محضًا لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، ولذلك قال

الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله ﷻ فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم: ٣٤والنحل: ١٨].

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في كتاب الشكر، ولكنا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز، وأن المحسن في الحقيقة هوالله تعالى.

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصًا أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال. فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكأنه صار مقهورًا في التسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك، فهو جار مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير، فإن الخازن لا يرى محسنًا بتسليم خلعة الأمير، لأنه مضطر إلى طاعته، ولوخلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك. وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل حبةً من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي، ويلقي في نفسه أن حظه في بذل ذلك فيبذله. فينبغي للعارف أن لا يحب إلا الله، إذ الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس، متلطف بهم وهوفي قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد في نفسك ميلًا كثيرًا إليه. فهذا حب المحسن من

حيث إنه محسن، فضلًا عن أن يكون محسنًا إليك. وهذا ما يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هوالمحسن إلى الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى، كما قال تعال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم: ٣٤ والنحل: ١٧]. فكيف يكون غيره محسنًا؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول: كل من كان متصفًا بالعلم، أو بالقدرة أو كان متنزهًا عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعًا، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع انبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته ﷻ.

أما العلم، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عشر ذلك، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهي أيضًا صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكًا، وأقواهم بطشًا، وأجمعهم للقدرة على سياسته نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك

لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تصور أن تحب قادرًا لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهوالواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقًا لا يساهم فيه أصلًا.

س: ما هي أجل اللذات وأعلاها؟

ج: اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولم تخلق هذه الغرائز عبثًا، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيرة

الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة، وذلك لذتها. وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو في شيء خسيس يغتنم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثنى عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هوالأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟! وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهر. فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذة الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمة اختار اللحم والحلواء، وإن كان علي الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر ضرورة القوت أيامًا.

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من الطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله ﷻ والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على

الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللَّذَّتَيْن جميعًا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفتاء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوبًا بالكدر، مقطوعا بالموت. وتعظم عنده معرفة الله ﷻ، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبوسليمان الداراني رحمه الله: إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله ﷻ خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!

وقال بعض أصحاب معروف الكرخي: قلت له: أي شيء أهاجك على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه عرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن الفتح: «**رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجب بينه وبينه**».

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقًا بها، ولا يتلفت إلى جنة، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد لذة القلب في معرفة الله تعالى. وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط.

واعلم: أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار. والقول في سبب كونه حجابًا يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلي لهم الحق ﷻ على قدر معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، ولا يحصد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٤٥)، والدارمي (٢٧٤٢) الترمذي (٢٣٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٢٧٠)]. وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد للطلب، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال.

س: ما هي الأسباب المقوية لحب العبد لربه ﷻ؟

ج: أسعد الناس وأحسنهم حالًا في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه: وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هوجزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات

البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله ﷻ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودبره في سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طلب، وجعل له خرطوما محدّدًا يمص به الدم.

وانظر إلى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار، واحترازها عن الأقدار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذرًا، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبني بيتًا مربعًا، ولا مستديرًا، ولا مخمسًا، بل مسدسًا لخاصيته في الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب: فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فزداد حبًا له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئًا دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله ﷻ

وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفة وحمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنها تحتاج إلى موجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالخفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدوفيه غريزة العقل قليلًا قليلًا، وهو مستغرق الهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس. وكذلك إذا رأى فجأة حيوانًا غريبًا، أو نباتًا،أوفعلًا من أفعال الله تعالى عجيبًا خارقًا للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميعه الحيوانات المألوفة، كلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلًا، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لخيف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة

بنور المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

س: ما معنى الشوق لله تعالى؟

ج: قد تقدم في الكلام على المحبة أن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئًا اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه. فأما ما لا يدرك أصلًا، فلا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقًا إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يومًا: «**يا رب! إن كنت أعطيت أحدًا من المحببين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضر بي القلق**. قال: **فرأيته** ﷻ **في النوم، فقال: يا إبراهيم! أما استحيت مني؟! تسألني أن أعطيك** ما **يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن** قلب المشتاق **قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب**: تهت في **حبك، فلم أدر ما أقول**»، فهذا الشوق يسكن في الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله ﷺ علم رجلًا دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه: «**أسألك اللهم الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقًا إلى لقائك**» [أخرجه أحمد (١٧٨٥٩)، والنسائي

(١٣٠٦، ١٣٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٠١)].

وفي التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا.

وفي بعض ما أوحى الله ﷻ إلى بعض عباده: إن لي عبادًا من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلي، ويذكروني وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يرعون الظلال بالنهار، كما يرعى الراعي الشفيق غنمه؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أو كارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بانعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي.

س: تحدث عن محبة الله تعالى للعبد ومعناها؟

ج: شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾، الآية [الصف: ٤]. ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]. إلى آخره. وهو حديث مشهور.

س: ما هي علامات محبة العبد لله تعالى؟

ج: من علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي ﷺ: «**عظم الجزاء مع عظم**

البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» [أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (١٥٦٦)].

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذلك للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه همًا واحدًا، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

س: وما علامات محبة العبد لربه ﷻ؟

ج: المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشوبة بحب شيء في الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة، وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله تعالى متقربًا إليه بالنوافل. ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما

يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يومًا، فحده، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله**» [أخرجه البخاري (٦٧٨٠)]. فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: «**كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقتني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلًا يقول:**

إن كنت تزعم حبي ... فلم هجرت كتابي

أما تدبرت ما فيـ ... ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روي أن عابدًا عبد الله في غيضه دهرًا، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست

بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدًا.

«إذن علامة المحبة، كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مرارًا، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. قال ثابت البناني رَحِمَهُ اللَّهُ: «**كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة**».

وقال الجنيد: «**علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه**»، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقًا على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل، ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شفيقًا على جميع عباد الله، رحيمًا بهم، شديدًا على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨]. فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ومنها أن يكون في حبه خائفًا بين

الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

س: ما معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ﷻ؟

ج: من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: «**قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لوذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك، قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة، قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم، فصار همًّا واحدًا في الطاعة**».

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهوكمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، قد يثمر نوعًا من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكرًا في الصورة، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان محتملًا ممن أقيم مقام الأنس. وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يومًا، فاستقبله رجل مدهوش، فقال: مالك؟ قال: ضل حماري، ولا أملك غيره، فوقف أبوحفص وقال: وعزتك لا أخطوخطوة ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار. وروي عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: «**يارب: أنت بالبخل لا ترمي، أنفذ ما عندك، اسقنا الساعة**».

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره، وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهومن أعلى مقامات المقربين، وهومن ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا

ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

الرضا

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟

ج: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: «**إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي**».

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيبًا، فقال: «**يا عدي: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابناي، وفقئت عيني فقال: يا عدي! من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله**».

ودخل أبوالدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبوالدرداء: «**أصبت، إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به**». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**». وقال علقمة في قوله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال: «**هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى**».

وقال أبومعاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال: «**الرضى والقناعة**».

وفي الأخبار السالفة: أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد

أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي، لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة. وفي «زبور داود» عليه السلام: **«هل تدري من أسرع الناس مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري»**. وقال داود عليه السلام: **«يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض»**. وقال عمر بن عبد العزيز: **«ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر. وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله ﷻ»**. وقال الحسن: **«من رضي بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه»**. وقال عبد الواحد بن زيد: **«الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين»**. وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إحن

ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

س: هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟

ج: يتصور الرضا فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضيًا به، راغبًا في زيادته بعقله، وإن كان كارهًا له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منه الحجام.

وكذلك كل من يسافر في طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضيًا بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه، ويبطل

الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقًا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجنيد رَحِمَهُ اللهُ: «**سألت سريًا: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا**». وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لوقطعنا إربًا إربًا، ما ازددنا له إلا حبًا.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور في حب الخلق، كما حكى بعضهم. قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء، فبينما هو يحرك القدر، **قالت**: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهولا يعلم. ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسسن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلًا، وإذا كان ذلك ممكنًا في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكنًا في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أحدها: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره. وقد قال النبي ﷺ: «**ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيرًا له**».

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: «**إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هوقد خير له**».

وعن مسروق قال: «**كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب، فحزنوا،**

فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوب والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم».

وعن سعيد بن المسيب قال: «قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني: فإن الله قد بعث نبيًا هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أيامًا وليالي، حتى تلفتهما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطآ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشيًا عليه، فحانت من لقمان التفاته، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا ابت: أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟!

وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجمع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيرا لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئًا، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئًا، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحًا. فلم يزل

يرمقه بعينه حتى كان منه قريبًا، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟، ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل ﷺ بيده على قدم الغلام، فاستوى قائمًا، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعامًا، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلأ ماء، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام الليالي».

الوجه الثاني: الرضا بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالقصد والحجامة وشرب الأدوية انتظارًا للشفاء.

الوجه الثالث: الرضا به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضي محبوبه، ولوكان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقده من نفسه، لأنه إنما فقده لفقد سببه، وهوفرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات، فمن فقد القلب، فلابد أن ينكر هذه اللذات التي لا يمظنة لها سوى القلب.

س: هل الدعاء يناقض الرضا؟

ج: الدعاء لا يناقض الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم. وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جدًا.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هاتين الحالين.

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فرأوا السكوت عن الإنكار مقامًا من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا توارد على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضًا عدو لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليمًا للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتًا عند الله تعالى وبغيضًا عنده، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهومن هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معيارًا صادقًا، وهوأني أقصد إلى فلان فأضربه ضربًا شديدًا يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا، فكل من أحبه علمت أنه أيضًا عدولي، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصديقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل

البغض الذي هوسبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول: أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله ﷻ دواعي الشهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ﷻ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضًا إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي.

ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «**لويعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إلي، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي**».

وكانت امرأة متعبدة تقول: «**والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقًا إلى الله تعالى، وحبًا للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟**

قالت: لا، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟».

النية

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [أخرجه البخاري، ومسلم (١٩٠٧)].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». أخرجاهما في «الصحيحين».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد خلفتهم بالمدينة رجالًا، ما قطعتم واديًا، ولا سلكتم طريقًا، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض**» [أخرجه مسلم (١٩١١)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)].

وعن أبي كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالًا وعلمًا، فهويعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا، وهو يقول: لوكان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،**

قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالًا ولا علمًا، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ: فهما في الوزر سواء» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٧٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨) كتاب الزهد، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٦٤)].

وعن أبي عمران الجوني قال: «**تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيرًا وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادي الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يارب: إنه لم يعمله، فيقول ﷻ: إنه قد نواه**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى**».

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملًا لله تعالى، فقيل له: أنو الخير، فإنك لا تزال عاملًا وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوى أن يصلي بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: «**ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه**» [أخرجه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترهيب والترغيب» برقم (٦٠٠)].

س: ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟

ج: النية، والإراة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

س: إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟

ج: اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: **القسم الأول**: المعاصي، فلا تتغير

عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجدًا بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا، هيهات!.

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهما اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلًا بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهوأن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات،

تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة. ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه. وقال بعض السلف: إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هوسبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطييب قلبه أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئًا من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضًا.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهرلها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أو صينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تتيسر

لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلًا عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حبًا له. وقد حكي أحمد بن خضرويه أنه رأي رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لَوْ مَلَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لوترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذ. قال علي ﷺ: روحوا القلوب، واطلبوا له طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، معالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الإخلاص

س: اذكر طرفًا من أهمية الإخلاص وفضله؟

ج: اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكي، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن النية أولًا، لتحصل له المهرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٤]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

ويروى عن الحسن قال: «**كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضبًا لله، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله.**

قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئًا، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: كذبت، مالك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضبًا لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضبًا للدينارين، فسلطت عليك».

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «يا نفس أخلصي وتخلصي». وقال أبوسليمان: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى». وحكي أن رجلًا كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يومًا موضعًا فيه مجمع النساء، فسرقت درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرة، فقد وجدنا الدرة.

س: وضح حقيقة الإخلاص؟

ج: كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصًا.

والإخلاص يضاد الإشراك، فمن ليس مخلصًا، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية.

والشرك منه جلي، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم بابه، وإنما نتكلم الآن انبعث لقصد التقرب، لكن امتزج بهذا الباعث

باعث آخر، إما من الرياء، أو غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى:

قيل لسهل: أي شيء على النفس؟ قال: «**الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب**».

واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه. ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل، فليطلب هناك، وحاصلة أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

س: ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟

ج: أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب، ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس.

وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثوابًا أو عقابًا، أو لا يقتضي شيئًا أصلًا؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفساني تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجًا ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هوالمحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلًا، والله تعالى أعلم.

الصدق

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟

ج: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**» [أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)].

وقال بشر الحافي: «**من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس**».

س: ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟

ج: لفظ الصدق قد يستعمل في معان: أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعاريض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزة ورى بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله [أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)]. وقال ﷺ: «**ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا، أو نمى خيرًا**» [أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)]. وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفًا عن الله مشغولًا بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذبًا كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد، لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالًا تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت: الحقائق، وانحلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٣]﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته، حتى لا تدل

أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: «**إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله ﷻ: هذا عبدي حقًّا**».

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوٓاْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب للخوف مثلًا فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطانًا كيف يصفر ويرتعد خوفًا من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: «**عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربها**».

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًا. فلا غاية لهذا المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكلٍ حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقًا، وإذا علم الله من عبد صدقًا صغا له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعًا، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

المحاسبة والمراقبة

س: اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن

سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]. فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

س: اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟

ج: قد تحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن منقلبه. ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته. فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولًا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة.

س: تحدث عن المشارطة وأثرها في المحاسبة؟

ج: اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلبًا للربح، ويشارطه ويحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما

شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها. فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس، ما لي بضاعة إلا العمر، فإذا في مني رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخر أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، ويناله، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته. ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها

رعايا خادمة لها فيه هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء. فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغني عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير. وأما البطن، فيكلفه ترك الشره، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئًا من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاه ذلك يطول، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة، وفي النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك، فيستغني عن المشارطة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمالنا الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»**.

وقال عمر رضي الله عنه: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر** ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ » [الحاقة: ١٨].

س: وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟

ج: إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله ﷺ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» [أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)]. أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: «**ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال**: من **سنور كانت لنا، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة**».

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حركه عليه هوى النفس أوالمحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: «**رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر**». فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهوأن يكون مخلصًا فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب ابن منبه في حكمة آل داود: «**حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقوة. وهذه الساعة التي هو مشغولٌ فيها بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو**

تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح».

س: وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل، ولذلك قال عمر ﷺ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: «**المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله**».

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ﷻ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم. ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المالس، وفي الربح، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولًا على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط. قيل: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هوابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي للعبد

أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لورمى بكل معصية يفعلها حجرًا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المسلم إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيرًا، أوفعلت شيئًا من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روي عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: «**إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين**». قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه: «**أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين**».

وحكي أن: «**تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع**».

ومر حسان بن سنان بغرفة فقال: «**متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها**».

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله،مثال ذلك: ما حكي أن رجلًا من بني إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حول رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي.

فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزًا في شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكي عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة،

فلطم عينه حتى نفرت. وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديدًا، وأنه وجد في نفسه توقفا عن الغسل، فآلى ألا يغتسل إلا في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلًا. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا.

س: تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟

ج: إذا حاسب العبد نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع. وقال ابن المبارك: «**إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهًا**».

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله. قال بعضهم: «**كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعًا**». «**وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة**». «**وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر**»، «**وحج مسروق فما نام إلا ساجدًا**». «**وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية**». «**وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات**»، «**وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلي يبكيان الدم**»، وصلى أربعون نفسًا من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: «**علم صدق باطني فأعانني على ظاهري**». ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: «**إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدًا والله يا إخوتاه! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له في أيام**

حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناي».

س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟

ج: قال أبو بكر الصديق ﷺ: «**من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته**». وقال أنس ﷺ: «**سمعت عمر بن الخطاب ﷺ ودخل حائطًا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك**». وقال البختري بن حارثة: «**دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات**». وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأوف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها.

وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أوالنار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أوفي غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت.

فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أوقربي أصبعك من النار، يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة

منعت أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لتنعم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبدًا؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا.

وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد طول، أم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أونحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفًا من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طوال، وأعدي الجواب للسؤال. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسير. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

التفكر

س: اذكر أهمية التفكر وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟

ج: قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله ولاتفكروا في ذات الله**» [أخرجه أبوالشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر

ﷺ. والحديث حسنه الشيخ [illegible] في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨)]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**تفكر ساعة خير من قيام ليلة**». وقال وهب بن منبه: «**ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل**». وقال بشر الحافي: «**لوتفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه**». وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، قال: «**أمنع قلوبهم من التفكر في أمري**». وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فوقع في دار جار له، فوثب عريانًا وبيده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: «**ما شعرت بذلك**».

وقال يوسف بن أسباط: «**إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لنظر بها إلى الآخرة**». «**وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم**». وقال أبوبكر الكتاني: «**روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين**».

س: في ماذا يكون الفكر؟

ج: الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه. وينبغي لكل طالب أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع.

وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلًا، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المسلم المشمر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ.

ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها. ومن أحس من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه.

وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولومت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه،

نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

س: ما حكم التفكر في ذات الله ﷻ؟

ج: قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «**تفكروا في آلاء ولا تفكروا في ذات الله**» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر ﷺ. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨)] فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أوتتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأما التفكر في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ... الآيات [آل عمران: ١٩٠]. وقوله ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان في نفسه، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك.

وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر: وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء؟ وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على

الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة. ومن آياته وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب.

وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف. وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في

هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال.

الموت

س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وأثره على الحياة؟

ج: اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتديء، أو عارف منتبه. فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشتغل بذمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعدًا.

وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أوقبل إصلاح الزاد، وهومعذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ: «**من كره لقاء الله كره الله لقاءه**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)، من حديث عائشة ﵂]. فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهًا للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا. وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائمًا، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت. ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقه. فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله

تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل تكون الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضى، وهوالغاية والمنتهى. وعلى كل حال، ففي ذكر الموت ثواب وفضل، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره.

س: اذكر بعض ما ورد في فضل ذكر الموت؟

ج: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت**». وعن ابن عمر ﷺ: أن النبي ﷺ سئل: أي المؤمنين أكيس، قال: أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس» [أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (٨٦٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٩٩٣)، (١٠٥٥٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٣٨٤)]. وقال الحسن البصري: «**فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لب فيها فرحًا، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها**».

«**وكان ابن عمر ﷺ إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة**». وكان حامد القيصري يقول: «**كلنا قد أيقن الموت، وما نرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملًا، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفًا، فعلام تفرحون؟! وما عسيتم تنتظرون؟! الموت، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير، أو بشر، فيا إخوتاه! سيروا إلى ربكم سيرًا جميلًا**».

وقال سميط بن عجلان: «**من جعل الموت نصب عينيه، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها**». واعلم: أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطرة، أويركب البحر، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك. وأنفع طريق في ذلك ذكر

أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**السعيد من وعظ بغيره**» [أخرجه مسلم (٢٦٤٥)]. وقال أبوالدرداء رضي الله عنه: «**إذا ذكر الموتى، فعد نفسك كأحدهم**». وينبغي أن يكثر دخول المقابر، ومتى سكنت نفسه إلى شيء في الدنيا، فليتفكر في الحال أنه لابد من مفارقته، ويقصر أمله. وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل**» [أخرجه البخاري (٦٤١٦)].

وكان ابن عمر يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**». وعن أبي زكريا التيمي قال: «**بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام، إذ أتي بحجر منقوش، فطلب من يقرأه، فإذا فيه: ابن آدم! لورأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنم يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد والنسب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة**».

س: ما هي أسباب طول الأمل؟

ج: السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه، فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوف بذلك

ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن يصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أويرجع من هذه السفرة. فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته. وأكثر صياح أهل النار من «**سوف**» يقولون: واحسراتاه! من «**سوف**». وأصل هذه الأماني كلها، حب الدنيا والأنس بها، والغفلة. السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لوعدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أوكهل أوغيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت.

س: ما هي أحوال الناس مع طول الأمل؟

ج: الناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتًا كثيرًا، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل، فروي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: «بلغت ثلاثين ومائة سنة، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو».

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت: «**كان يقول لي - يعني أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا، واصنعي كذا وكذا، فقيل لها: أري رؤيا؟ قالت: هكذا يقول كل يوم**».

وعن إبراهيم بن أسباط قال: «قال لي أبوزرعة: **لأقولن لك قولًا ما قلته لأحد سواك: ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة، فحدثتني نفسي أن أرجع إليه**».

وقيل لبعضهم: ألا تغسل قميصك؟ قال: الأمر أعجل من ذلك.

وعن محمد بن أبي توبة قال: «**أقام معروف الكرخي الصلاة ثم قال لي: تقدم، فقلت: إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها، فقال معروف: أنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل**».

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل، وكلما قصر الأمل، جاد العمل، لأنه يقدر أن يموت اليوم، فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه ففي «**صحيح البخاري**» عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ**» [أخرجه البخاري (٦٤١٢)].

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٦)، من حديث ابن عباس ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٧٧)].

وقال عمر ﷺ: «**التؤدة في كل شيء خير، إلا ما كان من أمر الآخر**». وكان الحسن يقول: «**عجبًا لقوم أمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحبس أولهم على آخرهم، وهم قعود يلعبون**». وقال سحيم مولى بني تميم: «**جلست إلى عبد الله بن عبد الله، فأوجز في صلاته، ثم أقبل علي وقال: أرحني بحاجتك، فإني أبادر، فقلت: وما تبادر؟ قال: ملك الموت. وكان يصلي كل يوم ألف ركعة**».

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن، «**فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ**

ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي، ثم يغفي إغفاء الطير، ثم يقوم يصلي، يفعل ذلك مرارًا». «**وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مائة ألف تسبيحة**»، وقال أبوبكر بن عياش: «**ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة**».

س: اذكر بعض ما ورد في شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده؟

ج: لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب، ولا هول سوى الموت، لكان جديرًا أن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، وتطول فيه فكرته. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات، لكدرت عليه عيشه ولذته، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو غافل عن ذكر ذلك، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور.

اعلم: أن الموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه، لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتُجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجيًا، فتبرد أولًا قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر**» [أخرجه أحمد في مسنده (٦١٢٥)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٩٠٣)]. وفي «الصحيحين» من حديث عبادة بن الصامت: قال رسول الله ﷺ: «**إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الأهوال**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)].

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف،

وهو لائق بهذا المكان، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يلطف بنا، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم. وأما ما يستحب من الأحوال عند المتحضر، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحًا. ويستحب تلقينه: لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**» [أخرجه مسلم (٩١٦)]. وينبغي للملقن أن يرفق به، ولا يلح عليه.

وفي الحديث الصحيح: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**» [أخرجه مسلم (٢٨٧٧)]. وروي أن النبي ﷺ دخل على رجل وهو يموت فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال: «**ما اجتمعتا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمنه من الذي يخاف**» [أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٣٨٢٨)]. والرجاء عند الموت أفضل، لأن الخوف سوط يساق به، وعند الموت يقف البصر، فينبغي أن يتلطف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه، ويخوفه فيما بين يديه، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو.

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت: «**يا بني! حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به**».

س: كيف كانت وفاة رسول الله ﷺ؟

ج: اعلم: أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في كل أحواله، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب إلى الله تعالى منه، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله. وقد لقي ﷺ من الموت شدة، فروى البخاري في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة فيه ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**» [أخرجه البخاري

(٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)].

وقال أبو بكر رضي الله عنه:

لما رأيت نبينا متجندلاً ضاقت علي بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام واله والعظم مني واهن مكسور
أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى وبقيت منفردًا وأنت حسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غيبت في جدث علي صخور

س: اذكر ما ورد في وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟

روي أبو المليح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر رضي الله عنه فقال: «**إني أوصيك بوصية، إن أنت قبلت عني: إن لله عز وجل حقًا بالليل لا يقبله بالنهار، وإن لله حقًا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقلت ذلك عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلًا، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل، وخفته عليهم في الدنيا، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفًا.**

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة، وآية الشدة عند آية الرجاء، ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يلقي بيديه إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله غير الحق. فإن أنت حفظت وصيتي هذه، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت، ولابد لك منه، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت، ولابد لك منه ولست تعجزه».

«وقيل لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. انظروا ثوبي هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت».

س: وماذا عن وفاة عمر الفاروق ﷺ؟

ج: عن ابن عمر قال: «**كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن، وكان مرضه الذي توفي فيه، فقال**: ضع خدي على الأرض، **فقلت**: وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض؟ **وظننت أن ذلك تبرم به، فلم أفعل، فقال**: ضع خدي على الأرض لا أم لك، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي».

وروي أنه لما طعن وحمل إلى بيته، وجاء الناس يثنون عليه، جاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك، صحبة من رسول الله ﷺ، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، فقال: «**ودت أن ذلك كان كفافًا، لا لي ولا علي**»، ثم قال: **يا عبد الله بن عمر، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل**: أمير المؤمنين، **فإني لست اليوم للمؤمنين أميرًا**، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه، **فمضى وسلم واستأذن عليها، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي، فقال: عمر يقرأ عليك السلام، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه، فقالت**: كنت أريده لنفسي، **لأوثرنه اليوم على نفسي**.

فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما وراءك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين؛ أذنت. قال: الحمد لله، ما كان شيء أحب إلي من ذلك، فإذا أنا مت فاحملوني، ثم سلم، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت، فأدخلوني، وإن ردتني، فردوني إلى مقابر المسلمين» [أخرجه البخاري (٣٧٠٠)].

وفي أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة، أن عمر قال: «**والله لو أن لي طلاع الأرض ذهبًا، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه**».

وفي خبر آخر: «والله لوأن لي ما طلعت عليه الشمس أوغربت، لافتديت به من هول المطلع».

س: اذكر بعض ما ورد في وفاة عثمان رضي الله عنه؟

ج: عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه، قالت: «لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان، ظل في اليوم الذي قبله صائمًا، فلما كان عند إفطاره، سألهم الماء العذب فلم يعطوه، فنام ولم يفطر، فلما كان وقت السحر أتيتُ جارات لي على أجاجير متصلة، فسألتهم الماء العذب، فأعطوني كوزًا من ماء، فأتيته فحركته فاستيقظ، فقلت: هذا ماء عذب، فرفع رأسه فنظر إلى الفجر، فقال: إني قد أصبحت صائمًا، وإن رسول الله ﷺ اطلع علي من هذا السقف ومعه ماء عذب، فقال: اشرب يا عثمان! فشربت حتى رويت، ثم قال: ازدد، فشربت حتى نهلت، ثم قال: إن القوم سينكرون عليك، فإن قاتلتهم ظفرت، وإن تركتهم أفطرت عندنا. قالت: فدخلوا عليه من يومه فقتلوه».

وعن العلاء بن الفضيل، عن أبيه، قال: «لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته، فوجدوا فيها صندوقًا مقفلًا ففتحوه، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها: هذه وصية عثمان، بسم الله الرحمن،عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه، إن الله لا يخلف الميعاد، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى».

س: وكيف كانت وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟

ج: عن الشعبي، قال: «لما ضرب علي رضي الله عنه تلك الضربة، قال: ما فُعل بضاربي؟ قالوا: أخذناه، قال: أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها، ثم أوصى الحسن أن

يغسله وقال: لا تغالي في الكفن، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلبًا سريعًا، امشوا بي بين المشيتين لا تسرعوا بي، ولا تبطئوا، فإن كان خيرًا عجلتموني إليه، وإن كان شرًّا ألقيتموني عن أكتافكم».

وروي أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي رضي الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول:

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه».

س: اذكر بعض ما نقل عند موت بعض من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم؟

ج: لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرج فقال: اللهم إني أحتسب نفسي عندك، فإني لم أصب بمثلها».

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال: «انظروا هل أصبحنا؟ فأتي فقيل: لم تصبح، حتى أتي في بعض ذلك، فقيل له: لقد أصبحنا، فقال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، ثم قال: مرحبًا بالموت زائر مغيب، وحبيب جاء على فاقة، والله إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لطول ظمأ الهواجر، وقيام لليل الشتاء، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وقال أبومسلم: «جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول: ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ثم قبض رحمه الله».

وبكى سلمان الفارسي عند موته، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «عهد إلينا رسول

الله ﷺ أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب، وحولي هذه الأزواد، وقيل: إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة».

وروى المزني قال: «دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت الرجا مني بعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته   بعفوك ربي كان عفوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل   تجود وتعفو منة وتكرما»

قيل: كان أبوالدرداء رضي الله عنه يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك، فقال: «أجلس إلى قوم يذكروني معادي، وإن غبت لم يغتابوني».

وقال ميمون بن مهران: «خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل علي فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوام مقيلًا في أبدانهم؟ ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله تعالى».

س: ما حكم زيارة القبور؟

ج: تستحب زيارة القبور، فإن النبي ﷺ قال: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» [أخرجه مسلم (٩٧٦)].

س: ما هي حقيقة الموت؟

ج: الذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت، هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما معذبة أو منعمة، فإن الروح قد تتألم

بنفسها بأنواع الحزن والغم، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها، يبقى معها بعد مفارقة الجسد، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد. ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده.

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به، ويستريح إليه، عظمت حسرته عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلي بينه وبين محبوبه، وقطعت عنه العوائق والشواغل، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى.

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفًا في حال الحياة، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفًا له عند النوم، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته، وقد كان ذلك مسطورًا في كتاب مطوي في سر قلبه، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فلما انقطعت انكشف له جميع أعماله، فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسرًا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة، وكل ذلك ينكشف له عند الموت، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن، نسأل الله العافية. ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. قال مسروق: «**سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**» [أخرجه مسلم (١٨٨٧)]. وذكر تمام الحديث. وجاء في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. أخبر أنهم يعذبون بعد الموت. وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم إذا مات، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**» [أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)]. وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألمًا عظيمًا، فأما المؤمن، فقال عبد الله بن عمر: «**مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض، ويتقلب فيها**».

وهو كلامٌ صحيح، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له بابٌ إلى بستان واسع الأكناف، فيه أنواع الأشجار، فلا يسره الرجوع إلى الدنيا كما لا يسره العود إلى بطن أمه. وقال مجاهد: «**إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه**».

القبر

س: اذكر بعض ما ورد في ذكر القبر وضمته؟

ج: وعن أنس بن مالك أن نبي الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله ﷻ به مقعدًا في الجنة. قال رسول الله ﷺ: فيراهما جميعًا. وأما الفاجر أوالمنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**» أخرجاه في «الصحيحين» [أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)].

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «**أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل - أوقال قريبًا من - فتنة المسيح الدجال، يقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسول . . .** » [أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥)]. وذكر باقي الحديث.

وعن ابن عباس قال: لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها، التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره، ولوكان منفلتًا منها أحد لانفلت سعد** بن معاذ» [أخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، (٢٤١٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٨٠)]. وذكر باقي الحديث. قال كعب: «**إذا وضع الرجل الصالح في قبره، احتوشته أعماله الصالحة: الصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، والصدقة. قال: وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله ﷻ، قال: فيأتونه من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه فقد أطال بي الصيام. قال: فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه، وأتعب بدنه، وحج وجاهد لله ﷻ، لا سبيل لكم عليه.**

فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: هنيئًا طبت حيًا، وطبت ميتًا. قال: وتأتيه ملائكة الرحمة، فتفرشه فراشًا من الجنة ودثارًا من الجنة، فيفسح له في قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره».

وقال المروزي: «**رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة، وعليه حلتان خضراوان، وعلى رأسه تاج من النور، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له، فقلت: يا أحمد! ما هذه المشية التي لم أكن أعهدها لك؟ فقال: هذه مشية الخدام في دار السلام. فقلت: وما هذا التاج الذي أراه على رأسك؟ فقال: إن ربي ﷻ أوقفني**

وحاسبني حسابًا يسيرًا، وكساني وحباني وقربني، وأنا أنظر إليه، وتوجني بهذا التاج وقال لي: يا أحمد! هذا تاج الوقار توجتك به، كما قلت: القرآن كلامي غير مخلوق».

س: ما هي أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة أو النار؟

ج: قد أشرنا إلى أهوال القبر، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط، وهذه أهوال يجب الإيمان بها، وينبغي تطويل الفكر فيها، وكثيرٌ من الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات، ثم قيل له: إن صانعًا يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك، فخلقه عليما فيه من الأعاجيب، يزيد على بعثه وإعادته. وكيف ينكر ذلك - من قدرة الله تعالى وحكمته - من يشاهد البداية؟ فإن كان في إيمانك ضعف، فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى، فإن الثانية مثلها وأسهل منها، وإن كنت قوي الإيمان بها، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار، وأكثر فيها التفكر والاعتبار، وليحثك ذلك على الجد والتشمير. وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور. فصور نفسك وقد قمت ذاهلًا مبهوتًا شاخصًا نحو النداء. قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته، وأصغى بسمعه، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ؟!»** قال المسلمون: كيف نقول يا رسول الله؟ قال: **«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وتوكلنا على الله»** [أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠١)، والترمذي (٢٤٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٧٨)].

ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة، فيساقون بعد البعث حفاة عراة إلى أرض

المحشر، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الإنسان بفنائها. وفي «الصحيحين» قال النبي ﷺ «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي**» [أخرجه البخاري (٦٥٢١)]. ثم تفكر في ازدحام الناس، وقرب الشمس من رؤوسهم، وشدة العرق، مع ما في القلوب من القلق.

وفي الحديث: «**إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم**» [أخرجه مسلم (٢٨٦٤)].

وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان، فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله**».

وعن أبي برزة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه**» [أخرجه الدارمي في سننه (٥٣٧) والترمذي (٢٤١٧)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧٣٠٠)].

وعن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر ﷺ، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ﷻ يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم: قال: ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**» [هود: ١٨] [أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨)]. وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز؟**» [أخرجه البخاري (٧٤٣٨)، ومسلم (١٨٢)]. وفيهما أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «**يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قالوا: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال:**

مدحضة مزلة، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك، يمر المؤمنون عليه كالطرف، وكالبرق الخاطف، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، وناج مخدوش، حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا» [أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)].

جهنم

س: اذكر بعض ما ورد في جهنم وأهوالها أعاذنا الله وإياكم منها؟

ج: عن أبي هريرة ﷺ، قال: كنا عند النبي ﷺ يومًا، فسمعنا وجبة، فقال النبي ﷺ: «**أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها**» [أخرجه مسلم (٢٨٤٤)]. رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلها مثل حرها**» [أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (١٨٣)].

وفي أفراد مسلم، من حديث ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يؤتى بجهنم يؤمئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**» [أخرجه مسلم (٢٨٤٢)]. وعن أبي الدرداء ﷺ قال: «**يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم، ينالونه بكلاليب من حديد، فإذا دنا منهم شوى وجوههم، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم، فيطلبون إلى خزنة جهنم: أن: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيجيبونهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾** [غافر: ٤٩] **فيقولون:**

سلوا مالكًا، فيقولون: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ **فيقول** ﷻ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨]. **فعند ذلك ييأسون من كل خير، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور**».

«وتفكر في حياتها وعقاربها كالبغال الموكفة». وعن الحسن: «**أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا**».

واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من **ذلك** ينبغي أن يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمنًا بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفًا يمنع عن المعاصي، ويحث على الطاعة. فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلم، وهم مع **ذلك** مصرون على القبائح، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن، فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

الجنة

س: اذكر بعض ما ورد في نعيم الجنة وعظمه نسأل الله العظيم من فضله؟

ج: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه**» [أخرجه أحمد (١٣٤٠)، والترمذي (٢٥٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٣٠)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**إن الله** ﷻ **قال**:

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤)].

وفيهما أيضًا من حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة الألنجوج، أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء**» [أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤)]. وفي رواية أخرى: «**لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم، على قلب واحد، يسبحون الله بكرةً وعشيًا**».

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**» [أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠)]. وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة، عرضها ستون ميلًا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن**» [أخرجه البخاري (٣٢٤٣)، ومسلم (٢٨٣٨)].

واعلم: أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطًا في مواضع من القرآن، ثم جمعه في آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وصفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على ما ذكرنا نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهلها ووالدينا ومن نحب.

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى. وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ فقال: «**فهل تضامون في القمر ليلة البدر**

ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، قال: «**فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك**» [أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)].

سعة رحمة الله تعالى

س: تحدث عن سعة رحمة الله ﷻ نسأل الله من فضله؟

ج: ليس لنا أعمال نرجو بها العفو، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه. قال الله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قضى الله ﷻ الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي**» [أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١)].

وعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**إن لله ﷻ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس والجن والهوام والبهائم، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها. وأخر تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عبادة يوم القيامة**» [أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم تبارك وتعالى رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أويمحوها الله، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك**» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، والدارمي (٢٧٨٦)، واللفظ له]. وعن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة، فجزاء سيئة مثلها أوأغفر، ومن اقترب إلي شبرًا اقتربت إليه ذراعًا، ومن اقترب إلي ذراعًا اقتربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**» [أخرجه مسلم (٢٦٨٧)].

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أن رجلًا أذنب ذنبًا فقال: «أي رب! أذنبت ذنبًا فاغفر لي، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: أي رب! عملت ذنبًا فاغفره لي، فقال ﷻ: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي. ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر فقال: أي رب! عملت ذنبًا فاغفره لي، فقال: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء» [أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)]. هذه الأحاديث كلها صحاح.

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبين وإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا والله. قال: «لله ارحم بعباده من هذه المرأة بولدها» [أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، وإن زنى وإن سرق! وإن زنى وإن سرق» ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر» [أخرجه البخاري (٦٤٤٤)، ومسلم (٩٤)].

وفيهما من حديث عتبان بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله حرم النار على من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» [أخرجه البخاري (٥٤٠١)، ومسلم (٣٣)]. وفيهما من حديث أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ: أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير وزن برة، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة» [أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣)].

وعن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتي بيهودي أونصراني حتى يدفع إليه فيقال له: هذا فكاكك من النار**» [أخرجه مسلم (٢٧٦٧)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ يستخلص رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا، كل سجل منها مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أوحسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول أحضروه، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله ﷻ**» [أخرجه أحمد (٦٩٥٥)، والترمذي (٢٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٧٦)].

ونظر الفضيل بن عياض إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال: أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل يسألونه دانقًا، أكان يردهم؟ فقيل: لا، فقال: والله المغفرة عند الله ﷻ أهون من إجابة رجل لهم بدانق!.

وعن إبراهيم بن أدهم قال: خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر، فلم أزل أطوف إلى السحر، ثم رفعت يدي إلى السماء. فقلت: اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره. فإذا قائل يقول في الهواء: أنت تسألني العصمة، وكل خلقي يسألني العصمة، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل؟

فهذه الأحاديث وغيرها كثير، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده. ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه، وأن يتفضل علينا بما هو أهله. ونحن نستغفر الله ﷻ من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تَصنع تزينا به للناس،

وكل علم وعمل قصدناه، ثم خالطه ما يكدره، فبكرمه نستشفع إلى كرمه، وبجوده نسأل من جوده، إنه قريب مجيب.

الشفاعة

س: اذكر بعض ما ورد في شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة الصالحين من أمته؟

ج: كن في الدنيا محبًا لرسول الله ﷺ، حريصًا على تعظيم سنته، لعله يشفع فيك في الآخرة، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل الله في أهل الكبائر من أمته فينجيهم. واستكثر من الإخوان الصالحين، فلكل مؤمن شفاعة، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمى ذلك رجاء، فإن من رجا شيئًا طلبه، واحترز من المظالم، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها، فإن غرماء يحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظلمني، وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: أساء جواري، وهذا يقول: غشني، فلا خلاص لك من أيديهم، فإذا توهمت الخلاص قيل: لا ظلم اليوم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة**» [أخرجه البخاري (٦٥٣٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس**»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**» [أخرجه البخاري]. وعن

أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**» [أخرجه مسلم (٢٥٨٢)]. وهذه الأحاديث كلها في الصحاح. فانظر وفقك الله إلى بعد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة، فإن سلمت أخذها الخصوم، فتيقظ لنفسك، ولا تفرط في أوقاتك، فإن المسكين من آثر لذة متقطعة، واشترى بها عذابًا شديدًا دائمًا. نسأل الله السلامة والتوفيق.

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

الفهرس التفصيلي

الفهرس التفصيلي

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل العلم والعلماء؟ ٣٧
س: وما هو العلم الواجب تعلمه على كل مسلم ومسلمة؟ ٣٩
س: ما هي أقسام العلوم المحمودة؟ ٤٢
س: وضح بعض آداب المتعلم؟ ٤٤
س: وما المقصود بعلماء السوء؟ ٤٥
س: وما هي صفات علماء الآخرة؟ ٤٦
س: ما هي مراتب الطهارة؟ ٤٨
س: وما هي أنواع إزالة الفضلات؟ ٤٩
س: تحدث عن فضل الصلاة؟ ٤٩
س: اذكر طرفًا من خشوع السلف في الصلاة؟ ٥٠
س: وما هو روح الصلاة؟ ٥٠
س: ما هي المعاني التي يتم بها الخشوع في الصلاة؟ ٥١
س: اذكر بعض الآداب المتعلقة بيوم الجمعة وصلاة الجمعة؟ ٥٣
س: ما هي الأوقات المنهي عن التطوع بالصلاة فيها؟ ٥٥
س: ما هي أسرار النهي عن صلاة التطوع في أوقات الكراهة؟ ٥٥
س: تحدث عن أهمية الزكاة ومنزلتها في الإسلام؟ ٥٦

س: ما هي شروط الزكاة؟ ٥٦
س: اذكر بعض الآداب الخاصة بالمزكي؟ ٥٧
س: وضح بعض الآداب المتعلقة بقابض الزكاة؟ ٥٩
س: ما هو قدر الغنى المانع من أخذ الزكاة؟ ٦٠
س: ما هي فضائل الصدقة؟ ٦٠
س: أيهما أفضل للفقير الأخذ من الزكاة أم من الصدقة؟ ٦١
س: وما هي أفضل الصدقة؟ ٦١
س: وضح طرفًا من فضل الصوم ومنزلته؟ ٦٢
س: اذكر بعضًا من سنن الصوم ومستحباته؟ ٦٢
س: ما هي مراتب الصوم؟ ٦٣
س: وماذا عن صوم التطوع؟ ٦٤
س: وضح بعض الآداب الخاصة لمن أراد الحج؟ ٦٥
س: اذكر بعض أسرار الحج؟ ٦٦
س: اذكر بعض فضائل القرآن؟ ٦٨
س: اذكر بعض آداب تلاوة القرآن؟ ٦٩
س: وماذا عن استحباب تحسين الصوت بالقراءة؟ ٦٩
س: ما هي أفضل العبادات التي تؤدى باللسان بعد تلاوة القرآن؟ ٧١
س: اذكر بعض الآيات والأحاديث التي تدل على فضل ذكر الله ﷻ؟ ٧١
س: لوألقيت الضوء على تنويع العبادات وتوزيعها على الأوقات؟ ٧٢
س: ما هي الأوراد المأثورة بالنهار وكم عددها؟ ٧٣

س: وما هي الأوراد المأثورة بالليل؟ ٧٦
س: كيف تختلف الأوراد باختلاف الأحوال؟ ٨٠
س: اذكر لنا طرفًا من فضل قيام الليل؟ ٨٢
س: ما هي الأسباب الميسرة لقيام الليل؟ ٨٢
س: من لم تتيسر له الصلاة بالليل فماذا يفعل؟ ٨٤
س: إلى كم قسم تنقسم آداب الأكل؟ ٨٥
س: تحدث عن الآداب المستحبة قبل الأكل؟ ٨٥
س: اذكر آداب الشرب؟ ٨٦
س: اذكر آداب الأكل التي تلزم من يأكل مع جماعة من الناس؟ ٨٦
س: اذكر بعض الآثار في استحباب تقديم الطعام للإخوان والأصحاب؟ ٨٧
س: وهل يستحب الدخول على قوم يأكلون؟ ٨٨
س: اذكر بعض آداب الضيافة؟ ٨٨
س: وما هي آداب الإجابة للدعوة؟ ٨٨
س: وما هي آداب إحضار الطعام؟ ٨٩
س: ما هي فوائد النكاح؟ ٩٠
س: وما هي آفات النكاح؟ ٩١
س: وما هي الأمور المستحب توافرها في المرأة لطيب العشرة؟ ٩١
س: ما هي الحقوق التي تلزم الزوج لزوجته؟ ٩٣
س: وما هي الحقوق التي تلزم الزوجة تجاه زوجها؟ ٩٥
س: ما هي آداب الولادة واستقبال المولود؟ ٩٦

س: ما هي آداب الطلاق؟ ٩٦
س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الكسب والحث عليه؟ ٩٧
س: اذكر بعض الآثار في فضل الكسب والحث على الاكتساب؟ ٩٨
س: ما هي الأمور التي ينبغي توافرها في عقد الاكتساب؟ ٩٨
س: ما حكم طلب الحلال؟ وكيف نجيب على من يقول أن الحلال منعدم وغير موجود؟ ١٠٢
س: وما هي درجات الحلال، وما هي درجات الحرام؟ ١٠٣
س: وما هي درجات الورع؟ ١٠٣
س: وما هي مراتب الشبهات وكيف نميزها عن الحرام؟ ١٠٤
س: وكيف يميز الإنسان بين ما يقدم له من طعام أوهدية؟ ١٠٧
س: من كان في يده مال مختلط منه الحلال والحرام ثم تاب، فكيف يميز بينهما؟ ... ١٠٨
س: وما الحكم في أموال الأعطيات التي يعطيها السلاطين؟ ١٠٩
س: وما أحوال من يخالط الأمراء والعمال الظلمة؟ ١٠٩
س: وما الأعذار والأحوال التي تسوغ الدخول على الأمراء الظلمة؟ ١١١
س: س: لو ذكرت بعض فضائل الخلق واستحباب الإحسان للخلق؟ .. ١١٣
س: اذكر بعض الأحاديث في فضل المحبة في الله؟ ١١٣
س: ما هي الحقوق التي تلزم الإنسان تجاه إخوانه؟ ١١٧
س: وضح بعض آداب المعاشرة للخلق؟ ١٢١
س: اذكر حقوق المسلم على المسلم؟ ١٢٢
س: اذكر بعض آداب عيادة المريض؟ ١٢٥

س: وما الآداب التي يلزم المريض الأخذ بها؟ ١٢٥
س: ما المقصود من تشيع الجنائز والتعزية؟ ١٢٥
س: وما المقصود من زيارة القبور؟ ١٢٥
س: ما آداب تشييع الجنائز؟ ١٢٦
س: ما هي حقوق الجار؟ ١٢٦
س: وما هي حقوق الأقارب وذوي الرحم؟ ١٢٦
س: وما هي حقوق الولد على والديه؟ ١٢٧
س: ما هي حقوق المملوك؟ ١٢٧
س: أيهما أفضل العزلة أم الخلطة؟ ١٢٨
س: وما هي حجج القائلين بتفضيل العزلة على الخلطة والعكس؟ ١٢٨
س: ما هي فوائد العزلة؟ ١٢٩
س: وما هي آفات العزلة ومضارها؟ ١٣٣
س: وما هي آداب العزلة؟ ١٣٦
س: ما تعريف السفر وما أنواعه؟ ١٣٧
س: ما هي أقسام سفر البدن، وما آفاته وفوائده؟ ١٣٧
س: وماذا عن السفر المباح؟ ١٣٨
س: وما آداب السفر؟ ١٣٩
س: ما هي الأمور التي لا بد للمسافر منها في سفره؟ ١٣٩
س: اذكر طرفًا من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ١٤٠

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث عليه؟ ١٤٠
س: ما هي مراتب إنكار المنكر؟ ١٤١
س: ما هي أركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ١٤١
س: ما هي مراتب الحسبة؟ ١٤٣
س: هل تثبت الحسبة للولد على الوالد، والعبد على السيد، والزوجة على الزوج، والرعية على الوالي؟ ١٤٣
س: ماذا لوعلم المنكر أن إنكاره لا ينفع؟ ١٤٤
س: ما هي درجات الاحتساب وما آدابه؟ ١٤٥
س: ما هي صفات المحتسب؟ ١٤٧
س: اذكر بعض المنكرات التي ألفها الناس ليحذر منها؟ ١٤٩
س: وماذا عن أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر؟ ١٥١
س: اذكر بعض مواعظ السلف للخلفاء والأمراء؟ ١٥٢
س: ما المقصود بالسماع وما حكمه؟ ١٥٨
س: اذكر طرفًا من آدب النبي ﷺ وأخلاقه؟ ١٦٠
س: اذكر طرفًا من معجزات النبي ﷺ؟ ١٦٢
س: وضح أهمية صلاح القلب وأثره على الجوارح؟ ١٦٣
س: ما هي مداخل إبليس إلى القلب؟ ١٦٣
س: وضح أحوال القلوب من حيث التقلب والثبات؟ ١٦٥
س: تحدث عن أهمية حسن الخلق؟ ١٦٧

س: وما السبيل إلى تهذيب الأخلاق؟ ١٦٩
س: ما هي علامات مرض القلب؟ ١٧٠
س: كيف يعرف الإنسان عيوب نفسه؟ ١٧٢
س: ما الحكمة من وجود شهوات النفوس؟ ١٧٣
س: ما هي علامات حسن الخلق؟ ١٧٤
س: وما السبيل لتنشئة الأبناء على محاسن الأخلاق؟ ١٧٦
س: وماذا عن شهوة البطن وخطرها؟ ١٧٨
س: وماذا عن شهوة الفرج، ما أهميتها وما خطارها؟ ١٧٩
س: تحدث عن آفات اللسان وخطرها، وما السبيل إلى التوقي منها؟ ١٨٠
س: وما فضيلة الصمت وأهميته؟ ١٨١
س: اذكر ما ورد في ذم الكلام فيما لا يعني؟ ١٨١
س: فصل القول في آفة الخوض في الباطل؟ ١٨٢
س: اذكر بعض ما ورد في ذم التقعر في الكلام؟ ١٨٣
س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الفحش والسب؟ ١٨٣
س: فصل القول في أحكام المزاح ما يجوز منه وما يحرم؟ ١٨٤
س: ما المقصود بالسخرية والاستهزاء، وما حكمها؟ ١٨٥
س: فصل القول في أحكام الكذب وما حكم المعاريض؟ ١٨٥
س: اذكر بعض ما ورد في التنفير عن الغيبة؟ ١٨٦
س: ما معنى الغيبة؟ ١٨٧
س: وما هي أقبح أنواع الغيبة؟ ١٨٧

س: وما حكم سماع الغيبة؟ ١٨٧
س: وضح الأسباب الباعثة على الغيبة؟ ١٨٨
س: لو فصلت القول في علاج الغيبة؟ ١٨٨
س: وهل تكون الغيبة بالقلب؟ ١٨٩
س: ما هي الأعذار المرخصة في الغيبة؟ ١٩٠
س: وما كفارة الغيبة؟ ١٩٠
س: وما خطر النميمة؟ ١٩١
س: اذكر بعض ما ورد في ذم ذي اللسانين؟ ١٩٢
س: ما آفات المدح؟ ١٩٣
س: وماذا عن الغضب وخطره؟ ١٩٥
س: وما الأسباب المهيجة للغضب؟ ١٩٧
س: وما علاج الغضب؟ ١٩٧
س: اذكر فضيلة كظم الغيظ؟ ١٩٩
س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل الحلم؟ ١٩٩
س: ما هو تعريف العفو؟ ٢٠٠
س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في فضل العفو؟ ٢٠١
س: اذكر بعض الآثار في فضل الرفق؟ ٢٠١
س: وما هو الحقد؟ ٢٠١
س: لوذكرت بعض الأحاديث والآثار في ذم الحسد؟ ٢٠١
س: وما الفرق بين الحسد والغبطة؟ ٢٠٢

س: ما هي أسباب الحسد؟ ٢٠٢
س: وما أسباب كثرة الحسد؟ ٢٠٤
س: وما علاج الحسد؟ ٢٠٥
س: اذكر طرفًا من الآيات والأحاديث الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها؟ ٢٠٧
س: لو ذكرت بعض آثار السلف وأقوالهم في التزهيد في الدنيا وذمها وحالهم معها؟ ٢٠٨
س: اذكر بعض الأمثلة التي ضربها السلف للدنيا؟ ٢٠٩
س: وهل كل الدنيا مذمومة؟ ٢١١
س: هل المال مذموم؟ ٢١٢
س: ما الفوائد الدينية والدنيوية للمال الحلال؟ ٢١٢
س: تحدث عن ذم الحرص والطمع ومدح القناعة؟ ٢١٥
س: وما علاج الحرص والطمع؟ ٢١٦
س: ومتى يستعمل العبد القناعة ومتى يستعمل الإيثار؟ ٢١٧
س: لو ذكرت بعض حكايات الأسخياء وأخبارهم؟ ٢١٧
س: اذكر بعض الأحاديث في ذم البخل؟ ٢١٩
س: لو ذكرت بعض الأقوال في ذم البخل؟ ٢٢٠
س: اذكر بعض حكايات البخلاء؟ ٢٢٠
س: وما هي أرفع درجات السخاء؟ ٢٢٠
س: وما هو الحد الفاصل بين البخل والسخاء؟ ٢٢٢
س: وضح خطر الرياء؟ ٢٢٣

س: وما الأسباب الباعثة على الرياء؟ ٢٢٤

س: لو وضحت العلاقة بين حب الجاه والمال؟ ٢٢٥

س: وما علاج حب الجاه؟ ٢٢٦

س: وضح خطورة الاهتمام بمدح الناس وذمهم؟ ٢٢٧

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الرياء؟ ٢٢٨

س: اذكر أقسام الرياء، مع تفصيل القول في كل نوع، وبيان خطره؟ ٢٢٨

س: وما هي أبواب الرياء، وما هي درجاته؟ ٢٣١

س: ما هو الرياء الخفي وما خطورته؟ ٢٣٢

س: لو أمكن بيان ما يحبطه الرياء من العمل؟ ٢٣٥

س: وما هو دواء الرياء، وكيف السبيل إلى علاجه والتخلص منه؟ ٢٣٥

س: ما هو تقسيم الأعمال من حيث الجهر بها والإسرار؟ ٢٣٨

س: ما حكم ترك الطاعات خوفًا من الرياء؟ ٢٣٩

س: وماذا لو نشط الإنسان في العمل والعبادة إذا كان بصحبة الناس هل
هذا من الرياء؟ ٢٣٩

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في ذم الكبر؟ ٢٤١

س: ما هي درجات وأقسام الناس في الكبر؟ ٢٤٣

س: وما أمارات الكبر وعلاماته؟ ٢٤٤

س: لو ذكرت بعض خصال المتكبرين؟ ٢٤٤

س: وما السبيل إلى علاج الكبر ومداواته؟ ٢٤٥

س: اذكر بعض الأحاديث والآثار في ذم العجب؟ ٢٤٨

س: وما أسباب العجب وما علاجه؟ ٢٤٩
س: وماذا عن الغرور وخطره؟ ٢٥١
س: لوذكرت أكثر أصناف الناس التي يقع فيها الغرور؟ ٢٥٢
س: تحدث عن التوبة ومنزلتها وأهميتها؟ ٢٦٣
س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار ما يثيرها؟ ٢٦٥
س: ما هي أقسام الذنوب باعتبار الصغائر والكبائر؟ ٢٦٦
س: كيف توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا؟ ٢٦٧
س: ما هي الأمور التي تعظم بها الصغائر؟ ٢٧٠
س: ما هي شروط التوبة؟ ٢٧٢
س: ما هي أقسام العباد من حيث الدوام على التوبة؟ ٢٧٥
س: ما هي الأمور التي ينبغي على التائب فعلها؟ ٢٧٦
س: ما هو دواء الإصرار على المعصية؟ ٢٧٧
س: ما الذي ينبغي للوعاظ أن يسلكوه مع الخلق؟ ٢٧٧
س: ما فضل الصبر وما حقيقته؟ ٢٨٠
س: ما هي أقسام الصبر؟ ٢٨١
س: ما هي آداب الصبر؟ ٢٨٤
س: ما هي الأمور المعينة على الصبر؟ ٢٨٦
س: وضح فضل الشكر ومنزلته في الشرع؟ ٢٨٨
س: هل الشكر يكون باللسان فقط، فصل القول في ذلك؟ ٢٨٩
س: بماذا يتم الشكر؟ ٢٨٩

س: وضح تعريف النعمة وأقسامها؟ ٢٩٣
س: ما هي أقسام النعم من حيث كونها مطلوبة لذاتها أو لغيرها؟ ٢٩٤
س: اذكر بعض الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل؟ ٢٩٥
س: اذكر بعض نعم الله في الأطعمة والأغذية وعجائب ذلك؟ ٢٩٩
س: ما السبب في تقصير الخلق في شكر النعمة؟ ٣٠٠
س: ما هي أسباب الغفلة عن نعم الله ﷻ؟ ٣٠١
س: ما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى؟ ٣٠٤
س: قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلًا، فما معنى الصبر، وإن كان البلاء موجودًا، فما معنى الشكر على البلاء؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر؟! فإن الصبر يستدعي ألمًا، والشكر يستدعي فرحًا، وهما متضادان؟ ٣٠٤
س: ما هي الأمور الموجودة في البلاء التي ينبغي للعاقل أن يفرح بها ويشكر عليها؟ ٣٠٦
س: الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم، فهل لنا أن نسأل الله ﷻ البلاء؟ ٣٠٨
س: أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟ ٣٠٨
س: تحدث عن فضل الرجاء وأهميته؟ ٣١٠
س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الرجاء؟ ٣١٢
س: من من الناس تشتد حاجته لدواء الرجاء؟ ٣١٢
س: تحدث عن أسباب الرجاء وطرقها؟ ٣١٣
س: ما تعريف الخوف وما حقيقته؟ ٣١٥

س: اذكر بعض ثمرات الخوف؟ ٣١٥
س: ما هي أحوال الناس مع الخوف؟ ٣١٦
س: ما هي أقسام الخوف؟ ٣١٧
س: ما العلاقة بين الرجاء والخوف؟ ٣١٨
س: أيهما ينبغي للإنسان أن يغلبه الخوف أم الرجاء؟ ٣١٨
س: كيف يحصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى؟ ٣١٩
س: كيف يستجلب الخوف؟ ٣٢٠
س: ما هي أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؟ ٣٢٢
س: ما هي مراتب سوء الخاتمة؟ ٣٢٢
س: اذكر بعض الأخبار حول خوف ملائكة الرحمن؟ ٣٢٤
س: اذكر بعض الأخبار حول خوف الأنبياء؟ ٣٢٥
س: اذكر بعض أخبار خوف نبينا محمد ﷺ؟ ٣٢٥
س: اذكر بعض صور خوف أصحاب النبي ﷺ و‌رضي الله عنهم؟ ٣٢٦
س: اذكر بعض أخبار خوف التابعين؟ ٣٢٧
س: اذكر فضل بغض الدنيا؟ ٣٢٨
س: من هو الفقير؟ ٣٢٩
س: ما هي أحوال العبد عند فقره؟ ٣٢٩
س: اذكر بعض الآيات والأخبار في فضيلة الفقر على الغنى؟ ٣٣٠
س: أيهما أفضل الغني أم الفقير؟ ٣٣١

س: اذكر بعض آداب الفقير في فقره؟ ٣٣٢
س: ما هي آداب الفقير في قبول العطاء؟ ٣٣٣
س: ما حكم السؤال لغير ضرورة؟ ٣٣٤
س: اذكر أحوال السائلين للعطاء؟ ٣٣٥
س: وضح مقام الزهد وفضله؟ ٣٣٦
س: اذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في فضل الزهد؟ ٣٣٦
س: ما هي درجات الزهد؟ ٣٣٧
س: ما هي أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه؟ ٣٣٨
س: ما حكم الزهد في ضروريات الحياة وكيف يكون ذلك؟ ٣٣٨
س: ما هي علامات الزهد؟ ٣٤٢
س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة التوكل؟ ٣٤٣
س: ما هي طبقات التوحيد التي ينبني عليها التوكل؟ ٣٤٣
س: ما هو حد التوكل وتعريفه؟ ٣٤٤
س: كيف تكون أعمال المتوكلين؟ ٣٤٥
س: اذكر منزلة المحبة لله ﷻ؟ ٣٤٩
س: ما هي أجل اللذات وأعلاها؟ ٣٥٣
س: ما هي الأسباب المقوية لحب العبد لربه ﷻ؟ ٣٥٧
س: ما معنى الشوق لله تعالى؟ ٣٦٠
س: تحدث عن محبة الله تعالى للعبد ومعناها؟ ٣٦١
س: ما هي علامات محبة العبد لله تعالى؟ ٣٦١

س: وما علامات محبة العبد لربه ﷻ؟ ٣٦٢

س: ما معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ﷻ؟ ٣٦٥

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟ ٣٦٦

س: هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟ ٣٦٧

س: هل الدعاء يناقض الرضا؟ ٣٧٠

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟ ٣٧٣

س: ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟ ٣٧٤

س: إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟ ٣٧٤

س: اذكر طرفًا من أهمية الإخلاص وفضله؟ ٣٧٨

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟ ٣٧٨

س: وضح حقيقة الإخلاص؟ ٣٧٩

س: ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟ ٣٨١

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟ ٣٨١

س: ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟ ٣٨٢

س: اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟ ٣٨٣

س: اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟ ٣٨٤

س: تحدث عن المشارطة وأثرها في المحاسبة؟ ٣٨٤

س: وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟ ٣٨٧

س: وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟ ٣٨٨

س: تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟ ٣٩٠

س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟ ٣٩١
س: اذكر أهمية التفكر وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟ ٣٩٢
س: في ماذا يكون الفكر؟ ٣٩٣
س: ما حكم التفكر في ذات الله ﷻ؟ ٣٩٥
س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وآثره على الحياة؟ ٣٩٧
س: اذكر بعض ما ورد في فضل ذكر الموت؟ ٣٩٨
س: ما هي أسباب طول الأمل؟ ٣٩٩
س: ما هي أحوال الناس مع طول الأمل؟ ٤٠٠
س: اذكر بعض ما ورد في شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده؟ ٤٠٢
س: كيف كانت وفاة رسول الله ﷺ؟ ٤٠٣
س: أذكر ما ورد في وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه؟ ٤٠٤
س: وماذا عن وفاة عمر الفاروق رضي الله عنه؟ ٤٠٥
س: اذكر بعض ما ورد في وفاة عثمان رضي الله عنه؟ ٤٠٦
س: وكيف كانت وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ ٤٠٦
س: اذكر بعض ما نقل عند موت بعض من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم؟ ٤٠٧
س: ما حكم زيارة القبور؟ ٤٠٨
س: ما هي حقيقة الموت؟ ٤٠٨
س: اذكر بعض ما ورد في ذكر القبر وضمته؟ ٤١٠
س: ما هي أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى حين الاستقرار في الجنة
أو النار؟ ٤١٢

س: اذكر بعض ما ورد في جهنم وأهوالها أعاذنا الله وإياكم منها؟ ٤١٤
س: اذكر بعض ما ورد في نعيم الجنة وعظمه نسأل الله العظيم من فضله؟ ٤١٥
س: تحدث عن سعة رحمة الله ﷻ نسأل الله من فضله؟ ٤١٧
س: اذكر بعض ما ورد في شفاعة نبينا ﷺ وشفاعة الصالحين من أمته؟ ٤٢٠

الفهرس الإجمالي

الفهرس الإجمالي

مقدمة المؤلف ٥
العلم وفضله ٣٧
علم المعاملة ٤١
العلوم المحمودة ٤٢
آداب المعلم والمتعلم ٤٤
آفات العلم ٤٥
الطهارة وأسرارها ٤٨
فضائل الصلاة ٤٩
صلاة الجمعة ٥٣
الزكاة وأسرارها ٥٦
دقائق الآداب الباطنة في الزكاة ٥٧
آداب القابض للزكاة ٥٩
صدقة التطوع فضلها وآدابها ٦٠
الصوم وأسراره ٦٢
سنن الصوم ٦٢
بيان أسرار الصوم وآدابه ٦٣
الحج وأسراره ٦٥
آداب القرآن وفضائله ٦٨
آداب التلاوة ٦٩
الأذكار والدعوات ٧١
أوراد الليل والنهار وترتيبها ٧٣
أوراد الليل ٧٦
اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال ٨٠

قيام الليل وفضله ٨٢
الأسباب الميسرة لقيام الليل ٨٢
آداب الأكل ٨٥
آداب الضيافة ٨٨
آداب النكاح ٩٠
آداب المعاشرة ٩٣
آداب الولادة ٩٦
آداب الطلاق ٩٦
آداب الكسب والمعاش ٩٧
الحلال والحرام ١٠٢
آداب الصحبة ومعاشرة الخلق ١١٣
صفات الصاحب ١١٥
حقوق الإخوان ١١٧
حقوق المسلم ١٢٢
آداب عيادة المريض ١٢٥
آداب تشييع الجنائز ١٢٥
حقوق الجار ١٢٦
حقوق الأقارب والأرحام ١٢٦
حقوق الأولاد ١٢٧
حقوق المملوك ١٢٧
العزلة والخلطة ١٢٨
آداب السفر ١٣٧
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٤٠
حكم السماع ١٥٨
من أخلاق النبوة ١٦٠
أحوال القلوب ١٦٣
مداخل إبليس ١٦٣

ثبات القلوب على الخير ١٦٥
حسن الخلق ١٦٧
الطريق إلى تهذيب الأخلاق ١٦٩
علامات مرض القلب وصحته ١٧٠
شهوات النفوس ١٧٣
علامات حسن الخلق ١٧٤
تنشئة الأبناء ١٧٦
شهوة البطن ١٧٨
شهوة الفرج ١٧٩
آفات اللسان ١٨٠
الكلام فيما لا يعني ١٨١
الخوض في الباطل ١٨٢
التقعر في الكلام ١٨٣
الفحش والسب ١٨٣
المزاح ١٨٤
السخرية والاستهزاء ١٨٥
إفشاء السر والكذب ١٨٥
الغيبة ١٨٦
النميمة ١٩١
ذي اللسانين ١٩٢
الغضب ١٩٥
كظم الغيظ ١٩٩
الحلم ١٩٩
العفو ٢٠٠
الرفق ٢٠١
الحقد والحسد ٢٠١
الدنيا ٢٠٧

المال ٢١٢
الحرص والطمع ٢١٥
البخل ٢١٩
الرياء ٢٢٣
الكبر ٢٤١
العجب ٢٤٨
الغرور ٢٥١
التوبة ٢٦٣
الصبر ٢٨٠
الشكر ٢٨٨
الرجاء ٣١٠
الخوف ٣١٥
الفقر ٣٢٨
الزهد ٣٣٦
التوكل ٣٤٣
المحبة ٣٤٩
الرضا ٣٦٦
النية ٣٧٣
الإخلاص ٣٧٨
الصدق ٣٨١
المحاسبة والمراقبة ٣٨٣
التفكر ٣٩٢
الموت ٣٩٧
القبر ٤١٠
جهنم ٤١٤
الجنة ٤١٥
سعة رحمة الله تعالى ٤١٧
الشفاعة ٤٢٠

دار أبو سليمان للطباعة والتجليد
٠١٢/٤٢٤٤٢٠٨ - ٠١٢/١٢٧٢١٢٤